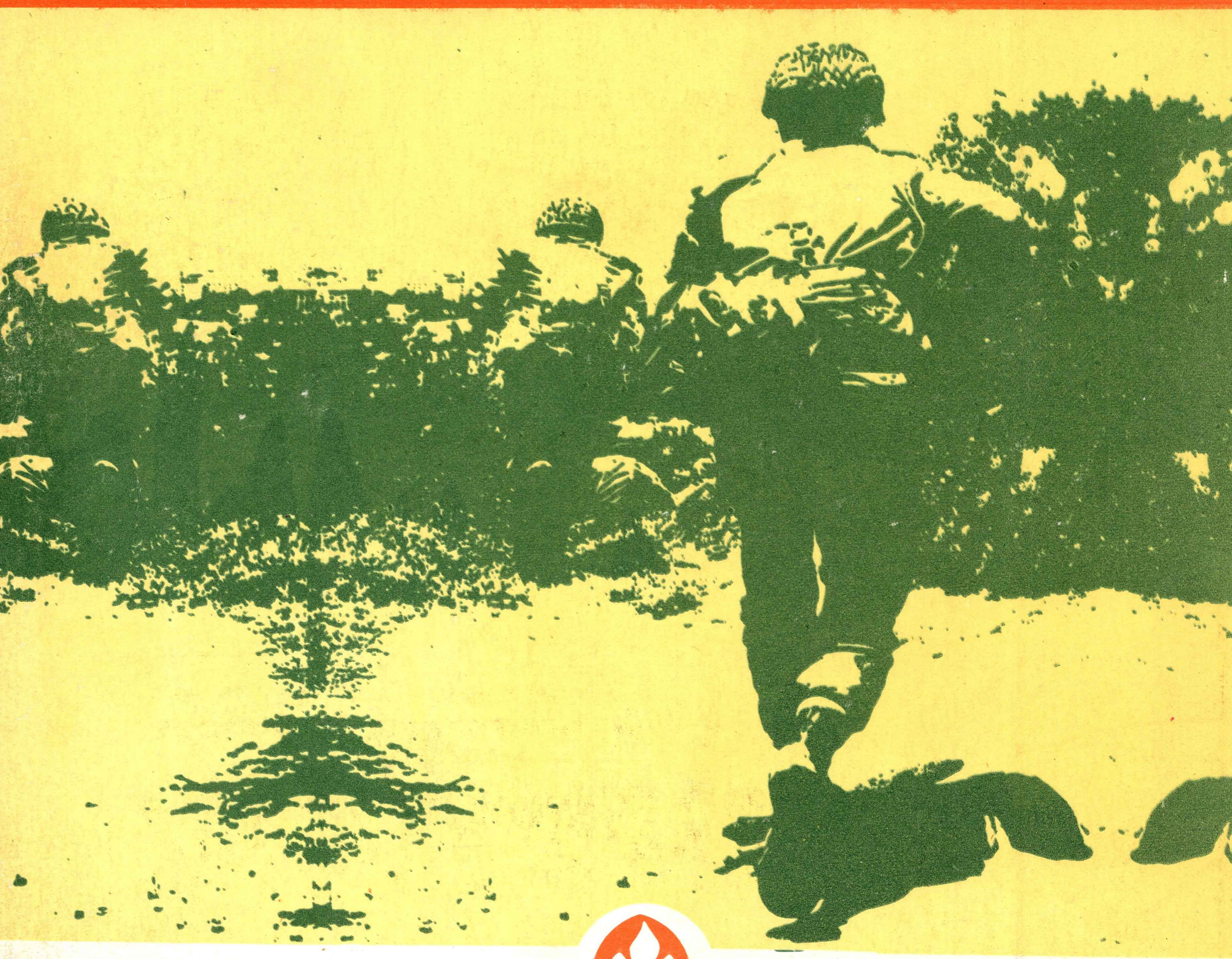
المخادعه ومعاركها الكبرى

اللواء الركن المتقاعد

حارث لطفي الوفي



دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الطبعة الاولى لسنة ١٩٩٠ ـ بغداد

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة « آفاق عربية »
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
بأسم السيد رئيس مجلس الإدارة
العنوان :
العراق ـ بغداد/اعظمية ص ـ ب ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣
هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

المخـــادعة
ومعاركها الـكبرى

اللواء الركن المتقاعد

حارث لطفي الوفي

الطبعة الاولى سنة ١٩٩٠ - بغداد

الاهـــداء

الى روح والدي

لطفي محمود حسن الوفي

معلمي الاول

ورفيق ذاكرتي المستديم *

مقدمـــة

معظم الكتب التي تناولت المعارك عبر التاريخ لم أجد فيها ما يشير الى المخادعة العسكرية بشكل مكثف ، وكل ما وجدته كان اشارات خفيفة اليها على الرغم من وزنها الكبير في ربح المعارك ، ولذلك بدأت بمسح عام لمعظم المعارك العسكرية التي حدثت في العصور القديمة أي قبل الميلاد بمدد طويلة، وكذلك المعارك التي حدثت بعد الميلاد وحتى يومنا هذا فوجدت المعارك التي بين أيديكم الان تمثل قمة المخادعة ، وكانت المخادعة اما أساسا للانتصار بها أو انها ساعدت على الانتصار الى أبعد الحدود .

من أجل فهم المعارك المذكورة أفردت فصولا قبلها تعطي فكرة عامة عن المخادعة ، كما توضح بعض المفاهيم عنها ، وجميع هذه الفصول موثقــة من مصادر مختلفة يمكن أن يرجع اليها القاريء للمزيد من المعلومات .

عزز الكتاب بالكثير من الخـرائط التي ستعطي الانطباع الكامــل عن المناطق التي جرت فيها المعارك ، وكيفية التحام الجيوش فيها ، وأماكن الاندحار والظفر ، وكذلك نهايات تلك المعارك وما حدث بعدها بقليل .

هذه مقدمـــة بسيطة أرجو أن أكون قد وفقت في المسعى ، ومن الله التوفيق .

المؤلف

المحتويـــــات

معركة بيرل هاربور البحرية الجوية ٢٥٣ــ٢٨٦

مخادعة القطعات الصديقة

تتزاوج مع المخادعة الدبلوماسية

معركة جسر آرنيم ٢٨٧ــ٣١١

المخادعة الجوية المتسربة للخصوم

مدخـــل عـــام

الى

معارك المخادعة الكبرى

ان الحروب الناجحة تأتي ثمرة لسلسلة من المعارك المتلاحقة التي يتفوق فيها طرف على طرف آخر في القتال ، كما أنها النتيجة النهائية لمن يستخدم مبادىء الحرب بشكل أفضل من غيره في سلسلة القيادة العسكرية .. ناهيك عن أن الارادة القوية يجب أن تكون الوشاح الذي يجب أن يتوشح به فكر القائد الناجح ، على أساس أن الحرب ، وكما قال الجنرال فوش الفرنسي ، وما تتداوله الافكار العسكرية الآن هي : «صراع ارادات» ، هذا فضلاً عن نوعية القوات وموقفها المعنوي .

ان من جملة الامور التي تتعاون مع بقية العوامل في سبيل انجاح المعارك هي المخادعة العسكرية التي تقود في معظم الاحيان الى المباغتة التامة للخصوم في مسارح العمليات ، ومن خلال المباغتة ، يمكن أن نديم المبادأة وصولاً الى النصر ، وهكذا يمكن أن نستنتج من البداية ما يأتي :

المخادعة ← المباغتة ← ادامة المبادأة ← النصر

اذن فالمخادعة تعد من العناصر المكونة للنجاح في المعارك ، لذلك نجد أن معظم القادة يفكرون بها بطريقة أو بأخرى ، ويجندون من أجلها الكثير من

الرجال ، والنساء ، والمواد ، والاموال ، بغية النجاح في معركة معينة واحدة ، أو في سلسلة من المعارك ، علماً بأن هؤلاء القادة لا يشكلون مستوى قيادياً واحدا ، وانما ينتمون الى مستويات مختلفة مبتدئين بالفوج ، ومرورا باللواء ، ثم الفرقة والفيلق والجيش وصولا الى جحافل الجيوش •

المخادعة في القاموس العسكري لايشار اليها على أنها وليدة عصر معين ، وانما هي تصور وعمل ، أو تصورات وأعمال تناقلتها الاجيال •• بيد أن أول اشارة موثقة عن المخادعة جاءت من الصين عبر مفكرها السوقي الأبدي البريق «سان تسو» في كتابه «فن الحرب»[1] •

لقد أشار «سان تسو» على أن ترويج الافكار المخادعة ، ونقلها الى العدو بصورة عفوية لاريب فيها •• يمكن أن يقود الى خداع العدو بتشويش أفكاره، ثم الانتصار عليه ، بعد أن يكون قد فقد توازنه الفكري والعسكري •• نتيجة وقوعه في فخ عدم المعرفة •

ان القوات عندما تفقد توازنها المذكور أعلاه •• سيقل أداؤها الميداني وسيصل الى حالة من الضمور والهزال ، والى حدود بعيدة ، وعندما سنتكلم عن معارك المخادعة الكبرى لاحقاً سنلمس كيف يحدث ذلك •

ان كلمة المخادعة هي المرادف الاساسي في عقل الجمهور «بالحيلة» وكلتا الكلمتين تعدان مرفوضتين من قبل الضمير الحي النقي ، وان من يمارس المخادعة والحيلة في المحيط المدني يعد انسانا مرفوضا من قبل المجتمع، تطارده اللعنة أينما عمل وذهب ، ومع هذا فانها في القاموس العسكري تعد عملا مشروعاً يثير الاعجاب لدى الاصدقاء والاعداء على حد سواء إذا كانت ناجحة •• حيث ينظر الى المجموعة ، أو الجانب الذي نجح في عمليات المخادعة نظرة اعتزاز وتقدير ، وتجعل الاجهزة الاعلى تفكر في تكريمها ، ومكافأتها ، ومع ذلك فهناك بعض الجوانب المرفوضة في عمليات المخادعة العسكرية ،

فقد جاء في المادة «٢٤» من اتفاقية «لاهاي» للحرب البرية عام «١٩٠٧» : «انه يجوز للدول ان تلجأ أثناء الحرب الى استخدام خدع حربية ، شريطة أن لا تتسم بطابع الغدر والخيانة ، وأن لاتخل بالواجبات الدولية» ، ومع ذلك فمن الصعب جداً رسم حدٍ فاصل لعمليات الغدر والخيانة المذكورة ،ويمكن هنا أن نؤشر بعض الامور المخلة بالشرف وهي(٢) :

١ ـ التظاهر بالتسليم خداعا للعدو ، كرفع راية بيضاء على موضع دفاعي لايهام العدو بالرغبة في التسليم ، حتى اذا مـــا أطمأن ، وأقترب من الموضع الدفاعي المذكور ، انهالت عليه جميع الاسلحة .

٢ ـ استعمال أعلام العدو واشاراته وملابس جنوده .. وفي هذه الحالة يمكن التسلل الى صفوفه دون خطر ، الا أن من يقع في يد العدو في هذه الحالة لن يعد أسيرا ، ويجوز محاكمته واعدامه .

٣ ـ استعمال اشارات الصليب الاحمر ، والهلال الاحمر ، لأغراض قتالية ، وقد حرمت اتفاقية جنيف الاولى والثانية عام ١٩٤٩ ومن قبلها اتفاقية جنيف عام ١٩٢٩ هذا الاستخدام .

٤ ـ الاخلال باتفاق دون سابق انذار كمفاجأة العدو .

٥ ـ قطع الرأي لمبعوث ومن ثم العمل خلافا لذلك .

٦ ـ اعطاء فرصة لأسير على الفرار يحمل مرضا خطرا .

ان كلمة الحيلة تقترب من كلمة المخادعة ولكن الحيلة قد يمارسها شخص مفرد أو مجموعة من الافراد ، إلا أن عمليات المخادعة العسكرية قد تشـــمل بعض أجهزة الدولة الاخرى ، ولذلك فهي عملية جماعية تقاد بالمستوى السوقي «الاستراتيجي» ومن أعلى المستويات ناهيـــك عن امكانية قيادتها بالمستوى العملياتي والتعبوي .

ان كلمة المخادعة ، وان كانت متداولة على مر العصور ، بيد أن التفكير في وضع مفردات علمية تطبيقية ، على وفق أسس مدروسة بطريقة عملية لم يجر إلا في القرن العشرين ، وبدءاً خلال الحرب العالمية الاولى •• حيث دخل علم النفس الاجتماعي الى القوات المسلحة في بعض البلدان ، وأخذ يتعاون في مجال المخادعة مع الاجهزة القائمة على تحقيق أعمـــال المخادعة •• حيث أسهم علم النفس في المواد والمفاصل والحلقات التي يمكن أن تلاقي في النفس البشرية قبولا أكثر من غيرها ، كما كان هذا العلـــم يقوم بدراسة الجانب المستلم «المتلقي» للمعلومات نفسيا لتسهيل عمليـــات المخادعة الى أبعد الحدود •• وتذكر لنا معظم الكتب المكرسة لشرح أبعاد الحرب العالمية الاولى شخصية «ماتا هاري» ، الجاسوسة الحسناء التي كانت تعمل لصالح الالمان ، الا أن أعمال ماتا هاري التجسسية لم تمثل الا جانبا بسيطا من أعمال المخادعة ، لان أعمال المخادعة لا يمكن أن تقف على شخصية واحدة ، كما وأن «ماتا هاري» نفسها كان يقع على عاتقها القيام بأعمـــال المخادعة فضلا عن جمع المعلومات الدقيقة عن الفرنسيين ، والبريطانيين على حد سواء ، وهنا علينا أن نذكر أيضا الأميرال البحري الالماني «كناريس» الذي منحت له هذه الرتبة في الحرب العالمية الثانية ، لان «كناريس» عند اندلاع الحرب العالمية الاولى لم يكن سوى ضابط حدث يخدم في البحرية الالمانية ، بيد أن مواهبه الاستخبارية قد أهلته لان يدخل في تنظيم الاستخبارات منذ بداية حياته العسكرية ، وفي تلك المرحلة أظهر هذا الضابط دهاءً عجيباً مسربلاً في لباس المخادعة •• حيث تمكن من خلال اجراءات مخادعة فردية من الهرب من الاسر عندما أغرقت الطرادة الالمانية «درسدن» في مياه دولة «شيلي» والذهاب عبر جبال «الانديز» الى «بوينس أيرس» ثم الى «هولندا» ، ومن هناك الى «برلين» •• التي فطنت الى عبقرية هذا الاسير الهارب •• حيث عينته للقيام بمهمة سرية في مدريد ، التي تركها بتأريخ ١٩١٦/٢/٢١[٣] ، متوجها الى سويسرا عبر ميناء «جنوا» الايطالي حيث قام البوليس الايطالي باعتقاله ، بيد أن كناريس تمكن من أن يضلل هذا

البولیس عبر عملية مخادعة بسيطة ، حيث ترك وشأنه ، وهذا مما زاد أجهزة المخابرات الالمانية وثوقا بمقدرة هذا الرجل الذي عاد ثانية الى اسبانيا .

أما إذا ذهبنا الى الحرب العالمية الثانية فسنجد أن منظومات المخادعة أخذت تتحسن بدرجة كبيرة ، وان الاجهزة الالكترونية ، والاجهزة العلمية المتقدمة قد دخلت هي الاخرى ميدان الممارسة ، حيث كان لدى البريطانيين منظومة «الكترا» التي وقفت وراء معظم اجراءات ، وخطط المخادعة للحلفاء ، كما كان في الجانب الالماني منظومة «أنكما» التي تقوم ببث الاوامر وتجفير الكتب المهمة ، وفك الطلاسم البريطانية .

مع كل ما تقدم نجد أن المخادعة وان أثبتت بشكلها العلمي والاجتماعي ، والنفسي ، هي وليدة القرن العشرين لا غيره من القرون ، الا أن أهم منظر فكري لها يعد الكاتب والمفكر العسكري الألماني «كلاوزەفز» ، حيث أفرد لها فصلا خاصا في كتابه الموسوم «الوجيز في الحرب»[٤] .. فمن خلال هذا الكتاب يمكن أن نقف على آراء «كلاوزەفز» في المخادعة .. حيث عدها موقفا عسكريا غير مباشر ، وهذا الطرح يمكن عده في بعض الحالات موقفا مبتورا ، اذ أن المخادعة في القطعات في مسرح العمليات يعد موقفا مباشرا ، وهكذا نجد مرة أخرى أن الكتاب الذين سبقوا القرن العشرين كان لهم موقف ضبابي من المخادعة ، وكيفية تطبيقها العملي بالشكل المطلوب .

لم يتبلور هذا الرأي الا في أبحاث القرن العشرين التي اهتمت بالمخادعة الى أبعد الحدود .. حيث أخذت الأكاديميات العسكرية تدرس هذا الموضوع ضمن مناهجها المقررة ، ناهيك عن تكليف الدارسين في أحيان كثيرة بالبحث والتقصي والاستزادة حول الموضوع المذكور ، الذي يمكن أن يعد القاسم المشترك الاعظم لكل تخطيط عسكري متقن في حدود مسرح العمليات .

المخادعة في واقع الامر وخلال هذا القرن لم تكن وقفا على العسكريين وانما تعدتهم لتشمل قادة سياسيين ، وكان أبرزهم رئيس الوزراء البريطاني

الاسبق «ونستون شرشل» ، حيث عدّ المخادعة عملاً مهماً يتسم بالكذب ، وذلك من أجل حماية الحقائق حين قال : «ان الصدق في الحرب ثمين جدا ، ولذلك يجب أن يحاط بحرس من الاكاذيب»(٥) .

في الحقيقة ان الصدق لدى شرشل كانت تمثله الخطط العسكرية التي ستطبق في المستقبل القريب أو البعيد ، أي على المدى السوقي «الستراتيجي» أو العملياتي ، ثم التعبوي ، وعليه فان حمايتها كانت تعتمد على سلسلة من الاكاذيب المتقنة ، بغية اعطاء انطباع للجانب المعادي عن محاور أخرى للعمل ، غير المحاور الحقيقية التي تم الاتفاق عليها في القيادات العسكرية ، ومع عظم مركز «شرشل» ابان الحرب العالمية الثانية فان ذلك لم يمنع بعض الاشخاص الذين خالفوه في هذا الرأي هو العميد «دودلي كلارك» والذي يعد أهم شخصية بريطانية أنيطت بها بعض أعمال المخادعة الكبيرة ، وقد أخذ العميد المذكور خلال الحرب العالمية الاولى اسم «كالفنستون» بغية كشف مصادر المخادعة في المملكة المتحدة ، وقد خالف «شرشل» بصراحة عندما قال : « المخادعة هي الخطط الساترة ، وهي ثمينة جداً ، ولذلك يجب أن تحمى بجنبات من الحقائق» ، وبذلك أراد العميد كلارك أن الاكاذيب المستمرة لا يمكن أن تنطلي على أحد ، حيث سيعرف العدو نهج هذه الاكاذيب ، ثم لايوليها أي اهتمام ، ولذلك كان لزاما على المخادعة أن تقترن ببعض الحقائق البسيطة غير المؤثرة في صلب العملية الحقيقية المراد تنفيذها ، ويبدو من هذا أن العميد «دودلي» يعد منطقيا أكثر من رئيس الوزراء البريطاني الاسبق «شرشل» .

اذا تجاوزنا الحرب العالمية الثانية بقليل ، ووصلنا الى الحرب الكورية ، سنجد أن خطط المخادعة التي قامت بترتيبها قوات الامم المتحدة ، وصلت الى الذروة ، وذلك عند انزالها في ميناء «آنشون» والذي كان يقع حينذاك تحت سيطرة كوريا الشمالية ، وقد بلغت اجراءات المخادعة الى مدى عجيب في انطلائها على الشماليين .. بحيث ان قوات الجنرال الامريكي «ماك آرثر»

عندما هاجمت الميناء المذكور لم تجد أية صعوبة كبيرة في احتلاله ، وجل ما كان من مقاومة لايتعدى مقاومة قطعات الحراسة البسيطة ، وهكذا ، وصلت المخادعة الى قمتها عند استخدام العلم ، والرجـــال ، والاجهزة ، ثم الاسلحة القتالية ، حيث كان تقوم الطائرات التابعة للولايات المتحدة الامريكية ، بقصف وتصوير مناطق في عمق كوريا الشمالية ، وبعض الموانىء التي تقع في الطرف الآخر للجزيرة المقابلة للميناء المذكور .

ان تركيز القادة على عمليات المخادعة ، قد أعطى لكل دولة أسلوباً خاصاً في تلك العمليات ينبع من ظروفها الموضوعية ، وامكاناتها المادية ، ومع ذلك ستبقى الاسس واحدة وان اختلفت السـياقات ، ومن هنا يمكن أن نلمس وبكل وضوح ماهية المخادعة في عموم التفكير الغربي العام ، أما في العراق ، فقد أرسى القائد المناضل صدام حسين «حفظه الله» قاعدة للمخادعة ، وذلك خلال قول لسيادته ينص على «ان المخادعة أو التمويه هو القول ، أو التصرف الذي إذا ما اطلع عليه العدو يدخله اليقين من أن القول مقصود لذاته ، وان الفعل محتمل أكثر من غيره ، وبذلـك ينطلي عليه اكتشاف الفعل الحقيقي المخطط له من قبلنا فعلا في وقت مبكر»(٦) . ان ما ذهب اليه الرئيس القائد يعد أحدث تعريف للمخادعة حيث ان من ناقشناهم سابقا كانوا يركزون على جانب واحد من جوانب المخادعة ، فشرشل كان يركز على الاكاذيب ، والعميد «دودلي كلارك» على بعض الحقائق ، بيـد أن الرئيس القائد وضع طرفي المعادلة بصورة أشد عمقا حـين نادى بالثنائي المتلازم والمتكون من القول والتصرف ، ولهذا فقد جمع مايمكن أن يهمس بـه ، أو ينادى به جهارا مع العمل المادي الذي يشمل تصرفات معينة سـواء في ساحة العمليات أو في المستويات السوقية العليا .. اذ ان بعض الاقوال غير المدعومة بتصرفات تدل على صحتها قد تجعل الجانب المقابل يهملها ولا يعيرها تلك الاهمية ، خصوصا تلك المعلومات التي تخص مسرح العمليات بالذات . أو ميدان معركة معين ،

كما أن القول المذكور أعلاه لا ينطبق على مستوى قيادي معين ، لأنه يمكن أن يطبق في المستويات كافة ، بـــدءا بالمستويات التعبوية ، ومرورا بالمستويات العملياتية وصولا الى المستويات السوقية «الاستراتيجية» لأنه بسيط وعميق وقابل للتـــداول من قبل الجميع ضمن المتيسرات ، وضمن معطيـــات ساحة المعركة ، وهكذا ، وبعد كل ذلك يمكن أن نستنتج استنتاجا مهما هو عدم اغفال الدعم اللفظي للمعلومات بتصرفات ماديـــة تعزز فيها بغية انطلائها على العدو ، وأخيرا يظهر أن السوق أو الاستراتيجية قد استعارت هذه التسمية من كلمة «الستراتيجم» ، وهي كلمـــة لاتينية تعني المخادعة ، وهكذا يكفي المخادعة فخرا ، لذا بقي هذا التعبير متفقا وملائما لأعمق طبيعة للحرب ، رغم كل التحولات الحقيقية والظاهرة التي تعرضت لها الحرب •• ومع هذا فلا يوجد شيء يزكي السوق ويوقظ المشاعر ، ويجعل العسكرية متفائلة بالنصر عند نشوب الصراع المسلح مثل المخادعة ، لانها تقود الى المباغتة والمباغتة تقود الى احتمال تقليل القطعات ، وهذا يقود بدوره الى مبدأ «الاقتصاد بالجهد»(٧) .

المـــراجع :

(١) سان تسو «فن الحرب» مترجم ومنشور من عدة جهات طباعية وهو كتاب قيم يملك عراقة تأريخية ، ومعروف جدا من قبل الدارسين العسكريين .

(٢) الموسوعة العسكرية رقم «٢» ـ المؤسسة العربيـــة للدراسات والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الاولى ١٩٧٩ ص٥٥ .

(٣) أساطير التجسس للحرب العالمية الثانية ـ تأليف «نايجل ويست» ترجمة نمير عباس مظفر ـ دار الشؤون الثقافيـــة العامة ـ وزارة الثقافة والاعلام العراقية ـ الطبعة الاولى ١٩٨٦ ـ ص٣٧ .

(٤) الوجيز في الحرب ـ فون كلاوزهفز ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ترجمة أكرم ديري ، والهيثم الايوبي ـ ١٩٧٤ ص٢٠٠ .

(٥) ممارسة المخادعة . كتاب صـــادر عن وزارة الدفاع العراقية ـ العراق ـ المطابع العسكرية ص٨ ، ٩ .

(٦) من توجيه شخصي الى الكاتب من قبل الرئيس القائد صدام حسين في ١٢ آب ١٩٨٥ ، والمثبت في كتاب المخادعة العسكرية الصادر عن وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ ١٩٨٦ .

(٧) المخادعة العسكرية ـ وزارة الدفاع العراقيـــة ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ١٩٨٦ وكتاب الوجيز في الحرب للمؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٤ ص٢٠٠ والموسوعة العسكرية للدار نفسها ص٥٤ .

التفكير السديد

و

المخادعة

قد يكون من الصعوبة أن تنطلي المخادعة على القادة ذوي الرأي السديد، ونحن عندما نركز في هذا الصدد على القادة فلأنهم يعدون المرحلة النهائية التي تصل اليها المعلومات، فاما يقومون بتصديقها، أو لايقوموا بذلك، لأنهم سلطة القرار .. وعليه، وكحقيقة يجب أن ننطلق منها، فان معارك المخادعة عموماً تنتهي بهم، ولذلك متى ما يكون القائد حصينا سديد الرأي حول المعلومات المتاحة، ويتمكن من الجانب الآخر أن يجعل رأيه المخادع يتسرب الى ذهن القائد المعادي فانه والحالة هذه يخطو الخطوة الاولى في مضمار النجاح، وقد حدد «نابليون بونابيرت» ذلك، عندما قال: «ان شخصية القائد الفذة لا غنى عنها .. انه عقل الجيش، بل هو الجيش كله .. ان «الغوليين» لم تخضعهم فيالق الرومان، ولكن أضعفهم القيصر، ومارتعدت روما أمام الجنود القرطاجين، ولكنها ارتعدت أمام «هانيبال»، وما كانت كتائب الفلانكس المقدونية هي التي اخترقت الهند، ولكنه الاسكندر، وما كان الجيش الفرنسي هو الذي وصل الى «فيزر» ولكنه «تورين»، وما تمكنت بروسيا أن تدافع لمدة سبع سنين ضد ثلاث قوى أوربية هائلة بل هو «فردريك الأكبر»[1].

مما تقدم يمكن أن نلمس أن فكر القائد العسكري هو الارض الذي يحاول العدو أن يجعل منها أرضا خصبة لبذاره ، وهذا البذار هو المخادعة العسكرية ، لذا فان المنطق والتفكير الصائب يجب أن يتجذرا في أفكار القادة، حيث أنهم بدون ذلك سيقعون في هوة سحيقة من الوهم ويضعون خططاً عسكرية مشوشة ينقصها الرشاد تنعكس بصورة سلبية على قطعاتهم ..هذه القطعات التي سيسودها الاضطراب والارتباك بعد قليل من تنفيذ الخطة ، والتي عليهم تطبيقها والتي جاءت اليهم من قياداتهم العليا .

ان القائد الذي يقع في شراك عمليات المخادعة خلال المعارك ستصيب هذا القائد في بداية الامر ، الا أن ذلــــك يجب أن لا يجري له التسليم نهائيا ، واعتبار الامور منتهية ، حيث أن القائد الحصيف وان كان قد وقع في المطب المذكور اثر انطلاء خطط مخادعة معاديـــة عليه ، فان عليه أن يقوم بتعديل خططه بما يلائم الواقع الفعلي الذي لمسه خلال تلك المواقف .. غير أن هذا الامر لايمكن أن يتم بنجاح تام ، حيث ان القائد الذي قام بأعمال مخادعة ناجحة ضد خصمه سيقوم باستغلال الموقف العملياتي والتعبوي غير المتوازن للعدو الى أبعد الحدود ، مستفيدا من ذهـــول القائد المقابل .. وهكذا على القائد الذي وقع في شباك المخادعة المعاديـــة ، أن يعطي ضريبة خطئه ، ومع شديد الاسف ستكون هذه الضريبة مكلفة لأنها تتمثل بهدر دماء بشرية فضلا عن خسائر أخرى في التجهيزات ، وأخيرا فقدان مناطق لها أهمية تعبوية بالغة الخطورة .

ان التفكير السليم يقول دائما أن القتال لا يجري في كل الاحيان بوتيرة واحدة تتشابك بها المسالك .. وان الحرب وكما قال الرسول الكريم «صلعم» « خدعة » ، بيد ان الخدعة التي تصلح لهذه الظروف قد لا تصلح لظـــروف أخرى ، وهكذا فمن الغباء أن يعتمد أي قائد في سياقات عمليات المخادعة على من سبقوه ، ولذلك فعليه أن يبتكر أفكارا وأساليب تشكل حداثة في خطوط

المخادعة ، ينجم عنها عمل خلاق •• ومن هنا عليه أن يجتث الخدر المتأتي من الاعتماد على مصل ، ووصفات جاهزة ، مادتها القوة والتبجح من أنه يعرف كل شيء عن الخصوم ، وحتى ما يخص خططهم في المخادعة ، وهناك مثل حي يدلل على ما ذهبنا اليه ، جاء الينا من خلال مجريات الحرب العالمية الثانية ، حيث كان الجنرال «غاملان» الذي يشـغل منصب القائد العام للقوات الفرنسية آنذاك في سبات عجيب ، ولا يتوقع أن يقوم الالمان بتخطي مقاومات الفرنسيين في منطقة «الآردين» •• لأن الالمان كان لهم حضور حقيقي في خط دفاعهم المدعو «سيغفريد» ، والذي تمكنوا من تثبيت الانظار اليه ثم القيام بمناورة واسعة عبر الاردين والوصول الى منطقـة «دنكرك» في الساحل الشمالي لفرنسا ، وكانت هذه عبارة عن عمليـة مخادعة متقنة دفع الفرنسيون ثمنها الفادح ، لان عاصمتهم الجميلة باريس سقطت بعد ذلك بقليل في قبضة القوات الالمانية •

ليس من المدهش أن تنطلي عملية المخادعة على أحد القادة كما أسلفنا ، وأعطينا المثال حوله ، ولكن أن يبقى ذلك القائد في ذهول مستمر هو الطامة الكبرى ، وعليه كاستنتاج آخر في هذا المجال ، ان على القائد المخدوع أن يتجاوز حالة الذهول المذكورة ، ويقوم برد فعل سريع يتمكن بوساطته أن يختزل عوامل الاحباط ، ويعوض ما فاته من فرص ضائعة ، وبخلاف ذلك سينحدر الى الابد ، ومثلما حدث للجنـرال «غاملان» الذي سبق أن أشرنا اليه ، حيث كانت النتيجة النهائية خسارة فرنسا سيادتها لخمس سنين طويلة مرعبة تذوقت بها مرارة الهزيمة وهول الاحتلال بعد أن اكتسحتها القوات النازية بست أسابيع ليس غير •

ان التفكير في بعض الاحيان يعد عملية مران عقلي مستمرة ، يجب أن تكون خلاصتها «التفكير السديد» في معالجة القضايا المطروحة ، فبدونه ، تعتبر عملية التفكير عموما شيئا خياليا لاتصل الى نتيجة •• ومع كل هذا وذاك

فان التفكير يعني الوجود ، وقد قال المفكر والفيلسوف الفرنسي ديكارت في وقت سابق : «أنا أفكر فأنا موجود» . ومع احترامنا لرأي ديكارت الذي يشجع على التفكير الدائم ، فان التفكير في جانبه العسكري يشمل أمورا قد تكون محدودة الاطر .. مثل قوات العدو ، والارض ، وقواتنا ، ومسالك العدو ، ومسالكنا ، وكل هذه العوامل تلعب المخادعة بها دوراً حيوياً ، حيث أن القائد تصب في فكره ، ومن مصادر متعددة الكثير من المعلومات حول العوامل المذكورة ، ولكن القائد اللبيب المقتدر هو الذي يتمكن من غربلة تلك المعلومات ليقرر ايهما يشكل ينبوعا صافيا ينهل منه ، وأيهما يمثل ماء عكرا من شأنه أن يلوث ينبوع فكره ، ولذلك فإن الاستنتاج هنا هو وجوب أن يكون القائد متوقدا فكريا ، مستمر التفكير ، سديده ، ولديه الامكانية على تنقية أفكاره بصورة سديدة ، لازالة أي شوائب عالقة في ذهنه .

ان أهم خطأ يمكن أن يقع بـــه القائد هو «التعميم من حادثة أو بينة واحدة» ، إذ أن الحادثة أو البينة الواحدة لا تشكل إلا معلومة معينة قد تكون صادقة أو كاذبة ، ولذلك فان فحصها وتمحيصها هو الامر المعول عليه ، أما أخذها واعتمادها بعد دراسة بسيطة يمكن أن يؤدي الى الهلاك .. حيث أن تعميم الحادثة أو المعلومة الواحدة الى القطعات الادنى سيجعلها تتمسك بها الى أبعد الحدود وعلى أساس انها وردت من المقر الاعلى ، ومع ذلك ، ومهما كان الامـــر ، فان نقضها من المقر الاعلى سيسبب ارتباكا وتشوشـــا كبيرا للقطعات .. هذا ولو حدث أن ظهرت معطيات جديدة في هذا الصدد تتقاطع مع المعلومـــة المعطاة ، فان حبال الثقـــة يمكن أن تهتز بين سلسلة القيـــادة الاعتيادية .

للأسباب الواردة أعلاه فان خبرا واحدا ، أو معلومة واحدة يجب أن لا يجري تعميمها الا اذا تعددت المصادر الموثوقة التي تشير الى صحة هذه الحادثة أو المعلومة .

ان النقطة الثانية التي تهم عملية المخادعة يمكن تشبيهها بفريقين للعبة كرة القدم .. حيث يتنافس الفريقان على ادخال أكبر عدد من الكرات في مرمى الجانب الآخر ، الا أن من يقف وراء كل فريق هو مدرب ذلك الفريق الذي يخطط للظفر في المباراة .. ولذلك فان عملية المخادعة والتظليل تختمر في فكر المدرب أولاً ومن ثم يقوم اللاعبون بتنفيذها ، لأن اللاعبين هم أداة تنفيذية لفكرة وخطط المدرب ، وهذا يعني على وجه الدقة أن لا نشغل أفكار اللاعبين لأن يقوم كل فرد فيهم باستنباط أسلوبه في المخادعة ، لان ذلك سيقود الى الفوضى ، ومن هنا نستنتج أن التفكير السديد يقر مركزية عملية المخادعة ، وان المخادعة تعد معركة بين قائدين ، ومع ذلك اذا ما أريد تشويش أفكار الجميع وتثبط عزائم جميع القطعات المعادية بدون استثناء فان عمليات المخادعة يمكن أن تكون جماعية وتصل الى أبسط الافراد في المنظومة العسكرية ، ومن الطبيعي ان أجهزة الاعلام ، والاجهزة الاستخبارية ستكون هو وتر المحصلة في مجمل العملية أعلاه ، وهنا يلعب علم النفس التحليلي دورا كبيرا في معرفة ميول الافراد والقادة على حد سواء ، ومع هذا وذاك يبقى القائد هو الشخص الذي يجب أن يخضع للتحليل بكل عمق سواء الى الشعور أو ما يسمى «العقل الواعي» أو اللاشعور أو ما يدعى «العقل اللاواعي»(٢) ، بحيث تتمكن من أن نستفيد من هذين المكونين للعقل وايجاد المواقع الهشة التي يمكن التأثير فيها خلال عمليات المخادعة ، ومن ثم تسخيرها لمصلحة الموقف السوقي أو العملياتي أو التعبوي .

«ان الشعور معروف بشكل جوهري ، والبعض يميل الى افتراض كونه الجزء السائد والمبسط ، الا أن الامر يمكن اعتباره نقيض ذلك ، فالشعور يؤلف جزءاً يسيراً جداً فقط من مجموع العقل ، وهو يطفو على السطح مثل قمة جبل جليدي عائم يتمكن المرء من رؤيته بوضوح رغم انه لا يمثل إلا تسع حجمه وان الجزء المتبقي من الاسفل يمثل اللاشعور والبالغ الثمانية أتساع لا يمكن رؤيته»(٣) . ان اللاشعور يؤثر فينا كثيراً ، فاننا في معظم الاحيان تقوم

باجترار خلال الاحلام ، هذا ويمكن معرفة مقدرة اللاشعور من تجارب معينة ، «فاذا أحضرنا شخصا عاديا الى غرفة غريبة عنه وجعلناه يمكث بها بضع دقائق ثم طلبنا منه أن يدون قائمة موجودات الغرفة التي رآها ، فهو سيتذكر حوالي عشرين الى ثلاثين مادة ، واذا قمنا بعد ذلك بتنويمه مغناطيسيا فسوف يستمر على تذكر أشياء أخرى قد تصل الى مائة مادة ، وهذا يشير بوضوح الى ان الانطباعات قد ألتقطت وأحصيت وسجلت ، ويمكن تذكرها ثانية دون تدخل الشعور في العملية ، وعليه فان اللاشعور يقوم دوماً ، وعلى مدار النهار بكامله بامتصاص وأستيعاب الانطباعات الصورية خلال الحياة»(٤) .

وفي ضوء هذه الحقائق فان على المهتمين بالمخادعة أن يصلوا بمخادعتهم الى العقل الباطني للقائد ومن ثم يبدأون بمحاورته بصور يمكن أن تلقى القبول لديه ، بحيث تبدأ بالتناغم معه للخروج بمعزوفة مخادعة تساعدهم الى مايصبون اليه بسهولة .

ان للانسان خمس حواس ، بيد أن المخادعة يجب أن توجه أساسا الى حاستين فقط ، وبالدرجة الاولى ، وهما حاسة السمع ، وحاسة البصر ، فبوساطة اشباع حاسة السمع بالاخبار سواء بالهمس الخافت جدا عبر الوكلاء والوسائط الاخرى أو بوساطة الصوت العالي الرخيم المتمثل بالاجهزة الاعلامية المسموعة كالتلفزيون والراديو ، يمكن أن يتخذ القائد المقابل موقفا فكريا معينا ، أما ما يخص حاسة البصر فان اشباعها يجري الافلام التلفزيونية والاعتيادية ، والاخبارية أو الاستطلاع الشخصي .

هناك من ينادي بالحاسة السادسة للانسان ، وهذه ، يجب أن لا يغرب عن بالنا كيف يجب تعميتها والتشويش عليها خلال المخادعة ، ويمكن أن نجعلها مشلولة غير قادرة على استنباط الصور الحقيقية عن مجمل العمليات الجارية ، ولذلك فان هذه العملية الغرض الاساس منها تشتيت أفكار القائد

المقابل مع قتل الحذاقة لديه ، وهذه العملية يجب أن تكون مستمرة ، لان عدم الاستمرار بها ربما تتيح الفرصة للقائد المقابل اعادة النظر بأفكاره ، ومن ثم يقوم بلفظ الكثير من الصور التي كلفتنا جهدا في سبيل ايصالها اليه .

ان المهمات التي تقع على كاهل القائد كثيرة ، ولكن من وجهة نظر المخادعة العسكرية تعد المعرفة من أهمها ، فالقائد العسكري تأتيه تقارير كثيرة تحوي على معلومات متنوعة وفيرة ، فاذا لم يكن ذا معرفة واسعة فانه سيلجأ الى هيئة ركنه التي لا تمتلك تلك المعرفة أيضا ، وهذا أسوأ الاحتمالات ، وهنا سيجد الجميع أنفسهم في دوامة ، لا أول لها ولا آخر ، وربما سيلجأون بعض الاشخاص الاختصاصيين ، وبما أن الوقت في الحرب يعد عاملا مهما وحساسا ، وقد يكون الحصول على المعلومات خلال زمن معين أمرا معولا عليه ، أما بعد ذلك الزمن فيمكن أن تفقد هذه المعلومات أهميتها ، أو انها يمكن أن تهمل اذا كان هناك قرار فوري حول هذه المعلومات ، ولذلك فان المعرفة والحالة هذه تشكل حجر الزاوية في شخصية القائد ، والمعرفة ، كما نعلم ، لا يمكن أن تأتي الا من التجارب السابقة المقرونة بالمطالعة ، والاطلاع على شتى مواضيع الحياة ، وعدم اقتصار المطالعة والاطلاع على الامور العسكرية فقط ، فالتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والرياضيات والعلوم الاخرى تعد شيئا مكملا لصقل شخصية القائد ، بحيث يتمكن بوساطتها من استبصار الامور ، مهما كانت الصور القادمة له من الجانب الآخر ، وهذا ما يميز شخصية نابليون بونوبارت كعسكري ، وقد ذكر ذلك عندما تخـرج من الاكاديمية الحربية الفرنسية في ١/أيلول/١٩٧٥ ، والذي ينص على انه : «متحفظ ومجد ، مولع بالدراسة ، ويتمتع بها أكثر من أي شيء آخر ، يحب قراءة كتب كبار المؤلفين ، شديد الاجتهاد في دراسة العلوم النظرية ، لايحب الخوض في سير الاخرين ، واسع الاطلاع في الرياضيات والجغرافية ، صامت ، محب للعزلة ، عنيد ، متغطرس ، مغرور جدا ، قليل الكلام ، مفحم في الاجابة ، حازم في عمله وقاس في معالجة

ما يعترضه ، محب لذاته ، طموح ، ويكافح للحصول على كل شيء ، انه شاب جدير بالرعاية» ، وهنا نود أن نذكر أننا لسنا بصدد الخوض في شخصية نابليون ، حيث أخذت هذه الشخصية نصيبها الوافر من البحث والاستقصاء من قبل الباحثين العسكريين والمدنيين في جميع أرجاء الدنيا ، كما اننا لسنا في سبيل مناقشة سجايا نابليون المذكورة أعلاه ، ولكن الذي يهمنا هو أن من جملة هذه السجايا هي أن نابليـــون كان انسانا قروءا ، ذا اطلاع واسع في العلوم والجغرافيا ، والتاريخ والرياضيات التي تعد في عصر الذرة أساسا لمكونات أي قائد عسكري لا يرغب أن تمرر عليه خطط المخادعة المعادية ، ومهما كان شكل هذه الخطط .

اذن فالاستنتاج المهم في هذا المضمار هو أن القائد لكي لا تمرر عليه خطط المخادعة عليه أن يتسلح بسلاح المعرفة ، وقد نوه المفكر «ميكافيلي» حول هذا الامر ، بغض النظر عن أفكاره السياسة وشخصيته الاجتماعية عندما قال : «ان رجلا بدون سلاح يمثل فريسة لجندي فقير صعلوك مسلح بشكل جيد»(٥) .

ان فحوى هذا القول ينطبق على القادة ، حيث أن قائدا لا يملك سلاح المعرفة ولا يتصف بالرأي السديد يمكن أن يخسر معركة أمام قائد آخر مسلح بسلاح العلم والمعرفة متمكن من تمـــرير مخططات المخادعة بصورة جيدة ، وهناك مثال آخر يعزز هذا الموضوع يتمثل باثنين من الرجال ، الاول يتسلح بمسدس ولكنه معصوب العينين ، والاخر يتسلح بسكين وهو غير معصوب العينين يقتتلان ، ومن الطبيعي أن الفرص الاكثر في القتال ستكون للرجل الذي يحمل السكين ، لأنه سيقوم بعملية خداع تجعل من رصاصات الرجل المعصوب رصاصات طائشة وعند ذلك يمكن أن يجهز عليه .

ان الرجل المعصوب ، على الرغم من كفاءته التسليحية سيخسر ، لانه لا يملك البصيرة النافذة التي يمثلها العلـــم والمعرفة ، وان الشخص المتسلح

بالسكين ، وانه وإن كان أقل كفاءة تسليحية فانه سيفوز ، وهذا هو تقاطع العلم مع الجهل ، وهنا يمكن أن نستنتج استنتاجا مهما هو أن ضمان النجاح في عمليات المخادعة يتطلب تعمية بصائر الجانب المقابل ، مما يجعله يدور في دوامة لا نهاية لها من التأملات غير المستندة الى العلم والمعرفة والذي لا يمكن أن ينجم عنها أي رأي سديد .

هناك نقطة أخرى حرية بالبحث تتعلق بقضية التفكير السديد وعلاقتها بالمخادعة ، الى أبعد الحدود ، وهذه النقطة يطلق عليها كلمة «التحيز» ، وهي تحيز الفرد بشدة الى أفكاره الخاصة من دون تقييم امكانات الجانب المقابل ، وفي هذا المجال يمكن أن نذكر على سبيل المثال أن أكبر عملية تحيز جرت سابقا كانت عملية تحيز هتلر لأفكاره الخاصة في غزو الاتحاد السوفيتي التي كانت عواقبها معروفة سلفا ، وحتى عندما كانت جيوشه على شفير الهاوية في شمال أفريقيا كان لا يتردد بخداع نفسه وخدع الاخرين ، وان من أكبر هذه العمليات أيضا هي خدع الفيلد مارشال «رومل» حيث وعد هتلر روملا بزيادة أمداداته بدرجة كبيرة خلال الأسابيع القادمة وذلك باستخدام الزوارق البحرية المسماة «سيبل فهرين» ، وهي ناقلات مائية مسطحة قام بتصميمها مهندس ألماني ، وكانت ذات غطس صغير لدرجة أن الطوربيدات تمر من تحتها ، كما كانت تحمل عددا كبيرا من المدافع المضادة للطائرات ، وبذلك كانت مؤمنة الى حد كبير ضد أي هجوم جوي ، الا ان أهم عيوبها هو عدم امكانية استخدامها في بحر عاصف ، وعلى أيـــة حال ، فان العواصف نادرة في البحـــر الابيض المتوسط ، وبهذا الصدد يقول رومل : «لقد أطلعوني على أرقام الانتاج التي تؤيد أننا سنستطيع التغلب على أكثر مصاعبنا في مجال الامداد والتموين في المستقبل القريب بشرط أن لا يكون هذا بعد فوات الاوان»(٦) ، ومع ذلك وعندما عاد رومل ثانية الى شمال أفريقيا لم يجد بعد الاسابيع الموعودة ذلك الدعم المتفائل الذي وعده به هتلر ، والذي كان يهدف من وراء تلك الخديعة رفع معنويات رومل الادارية ، وهذا ما حدى برومل نفسه أن يقوم بعملية

مخادعة أيضا ، وذلك عندما دعا مراسلي الصحف لشرح الموقف العسكري الذي قام بلفلفته بصورة بعيدة عن الواقع ، وكان الهدف الاساس من وراء هذا المؤتمر هو مخادعة من شأنها أن تطيل زمن الهجوم البريطاني بقيادة الجنرال مونتغمري .. الذي كان متحفظا .. ومع كل هذا وذاك فقد بدأت المعركة وخسرتها دول المحور ، وكان من جملة الاسباب المؤدية الى الخسارة هي الخديعة التي مارسها هتلر تجاه رومل ، والتي كانت تحمل سمات التحيز الى معلومات لم يتمكن هو ولا هيئة ركنه من تمحيصها ومعرفة مدى مصداقيتها .

التحيز يعد عيبا من العيوب البشرية ، وهو يصيب الجهاز القيادي بالضعف ومن ثم الشلل ، لانه ينحز بالفكر كما تنحز دودة شرسة في تفاحة ناضجة ، وعليه فان علينا وخلال الكشف عن مخططات المخادعة المعادية بعملية استدلال واقعي للمعطيات المتاحة من دون التأثر بأفكارنا وآرائنا الخاصة .. والاهم من هذا أن نتساءل دائما وبمحاكاة ذاتية عن الامور التي من الممكن أن ننحاز لها «نحن» كمجموع ، أو التي أنحاز «أنا» لها كقائد .. وهذه العملية تعد عملية تشخيص أولي لمرض التحيز العضال ، والذي يمكن أن تعقبه الوصفات الدوائية الكفيلة بالقضاء عليه .

التحيز عموما يعطي صورة أكثر بريقا وضمانا للشخص ، ولذلك نجده يتشبث بآرائه المتحيزة الى حد بعيد ، وهذا مما سيؤدي به الى الدمار المحقق ، وعليه فان رصد الشواهد المضادة للتحيز يعد أمرا حيويا لمن يريد أن يبعد عنه شبح التحيز ، والذي اذا ما رفضناه جملة وتفصيلا .. نصا ومحتوى ، ستكون آراؤنا سديدة مما يساعد على اتخاذ القرار الصائب ومن ثم المساعدة على ربح المعارك ضمن هذا العامل .

المسألة الجوهرية في موضوع التحيز ، هو أن يتمتع القائد بعقل يتساءل دائما عن الحقيقة ، ويرد دائما : «هل أنا على حق في احتضاني هذا الرأي أو ذاك ؟ ، أو لهذه الفكرة أو تلك ؟ لكي لا تبدو الامور أمامه الا بشكلها الواقعي

المطلق .. وان الشكل المطلق للحقيقة هذا يجب فضلا عن الاعتبارات أعلاه أن يتبناه بعد سلسلة في المحاكات الفكرية المنطقية المستندة إلى العلم والافرازات الحقيقية الصائبة للظروف العسكرية المحيطة آنيا ، أو التي سبقت تبني رأي معين بقليل وهذا يحتم عليه الدخول في تفاصيل متشعبة للحقائق ، والاكاذيب بحيث بعد عمليات استدلال عقلاني يتمكن من فرز الاكاذيب عن الحقائق ، حيث يرفض الاكاذيب ويضع يديه على الحقائق بدون تحيز صانعا منها رأيا سديدا يمكن أن يخدم في اضافة فرصـــة للظفر في المعارك ، وهنا لابد من الاشارة الى معركة «علم الحلفا» التي دارت بـين القوات المحورية وقوات الحلفاء في شمال أفريقيا ابان الحرب العالمية الثانية والتي كانت من الممكن أن تجعل «رومل» يخطو خطوة أخرى نحو قناة السويس لولا تحيز القوة الجوية الالمانية الى رأيها في شأن المواقـع البريطانية ، حيث أصرت على ان المواقع البريطانية في «علم الحلفا» ضعيفة من خلال عمليات الاستطلاع الجوي التي قامت بها ، مما حدا برومل القيام بهجومه مستندا الى هذا الاساس ، غير أن الواقع العملي خلال المعركة أشار الى أن هذه المواقع على العكس من ذلك لم تكن واهنة وضيفة وانما مواقع مستحكمة وقوية تمكنت من تكبيد القوات المحورية أفدح الخسائر ، حيث تمكنت من احتـــواء زخم الهجوم ومن ثم حسره ، وهنا نود أن نشير الى أن الاســـتطلاع الجوي لم يكن هو السبب الوحيد في فشل الهجوم المحوري ، وانمـــا كان يمثل عاملا من جملة عوامل أخرى أدت مجتمعة الى فشل الهجوم ومنها المشاكل الادارية ، وعلى أية حال ، فان التحيز لرأي قاطع يعتبر باطلا اذا لم يدعم بالمعطيات الواقعية التي تبرهن على صحته ، ولذلك كان على رومل في المثال المذكور أن لا يأخذ بأقوال القوة الجوية الالمانية كشيء نهائي مسلم به ، وانما أن يختبر صحة الخبر بواسطة الدوريات البعيدة المدى التي تقـــوم بهجمات جس الغاية منها الوقوف على حقيقة هذه المواقع ، الا ان مشاكل رومل وقلة قواته لم تمكناه من القيام بالعمل النموذجي المطلوب ، ناهيك عن وجود تفوق جوي بريطاني في ساحة

المعركة ، والذي كان من الممكن أن يرصد هذه الدوريات ويدمرها أو يلحق بها الكثير من الخسائر قبل أن تحقق غايتها المطلوبة ، ومع ذلك فهناك تعليل أخر ، هو أن روملل ربما اعتقد ان المواقع البريطانية ضعيفة يمكن اكتساحها بسهولة مثلما تعود عليه عندما كانت تحت امرة الجنرال «ويفل» ، وهذا يعد أيضا تحيزا واضحا لرأيه الشخصي ، وهكذا نجد مرة أخرى كيف أن التحيز لايقود الى التفكير السديد ٠

المـــراجع :

(١) الأسماء التي ذكرها نابليون هي أسماء قادة عظام ، على شتى العصور ، فالرومان والقيصر والاسكندر المقدوني كانوا من قادة ما قبل الميلاد، والاخير تمكن من تعقيب الملك الفارسي داريوس في آسيا ألوسطى وحتى «أربيل» في العراق ومن ثم سحقه وسحق جيشه ، ومن ثم الاندفاع في الشرق والوصول الى الهند ومن ثم العودة الى بابل في العراق والموت هناك . أما «تورين» فهو قائد فرنسي قاد الكثير من المعارك الناجحة ، أما فردريك الاكبر فانه يعد من أفضل القادة والمنظرين العسكريين الالمان وفي عهده بدأت المدفعية ، وقد استخدمها بصورة مؤثرة ٠

(٢) كراسة مصطلحات أساسية في علـــم النفس ـ اعداد المقدم عدنان خلف النداوي ، اصدارات وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ الطبعة الاولى ـ تشرين الاول ١٩٨٦ ـ ص٤٩ ٠

(٣) التفكير السديد ـ تأليف العميد الباكستاني «نازارت» ـ ترجمة اللواء الركن المتقاعد محمد خالد ـ سلسلة الثقافة العسكرية الرقم «٢٩» ـ وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ كانون الثاني ١٩٨٧ ص١٦ ٠

(٤) المصدر السابق ص١٦ ٠

(٥) مبادىء الحرب ـ دراسة مقارنة ـ تأليف اللواء الركن حارث لطفي الوفي ـ سلسلة بحوث عسكرية الرقم «٤٧» صادر من وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ الطبعة الاولى ١٩٨٥ ص٢٤٩ ٠

(٦) مذكرات «روملل» جمعها وأعدها د٠ هـ٠ ليدل هارت بمعاونة لوسي ماريا روملل ، ومانفريد روملل والجنرال فيرتيز بادولاين ـ تعريب وتعليق فتحي عبدالله النمر ـ الجزء الرابع ـ مكتبة الانجلو مصرية ـ المطبعة الفنية الحديثة ١٩٦٦ ـ ص٥٠٧ ٠

المخـــــادعة

تحليل فكري ونفسي

«المخادعة هي الخطط الساترة للحقيقة»(١)

اذا ما تأملنا التعريف أعـــلاه ، فسنجده يحتوي على مضمون أحادي الجانب ، حيث أن الخطط التي تستر الحقيقة ، ليست بالضرورة هي خطط تحافظ على مسلك عمل عسكري معـــين ، وان الخطط التي تخفي الحقيقة يمكن أن تأخذ مجالات أوسع في الحياة غير مقتصرة على العسكرية لوحدها ، وخصوصا في الامن الصناعي ، عندما نريـــد التمويه عن شيء معين أو مادة خاصة أو مخترع معين للحصول على كسب السبق فيها ، بغية استغلالها بعد ذلك بشكل كبير بحيث نكون بعيدين عن أجواء المنافسة ، هذا فضلا عن أن الخطط الساترة للحقيقة ، ليس من الضروري أن تكون أعمالا مخادعة وإنما يمكن أن ندرجها تحت اطار عامل «الامن» الذي سنحصل بوساطته على السرية التامة بتنفيذ عمل معين ، كما ولا يخفى من أن وجود خطط لستر الحقيقة يمكن أن لا يتجاوز أفراد قلائل ، بينما نحتاج خلال المخادعة العسكرية ، وخصوصا في جانبها المادي الى قطعات قد تكون كثيرة ، كما نحتاج ، فضلا عن ذلك أن نقوم بأعمال تمويه على نطاق واســـع بمعدات وهمية ولكنها تشبه المعدات الحقيقية الى درجة كبيرة ، وهذا يعني بالاستنتاج النهائي أن المخادعة تحتاج

الى جهود مكثفة في الاعمال والاقوال في بعض الاحيان للحصول عليها ، ولهذا فان التعريف أعلاه يبدو وبصيغته التي وردت سابقا فقيرا الى التعبير الصريح عن المخادعة ، ولذلك لا يمكن اعتماده ، الا بعد تعديل أو اضافة .

اذا ما ذهبنا الى الجانب الشرقي ، لان التعريف الذي تداولناه جاءنا من الغرب ، فسنجد انه يقرن المباغتة بالمخادعة ، ومن ثم يبدأ الاستنتاج والتعريف الذي يقود الى : «ان المخادعة وخصوصا السوقية منها هي اخفاء أغراض تحشد القوات ، مع جعل العدو يشعر بالامان الزائف»(٢) .

ان المفهوم أعلاه قد يبدو أقرب للحقيقة عند تعامله مع الواقع ، حيث انه يشتمل على طرفي المعادلة ، أي القول والفعل في عملية الخداع والتي تقود بدورها الى الاطمئنان الزائف للعدو فكريا ، غير اننا لو تعمقنا أكثر في مفهوم المخادعة سنجد أن هذا التعريف أيضا يمثل موقفا احادي الجانب ، حيث أن غاية المخادعة هي ليست قيادة العدو الى الاطمئنان الزائف ، فحسب ، وانما علينا بواقع القتال في ساحة الحركات تعبويا وعملياتيا وسوقيا أن نجعله يتخذ موقفا معينا يسير به فيما بعد الى اتخاذ حركة معينة بحيث يمكن أن يجري تبدلات في موازنة قواته الاساسية والتي كانت في وضع لا يخدمنا .

تهدف المخادعة فضلا عن ذلك من الناحية السوقية بأن تجري ارتباطا أو مردودا ينافي الحقيقة بحيث يتمحض عن ذلك بالنتيجة النهائية مباغتتنا الكلية له ، ولهذا فان الاستنتاج النهائي في هذا الصدد هو ان المخادعة هي استهداف فكر العدو ، بحيث ينجم عنه انعكاسات ملموسة ومادية في ترتيباته التعبوية والعملياتية والسوقية .

ان التأثير في فكر العدو واخفاء ترتيباتنا بالمخادعة والتمويه يؤدي فقط الى طريقة واحدة من الطرق التي يمكن بوساطتها تحقيق المباغتة ، غير أن الطريق الواحد قد يؤدي الى نهاية مسدودة في بعض الاحيان ، وعليه فان وجود طرق بديلة ومتوازية في مجال المخادعة يجب أن يكون هو السائد ، لكي تتمكن

من أن تتجاوز الطرق المسدودة ، ومع كل هذا ، فان التعبئة والسوق تؤكدان مفهوما واحدا في أعمال المخادعة ، وهو أن العدو يجب أن لايعلم أي شيء عن وقت ومكان وقوع الحدث العسكري المقبل ، وهذا أمر لا يمكن انكاره من قبل الجميع ، وهذا يعني أن علينا أن نجعل العدو في حالة اطمئنان زائف ، كما ذهب اليه الشرقيون في كتاباتهم» ، خلال مرحلـــة معينة ، حيث نحن نقوم بالفعل المباغت ، وهذا أمر لا يمكن عدّه بالغ الصعوبة ، لاننا والحالة هذه علينا أن نجعل العدو يتوقع عملا عسكريا من قبلنا في مدة معينة قد تطول في بعض الاحيان ، وهذا أمر بسيط ، ومع ذلك فان قيادة العدو الى هذا النمط من التفكير المطمئن يحتاج الى براهين وأدلة قاطعة بغية الوصول بالامر المذكور الى أوجه ومن ثم إيصال الخصوم الى حالة الاسترخاء ، ومع كل ما تقدم فان المخادعة اذا ما أخذت وقتا طويلا ستعيش في حالة فزع ، اذ يمكن أن تكون خلال الوقت هذا عرضة للكشف في أية لحظة ، وعليه فان الاستنتاج المهم في هذا المجال هـــو أن خطط المخادعة يجب أن لا تأخذ وقتا طويـــلا لان ذلك سيجعلها عرضة للكشف ، واذا ما حدث ذلك فان الخصوم سيأخذون موقفا بليدا يدلل على أنهم شربوا كأسها غير أنهم رسموا كيف سيتصرفون في اللحظة المناسبة تجاه تلك العملية ، وهنا وهذا أهم شيء يمكن أن نذكره وهو أن خطط المخادعة يجب أن تكون قصيرة الامد ، وأن تكون لديها البدائل المناسبة التي يمكن أن تطبق فورا لتأمين الغاية المتوخاة منها .

ان اطالة أمد المخادعة ومن ثـــم وحسب المنطق العسكري اطالة تتابع العمليات العسكرية ربما يقود العدو لاكمال ترتيباته القتالية خلال مدة المخادعة الطويلة المذكورة ، وعلى أية حال ، فان عملية الموازنة في الوقت من جهة والهدف من المخادعة من جهة أخرى مع أخذ وضع العدو بنظر الاعتبار سيؤدي بنا الى أفضل الصيغ القتالية ، وقد طبق هتلر هذه المعادلة عندما قام بغير اعلان رسمي بالهجوم على الاتحاد السوفيتي ، مستغلا غفلـــة ستالين من جهة والاستفادة

القصوى من الوقت من جهة أخرى ، كما ان الشيء نفسه حدث عندما خادع اليابانيون سياسيا الولايات المتحدة الامريكية ثم انقضوا فجأة على ميناء «بيرل هاربور» وهــو ميناء موجود في المحيط الهادي بالقـرب من «هونولولو» تستخدمه البحرية الامريكية وأوقعوا به أفدح الخسائر في غارة جوية واحدة خلال الحرب العالمية الثانية .

بعد هذا العرض علينا أن نعرج على تعريف آخر للمخادعة ينص على أن المخادعة تتمثـل : «بالمحافظة على النوايا مع تحويل نوايا العـدو بالاتجاه المعاكس» .

التعريف المذكور أعلاه ، يبدو لأول وهلة أمرا استخباريا ، أو متصلا بالامن الوطني والدفاع عنه .. ومع ذلك فإن له صلة أيضا وبصورة مباشرة بالمعارك العسكرية ومن منطلق خاص ينص على أن الحرب هي صراع بين ارادة قائدين متواجهين في ساحة المعركة .

المحافظة على النوايا بصورة تامـة يمكن أن نحصل عليه لحين وقوع الحدث العسكري المخطط له ، وعند ذلك ستنكشف النوايا الاولية ، ولهذا السبب فان وجود خطط مخادعة بعد ذلك سيكون أمرا بالغ الاهمية ، لان النوايا يجب أن تكون متصلة برابطة وثيقـة بالغاية الاساسية ، أو الغاية الكبرى وهي النصر النهائي في المعركة ، لان النصر النهائي في المعركة يعتمد أصلا على عـدد من المعارك الفرعية ضمن التشكيلات الكبـرى ، ولذلك وكاستنتاج بسيط ، فان النوايا والحالة هذه ستكون متعددة ، مازالت الحرب مسـتمرة ، وهـذه النوايـا عمومـاً تخـدم الغاية السـوقية الكبرى ، ويمكن أن تتبـدل عن النوايـا التي خطط لها سـلفاً ، وهـذا التبـدل يحدث على وفق الظروف الموضوعية الناجمة أساسا من معطيات القتال ، ولهذا السبب فان المخادعة تخضع ظرفيا الى الحالة الحسية للفرد ، والناجمة من جملة العوامل المحيطة به ، والتي تولد لديه قناعة اخضاعها لعامل التحليل ، وعليه ،

فان المخادعة والحالة هذه هي تبديل الحالة الحسية للجانب المقابل بحيث تملي عليه بعض العوامل التي من شأنها أن تقوم بالتبديل المذكور •

ان أول من فكر بتبديل الحالة الحسية للجانب المقابل هو القائد الالماني «فون مولتكه» بعد تعمقه في دراسة التاريخ[٣] ، كما أشار الى ذلك المارشال الفرنسي «فوش» في كتابه «مبادىء الحرب» ، حيث وضع العلم العسكري بين خطين أساسيين ، هما المبادىء والحالات الحسية ، وقد أراد من ذلك اعتماد العلم في العسكرية بدلا من جعلها تدور في دائرة النظريات المقفلة •• ولهذا فانه احتضن الحالات الحسية على أساس أن الحرب كما أسلفنا صراع ارادات، تختبر فيها صحة المفاهيم المتداولة ، ولذلك فان ما يستهدف هو الحالة الحسية للقائد المقابل بحيث نقوده أولا الى تغييـــير أفكاره ومفاهيمه بشأن الموقف العسكري المطروح أولا ، ومن ثم تغيير مسالك عمله ثانياً على وفق تغير تلك الاحاسيس ، وفي هذه الحالة يمكن أن نحصل على المباغتة التامة اذا مازاوجنا الحالة الحسية المذكورة مع التمويه الاعلامي العسكري ، والمخادعة بالعمل ضمن افرازات التمويه الاعلامي •

«المخادعة عمل مضلل يقود الى المباغتة» •• ولذلك علينا أن لا نعول عليها على أساس انها العامل السحري الذي يصنع النصر لانها يمكن أن تسهم مع بقية العوامل لتحقيقه ، وهي ، ربما تقدمنا خطوة أو خطوات على طريق الظفر ، بيد أن النصر التام هو الذي يتأتى من بنادق وزنود الرجال •

المخادعة ، وهذا ما يجب أن نؤكده مرة ثانية ، بحد ذاتها ، لا تمثل الا مدخلا صحيحا للحرب ، وهذا يعني ، بعبارة أدق توفير فرص اضافية للنجاح في العمل العسكري ، ومع ذلك فان الفرص المذكورة يجب أن نستفيد منها الى أبعد الحدود ، والا لفقدت بعد قليل بريقها ، علما بان هذه الفرص يجب أن لا نستغلها من أجل ربح المعركة فحسب ، وإنما القضاء على القوات المقابلة ، أو استسلامها بدون قيد أو شرط ، حيث أن ربـــح معركة والحصول على قطعة

أرض لا يؤدي الا الى سلسلة من المعارك المتعاقبة التي تشكل نزيفا حادا في البشر والتجهيزات ، هذا ، واذا أخذنـــا المخادعة الالمانية في الحرب العالمية الثانية ، ســـنجد ان هذه المخادعة قد تمخضت عن مباغتة تامـــة في الموقف العملياتي ، والمخطط له سلفاً ، إلا أنها لم تؤد إلا الى الوقوف كالمتفرج على الحرب في فرنسا ، فقد قامت القوات الالمانية وكما أسلفنا بالاستفادة القصوى من أسلوب الحرب الخاطفة وأنسحبت أمامهـــا جيوش الحلفاء ، وصولا الى اكتساح أوربا برمتها ، ومنها كانت الطامة الكبرى ، حيث لم تتمكن ألمانيا من سحق هذه القوات ، واستسلامها بالكامـــل ، مما أتاح الفرصة لهذه القوات بالجلاء الكامـــل عن الساحل الفرنسي في «دنكرك» ، والعبـــور الى البر البريطاني ، ومع كل ذلك ، علينا أن لا نكرر دور المارشال «غورنغ» باقناع هتلر بأن هذا العمل ستكون القوة الجوية كفيلة بانجازه وتأمينه خلال وقت قصير ، وهكذا كان الخطأ السوقي ، حيث أن المخادعة التي تقود الى المباغتة ، وكما قلنا سابقا تغير الحالة الحسية للافراد ، ولما كانت الحالة الحسية للحلفاء في حالة يرثى لها أول أيام الحرب العالمية الثانية ، وعليه فان اعطاء أي مدة راحة لهؤلاء الافراد قد يقود الى استعادة توازنهم النفسي ، وبذلك ستتمخض أعمال المخادعة الجسيمة عن مردودات تعبوية بسيطة .

ان المخادعة هي الايهام المقصود بالفعل المستمر(٤) ، وفي التاريخ أمثلة كثيرة على هذا الايهام المقصـــود ، بحيث يتأقلم الجانب المقابل على أفكار نرضعها نحن له ، ولكنها أفكار الغرض النهائي منها تمرير غاياتنا عليه من دون عرقلة، ان من مردودات ارضاعنا له بالافكار سيكون هو حالة الذهول وعدم التصديق للاموز ، لان هناك أفكارا معينة قد ترسخت في ذهنه .

وقد حدث ما يماثل ما ذهبنا اليه في الحرب الكورية عند الانـــزال في ميناء «آنشون» كما ذكرنا سابقا ، وكذلك عندما اقتحمت القوات المصرية خط بارليف(٥) .

الايهام المقترن بالعمل سيقود بطريقة أو بأخرى الى هول المفاجأة لدى الجانب المقابل ، مما سيجعله يفقد رباطـــة جأشه ويخرج عن سياقات العمل العسكري المطلوب ، حيث سيفقد والحالة هذه ملكة تنسيق أفكاره ، ومن ثم قواته ، وهكذا تكون نتائج المخادعة مميتة في بعض الاحيان . «المخادعة هي عمل كاذب يستهدف تحريض الجانب المقابل على اتخاذ عمل في غير صالحه» .

التعريف أعلاه يبدو متطرفا في الكثير من الاحيان ، ولكن الظروف قد تجبرنا في بعض الاحيان أن نقوم بالمخادعة من أجـــل تجميد حركة الجانب المقابل ، لان وضعيته في صالحنا ، ولذلك فاننا لا نريد منه أن يقوم بأي حركة ، لاننا بعد دراسة وضعيته الميدانية ، وجدنا أن التوزيع الاساسي لقواته ملائم لخططنا ، وعليه فالمطلوب من المخادعة والحالة هذه أن تسلك سلوكا مضادا وهو كما أسلفنا تجميد فكر وقوات العدو بحيث نجعله يعتقد أن توزيع قواته ومسالك عمله المقبلة هي أفضل ما يمكن لربح المعركة ، وهذا يعني على وجه الدقة أن نكشف جهود المخادعة في هذا المجال ، من دون أي استفزاز لافكاره العسكرية بحيث تؤثر سلباً على ما ننوي القيام به ، ومع ذلك فان « آردان دوبيك» يعتقد أن قلب الانسان لا يتغير تجاه الاحداث والحرب حين يتصل الأمر بفن الحرب ، فهو يقول :

«يخضع فن الحرب للكثير من التعديلات ، بالارتباط مع التقدم العلمي والصناعي ولكن هناك شيئا لا يتبدل أبدا ، هو قلب الانسان»(٦) .

القول المذكور أعلاه قد يبدو منطقيا اذا ما كان الانسان مقتنعا بحقيقة مطلقة ، كوجود الشمس والقمر ، الا أن هذا القلب يمكن أن يتبدل على وفق المحفزات والتناغم بينه وبين الظروف المحيطة به ، وكم تتبدل قناعات ومفاهيم في عالم المتغيرات ، ومع ذلك فالمخادعة يجب أن تصل للخصوم في نهاية المطاف على أنها هي الحقيقة ، أي أن المستهدف هنا عقل الانسان ، ولهذا فاننا إذا ما أردنا أن ننجح في المخادعة علينا أن ندرس الانسان جملة وتفصيلا ، حتى أن

المفكرين العسكريين الفرنسيين «دولبرك وغروسيه» قدما على وفق ذلك اطروحة عن أثر الجغرافية في السلوك العسكري(٧)، ومن هنا يمكن الاستنتاج أن المخادعة يجب أن تستهدف جوهر الانسان وقلبه وعقله، لا مجرد التأثير في بعض الأمور السطحية المتعلقة به، حيث أن الانسان بعد قليل يمكن أن يتحسس الشوائب التي غرزناها به، لان هذه الشوائب لابد أن يأتي الوقت الذي يتمكن من أن يلمسها، لان الانسان وحتى اذا لم يخضع أفكاره الى منهج التحليل العلمي، سيتمكن وبطريقة ما، أو بطريقة فطرية من تشخيص الشوائب ومن ثم استئصالها من جذورها، حتى لو كانت تلك الجذور عميقة وتحتاج الى عملية جراحية لايمكن تنفيذها الا بالألم والمعاناة •

«المخادعة» هي مصل يحقن به العدو يقوده الى الخدر أو الى سلسلة من الاعمال البليدة المتسمة بالميوعة» •

التعريف أعلاه يفيد أن المخادعة سوف لن تقتصر على بعد واحد، بل أنها ستكون ذات أبعاد متعددة يمكن أن يعمل كل بعد بصورة منفردة، أو يمكن أن تعمل هذه الابعاد بصورة مجتمعة، ولما كانت الحياة وحسب المفهوم السائد «سلام مؤقت بين حربين»، ولذلك فلا مجال لاهمال عمليات المخادعة السوقية «الاستراتيجية» حتى في وقت السلم بل علينا أن نقوم بها مستفيدين من حالة السلام المذكورة ونعمق بواسطة المخادعة الخدر في مفاصل العدو، مركزين على المفاصل التي يمكن أن تشكل تهديداً لأمننا الوطني والقومي، أو التي تشكل تقاطعا معه، وذلك بالانطـــــلاق من مبدأ أسوأ الاحتمالات والمتغيرات في الساحة الدولية، حيث لا وجود لليقين المطلق الا عبر الذات الالهية(٨)، وما خلا ذلك يعد باطلا، ولهذه الاسباب يجب أن تكون عمليات المخادعة أشبه ماتكون في وقت السلم بقوة خارقة تجعل التعرض لكياننا من قبل الاخرين أمراً غير ممكن، وذلك بالتظاهر قولا وفعلا بامكانيتنا الرادعة، التي تجعل الاخرين يحسبون ألف حساب اذا ما طرقت أذهانهم بعض الافكار العدوانية الشريرة •

فضلا عما ذكرنا سابقا من تعاريف ومفاهيم حول المخادعة الا اننا سنمر بعد قليل على نمطين منها الاول يقول[٩] :

«المخادعة هي تشويه مدبر لعمل واقعي للحصول على المزايا التنافسية» . ان هذا التعريف يبدو لأول وهلة منطقيا وجذابا ، الا انه في الوقت نفسه يحمل بعض مواصفات الغموض ، حيث أن العمل الواقعي لا يمكن أن يشوه ببساطة وبصورة كاملة ، وعليه فاننا والحالة هذه سننحوا منحى آخر ، هو اننا سنستخدم الواقع ولكن بصورة فيها بعض التغيرات التي تخدم أغراضنا ، وهذا يعد تشويها للواقع بأبسط صوره ، ولما كان الاساس في عملية المخادعة هو تغذية الجانب المقابل بالمعلومات الزائفة ، وعليه فان الاستنتاج المتطرف في هذا المجال سيكون هو :

«ان المخادعة عمل يستهدف تغذية الجانب المقابل ببعض الاكاذيب من دون الاشارة الى أي حقيقة ومهما كان نوعها» ، وذلك لان بيان أي نتفة من الحقيقة قد يقود الجانب المقابل الى استنباط بعض نوايانا المقبلة ، وهذا بلاشك سيؤثر بصورة جوهرية على عمليات المخادعة المخطط لها سلفا ، ومع ذلك ، فان البعض ينادي بامكانية زج جزء يسير من الحقائق في عموم عمليات المخادعة وذلك لاعطاء حالة اطمئنان أكبر الى الجانب المقابل ، حيث أنه وبتلمسه بعض التصرفات الواقعية ستنطلي عليه بعض الاكاذيب ، وعلى أية حال ، اذا ما قمنا بمزاوجة الحقائق بالاكاذيب فعلينا أن نفطن الى شيء مهم واحد ، هو أن الحقائق التي سربناها قصدا الى الخصوم يجب أن تكون غير مؤثرة على تخطيطنا العام لأمور الحاضر والمستقبل ، وأن نزج الوقائع والحقائق البعيدة عن مقاصدنا ، وبذلك يمكن أن ندعم الاكاذيب بثمن بسيط .

التعريف الآخر للمخادعة والذي يشكل نمطا ثانيا والحري بالمناقشة ينص على ما يأتي :

« المخادعة تخطيط لتضليل الهدف أي الجانب المقابل المتلقي ، لاختيار

احتمال واحد قد لايكون فعالا ، ولتعويض زيادة الغموض ، اذا قاوم الهدف، أو تجاهل العمل وعمل في اختيار يربك المخادع»[١٠] .

من التعريف أعلاه ، عملية تضليل الهدف «أي الجانب المقابل» قد تكون واضحة الى حد بعيد ، الا أن المهم في الامر ، هي الكيفية التي يمكن أن نجبر بها هذا الهدف باختيار احتمال واحد، وهذا ما لا يمكن القرار عليه البتة سلفاً، حيث ان المخادعة قد تقود الى أكثر من مسلك ، ولكننا نحاول بوساطتها أن نجعل الجانب المقابل يسلك مسلكا يرضي طموحنا وخططنا ، وان رد فعل هذا الجـانب يجب أن لا يعاكس بالمحصلة النهائية نوايانا ، وهنـاك في التاريخ القريب مثال يمكن أن يجسد ما ذهبنا اليه بصورة تامة ، حيث أن «هتلر» والقيـادة الالمانية عموما كانت تتوقع هجوما من الحلفاء على طـول القنال الانكليزي ، الا ان الحلفاء قاموا بمخادعة مثمرة انطلت على هتلر لأن هتلر لم يتخذ مسلكا واحدا ، اذ اقتنع أن الانزال سيكون في «كاليه» على الشاطىء الفرنسي ، أو في بلجيكا ، لذلك حشد القوات الالمانية الجيدة من بلجيكا وحتى كاليه ، وهكذا سمح للحلفاء الانزال في «النورماندي» .

في المثال أعلاه يجب أن لا نغفل ونقـر أن هتلر كان متحسبا الى أبعد الحدود عندما زرع الالغام والحواجز على طول القنال البريطاني ، كما أفرز قوات بالعمق ، للقيام بعمليات الهجوم المقابل ، لاجهاض أي انزال للحلفاء على الشواطيء الفرنسية ، بيد أن كثافة القوات المهاجمة رصع البنية العسكرية الالمانية القائمة بالدفاع ، والتي كانت مجهدة من المعارك الطويلة المتلاحقة التي دارت في الجبهة الشرقية وهذه العوامل مجتمعة جعلت مخادعة الحلفاء ناجحة ولينجح بعدها الانزال .

مما مضى نجد أن مضامين وفحوى المخادعة تتغير في اسلوبها وفي طرحها من فكر عسكري ، الى فكر عسكري آخر ، كما أنها في بعض الاحيان تأخذ شكلا واقعيا حركيا ، وأحيان أخرى تأخذ شكلا أشبه ما يكون بالاعلام ولكن بتخطيط من أجهزة الاستخبارات .

بعد أن أسلفنا في طرح المفاهيم والتعاريف علينا أن نسأل السؤال الآتي :

بماذا تتأثر المخادعة ؟

لما كانت عملية المخادعة عملية واسعة فان الكثير من العوامل يمكن أن تؤثر فيها ، لأن المخادعة تشمل الافراد والوسائل والمعدات الاخرى ، وهذه جميعها تقع عموما تحت دائرة الضوء المعادي الثاقب أحيانا ، ولذلك فان العوامل المؤثرة في هذا الثالوث ستكون كبيرة جدا ، ومع ذلك ، فاننا سنقوم بشرح أبعادها المهمة والتي تتمثل بما يأتي :

١ ــ الأمن :

المخادعة هي عمل مخطط له سلفاً وبدقة متناهية ، ولذلك فان انكشاف أي جزء منها ، سواء من قبل الاشخاص القائمين بتنفيذها ، أو بتصرف أو عمل معين سوف يفقد من أهميتها وجدواها ، حيث أن الجانب المقابل سيقوم باستدراجنا حتى النهاية في عموم العملية ومن ثم سيرد الصاع صاعين لنا ، وعليه وكاستنتاج مهم فان أمن المعلومات ، والاشخاص ، والتجهيزات الاخرى سيكون من الضرورة بمكان ، لكي لا تكون هناك أية زلة يمكن أن ينقذ منها العدو للاطلاع على نوايانا الحقيقية ، وهنا يجب أن ندرك سلفا أن كل ما نقوله أو نتصرف به لن يدخل في تصور الجانب المقابل بسهولة ، لان الجانب المقابل سيكون حذرا ، وشكوكا الى درجة كبيرة في تقبل المعلومات ، واغترافها كالظمآن ، علما أن المعلومات المذكورة سيدخلها دورات عديدة ، بغية فحصها وتدقيقها ، ومن ثم اعتمادها ، ولهذا فان المحافظة على سرية المخادعة بالامن التام سوف يضفي هالة كبيرة عليها ، بحيث تبدو كالحقيقة في جانبها الامني .

٢ ــ الوضع الاداري والنفسي للجانب المقابل :

لاشك في أن المخادعة تشبه في عملها البذرة ، ولهذا فانها تحتاج الى الارض الخصبة المناسبة لنموها ، فضلا عن المناخ الملائم ، فاذا كانت الارض

غير ملائمة فانها لن تغذي هذه البذرة .. وهذا سيؤدي الى هلاكها ، وهنا يمكن أن تكون المخادعة رديفا الى البذرة ، لأن خطط المخادعة اذا لم تصادف أرضا رخوة في فكر وارادة الاخرين فانها ستموت ، لان فكر وارادة الاخرين هي الأرض الملائمة للنمو ، وعليه فان احتمال رفضها للمعلومات سيكون أمراً وارداً ، ولهذا وفي كلتا الحالتين ، البذرة ، والمخادعة اذا لم تصادف الارض الملائمة للنمو فانهما ستموتان ، وعلية فان عملية ألبزل لتنقية التربة سيكون هو العمل المعول عليه ، وهذا اذا قلبناه الى معطيات عسكرية يعني أن علينا أن نقوم بتنقية عقول «المتلقين» للمخادعة لكي تنمو بذرة المخادعة وتأتي أكلها ، وباختصار ، فان الامر المطلوب ، والذي يجب الشروع به فور وضع خطة المخادعة ، هو دراسة الحالة النفسية للخصوم فضلاً عن تحليل مجمل وضعيته الارادية ، مستندين ، وخصوصاً ، خلال المخادعة السوقية ، الى تاريخ حياتهم ومواقفهم أثناء الشدائد ، وبذلك يمكن أن تعرف كيف نقوم ببزل العناد من تفكيره ان وجد ، أو أية أفكا رأخرى تؤثر في المخادعة ، بحيث يصبح بعد ذلك هيئا لتلقي المخادعة برحابة صدر .

المخادعة تنتقل من جانب الى جانب آخر عبر قنوات معينة ، ولهذا فكلما كانت القنوات الموصلة صافية ، فأن احتمالات النجاح في المخادعة سيكون أمرا وارداً ، أما اذا كانت هذه القنوات عكرة ، فان احتمال قبولها سيكون أمراً صعبا ، وسيكون أكثر صعوبة اذا ما اقترن بارادة صلبة ، وعلى أية حال ، فان الوضع النفسي للجانب المقابل علينا أن نستغله الى أقصى الحدود ، وخاصة عند وجود نقاط وهن معينة ، لأن نقاط الوهن في بعض الأحيان تجعل الجانب المقابل يحاول الطفو على السطح بدلاً من أن يبقى في القاع ، مشابها الفريق الذي يحاول أن يتشبث بالقشة والفقاعة ، وعليه وكاستنتاج مهم آخر هو أن نقاط الوهن في الارادة ، أو في الوضع النفسي للجانب المقابل ، يمكن توظيفها بصورة جيدة والى أبعد الحدود من أجل نجاح المخادعة .

٣ ـ القنـــوات :

لابد لضمان نجاح المخادعة أن يكون لدينا قنوات ، طرفها الاول ، وهو الطرف المتحكم لدينا ، والطرف الثاني لـــدى المتلقي ، وهو الجانب المقابل ، وبدون ذلك لا يمكن اجراء المخادعة ، والقنوات اعتياديا تتمثل بما يأتي :

أ ـ الاشخاص المجندون لاغراض تمريــــر بعض المعلومات الكاذبة ، الذين يتظاهرون بفعل عمل معين ، وبطريقة لا تجلب الشك .

ب ـ التجهيـــزات المتنوعة كالاجهزة اللاسلكية ، والســـلكية ، والمجفرات البسيطة ، وهذه يمكن أن تكون ضمن الشبكة الاعتيادية للمواصلات ، أو يمكن أن تكون شبكة لأغراض المخادعة ، علما بأن استخدام شبكة القيادة الرئيسة سيكون لها وقع أعظم في نفوس الجانب المقابل ، لان هذه الشبكة تدعم الواقعية في التصور والتفكير ، ولهذه الحقائق فان زج بعض المعلومات الزائفة ، عبر هذه الشبكة لأغراض المخادعة سيكون من الامور التي تلاقي التصديق الكبير لدى الخصوم ، وأفضل من أن تكون هناك شبكة اضافية لأغراض المخادعة ، وهنا علينا أن نذكر أن شبكة واحدة قد لا تتحمل زخم العاليات الاعتيادية ، والمخادعة في آن واحد ، وبهذه الحالة يجب أن نفصل بين الشبكتين المذكورتين ، ولكن بصورة تعطي اليقين الكامل الى الجانب المقابل ، أن كلتا الشبكتين مهمتان وحقيقيتان .

جـ ـ التجهيزات التمويهية : وهـــذه تتمثل بالاشكال الكاذبـــة للتجهيزات المستخدمة فعليا ، كأجسام الدبابات ، والطائرات ، والمدفعية ... الخ ، وهي عموما تخدم وبما لايقبل الشـــك التصرف بالقول المعزز بالفعل المادي ، فعندما نريد مثلا أن نعطي الانطباع للعدو بأننا سنفتح في منطقة معينة قوة عسكرية فان تعزيز ذلك فعلا بأجسام كاذبة تمثل تجهيزات تلك الحركة عند نشرها في المنطقة المنـــوه عنها ، ستعزز من الانطباع

الذهني للجانب المقابل على صحة المعلومات ، وهذا في جانب أساسي ، هو
الذهني للجانب المقابل على صـــحة المعلومات ، وهذا العمل في جانب أساسي منه يعد تأكيدا مضافا ، الى أقوالنا المقترنة بالفعل ، فعندما ، مثلا نريد أن نعطي الانطباع للعـــدو بأننا سنفتتح في منطقة معينة قوة مختارة ، فان تعزيز ذلك فعلا بأجسام كاذبة تمثل تجهيزات تلك الحركة عند انفتاحها في المنطقة التي سربنا الخبر عنها ، ستعزز من الانطباع تأكيد مضاف ، وهنا علينا أن نعترف ، وبكل ما لكلمة الاعتراف من معنى ، بأن التجهيزات الكاذبة اذا كانت بحجم كبير ستتعارض مع مبدأ الاقتصاد بالقوة ، حيث انها ستستهلك طاقة ربما كنا سنحتاجها الى عمل حقيقي آخر ، ومع ذلك فان الامر الواقع في بعض الاحيان ، يمكن أن يجعلنا نفـــرط بالنفقات من أجل ضمان تحقيق الغاية المتمثلـــة بالنصر النهائي هـــذا ، وعلينا أن نعترف بأن التجهيزات الكاذبة بحجـــم كبير ستحتاج فضلا عن الكلفة الاقتصادية ، القوة البشرية المرافقة لها لكي يتم اتقان عمليات المخادعة ، اذ أن العدو يمكن خلال عمليات الاستطلاع أن يعرف هذه التجهيزات ، ويشخص هل أنها تجهيزات تخص المخادعة أو أنها تجهيزات حقيقية الغرض منها التوظيف الناري لمقارعة الخصوم في مسرح العمليات ، ولهذا فان وجود الافراد بالقرب من هذه التجهيزات يمكن أن يعطي القناعـــة للجانب المقابل على أن هـــذه التجهيزات هي تجهيزات حقيقية يمكن استخدامها في المعارك المقبلة ، وعلى أية حال ، فان اللجوء الى هذه الحالة ، ضمن معطيات التصنيفة الحديثة يعد أمرا لايمكن الركون اليه بصورة مطلقة .

التمويه بالتجهيزات يجب أن يكون أمراً غير مبالغ فيه ، وأن يقتصر على عدد محدود من البشر ، لأن التمويه بالاجسام الكاذبة سلاح ذو حدين ، حيث أنه عند اكتشاف أمره يمكن أن يقـــود عملية المخادعة برمتها الى

الزوال ، ومن ثم جعل العدو متصلبا في موقفه .. شكوكا بالمعلومات الى حد كبير .

د ـ القطعات : لاشيء يطرب العدو مثلما يطربه التأكد من معلومات جاءت قولا عبر قنوات خاصة وعززت بعد ذلك بفعل عسكري مباشر ، ولهذا فان وجود القطعات الحقيقية التي تقوم بعمل كاذب هو الامر الذي يدق اسفين المخادعة بصدغ العدو ، فضلاً عن أن هذا العمل يعزز القناعة ويجعلها شبه تامة في تفكيره ، غير أن المسألة التي نوهنا عنها تعد مسألة مخالفة لمبدأ الاقتصاد بالجهد في الحرب أحيانا ، عندما تكون القطعات المفرزة لأغراض المخادعة على حساب الجهد الرئيس ، فضلا عن أن القطعات المفرزة لأغراض المخادعة في سوح الحركات العميقة ذات الجبهة الواسعة لن تتمكن من أن تؤدي الدور بكامله اذا كانت هزيلة ، ولاتمثل الرؤيا الكاملة للاحداث في ذهن الجانب المقابل ، ومع هذا ، فان أمر تقدير هذه القطعات يخضع عموما لأحكام خاصة . وهذه الاحكام كما أسلفنا القول تتأثر بالوضع النفسي والارادي للجانب المقابل ، ومع كل ذلك ، ومهما كانت الامور ، فيجب أن يكون للقطعات المذكورة برامجها الخاصة ، وعلينا أن لا نجعلها لقمة سهلة سائغة عندما نزج في أعمال المخادعة المذكورة ، لان الجانب المقابل اذا ما اقتنع ، وبصورة باتة بأن هذه القطعات هي قطعات مخادعة سيوجه اليها قوات متفوقة لاستئصالها ، أي أن الجانب المقابل سيقوم باستخدام فأس ثقيلة من أجل كسر جوزة صغيرة ، وفي التاريخ الكثير من الامثلة حول هذا الموضوع ، الا أن أهمها هو تجربة الجيش الروسي في «جورجيا» عام ١٩٢١ ، وتجربته في فلندا عام ١٩٤٠ ، عندما استخدم قوات مدرعة ساحقة تجاه قطعات بسيطة يمكن أن نصفها بالهزال .

مما تقدم ان الاستنتاج الذي يجب أن نخرج به هو أن علينا أن ندرب قطعات المخادعة على الكيفية التي تتمكن لها الافلات من القبضة

الحديدية عندما ينكشف أمرها ، ضمن منهج متفق عليه سلفا ، وذلك بالتراجع المنظم الذي لاتحدث بـــه الخسائر الجسيمة ، مع استدراج القوات المقابلة المتفوقة الى موقف لاتحسد عليه ، وبهذا نكون قد نجحنا في عملية الاستدراج ، التي تعني لنا نجاحنا في المخادعة ، وذلك عبر تفكيك التوازن الاساس للقوات المقابلة ، وذلك بعد أن تقوم برد فعل لا يعد إلا هباءاً منثوراً تجاه العملية الاساسية التي نحن بصددها •

هـ ـأقل ما يمكن من الاشخاص : ان عملية اشراك الكثير من الافراد في أعمال المخادعة ربما يقود الى تفشي بعض أسرارها ، حيث أن الجانب المقابل المتسم باليقظة والحذر ، يحاول جاهدا أن يرصد حركة الاشخاص الذين يشك بأمرهم ، كما أن اليقظة قد تستدعي الى أشخاص آخرين ومن الشرائح التي لا تدنو الشـــكوك اليهم على أساس أن الهم ارتباطاتهم الخاصة ، وهذا السلوك تجري ممارسته كمحاولة للايقاع بالاشخاص المشكوك بهـــم المذكورين أعلاه وبكافة الوسائل ، هذا ناهيـــك عن احتمال وجود أشخاص يراد أسرهم واختطافهم لأهميتهم العالية في حلقات المخادعة ، ومن هنا فان استخدام عدد كبير من الاشخاص يعني تعريض الكثير من النفوس البشرية للاجراءات السابقة اذا ما فضحت المخادعة ، وعليه فان الاستنتاج المهم في هذا المضمار هو أن الاشخاص العاملين في المخادعة يجب أن يكونوا قليلين ولهم هيئة هلامية ، غير منظورة من قبل الآخرين ، وهم مع هذا يجب أن يكونوا كالهواء يتمكنون من الدخول الى أعمق أعماق العدو ليبذروا حبوب المخادعة •

قد يبدو هذا العمل المزدوج بالغ الصعوبة ، الا ان اتقان الدور المناط بالافراد العاملين ضمن جهاز المخادعة ، وبكفاءتهم الخاصة يمكن أن يؤدوا الدور المناط بهم بكل نجاح • المسألة يمكن أن نشبهها بالمسرحية ، التي يؤدي فيها الافراد دورا تمثيليا معينا ، فمتى ما أتقن هؤلاء دورهم

فان التمثيلية يمكن أن تنجح ، أما إذا لم يؤدوا أدوارهم باتقان ، فان الفشل سيكون ، على الاكثر حليفهم ، ومن وراء فشلهم ستفشل المسرحية أيضا ، كمـــا أن على الممثلين فضلا عن اجادتهم للتمثيـــل ، أن يلتزموا بالسيناريو ، والحوار ، والا انقلب الامـــر الى هرج ومرج ، وفقدت الوحدة الداخلية في البناء ، وفقد التركيز ، ولذلك وللاسباب المذكورة فان القلة المتقنة لعملها تتمكن من انجاز الدور المرسوم لها بكفاءة عالية مما يتيح لها أكبر الفرص للنجاح في الامر المعهود لها ، والامر هنا يشمل المخادعة ، بشكل منقطع النظير ، لان المشاهد التي يقدمونها سوف تكون متقنة ولا يمكن تفريقها عن المشاهد الواقعية ، وبذلك سيندمج المشاهد معها ، والذي هـــو الجانب المقابـــل ، وهكذا تتمكن من تحـــريك الاحاسيس ، لديهم ولكن في الجانب المعاكس •

ان جوهر موضوع قلة الاشخاص يتعلق عموما ، بمبادىء الحرب ، كالأمن ، والاقتصاد بالجهد ، الا أنه مع هذا وكما بينا سابقا ، يجب أن يكون هلاميا وكالهواء ، ويمثله أقل ما يمكن من الاشخاص التي توكل بهم الاعمال المذكورة ، ومع ذلك ، فان الاتحاد السوفيتي يركز لها على المنفذين فقط ، وانما يؤكدون وضع قيود صارمة على عدد الاشخاص الذين يشتركون في التخطيط[11] لضمان تضييق الخناق على العدو •

و ـ التطابق مع الواقع : ان الابتعاد عن الواقع خلال عمليات المخادعة مع اتخاذ أساليب عمل مبالغ بها فضلا عن الغموض تعد من الاشياء التي تشكل أعداء ألداء اليها ، لأن العقل البشري يحاول دائماً ، أن يتطابق ويتناغم مع المعطيات التي تتسم بالعقلانية ، والبعيدة عن روح المبالغة المفرطة ، أما اذا كانت خلاف ذلك فان العقل البشري ، وبغية تصديقها عليه أن ينحرف عن خطه الانساني •• ويجب أن لا يغرب عن بالنا أن كل خطوة نخطوها في مجال المخادعة يجب أن تقترن بالسؤال التالي :

هل أن العمل يبدو واقعيا ؟

هل أن الافتــراضات الموجودة في المخادعة يمكن اثبــات صحتها بالبراهين عبر ما يتوفر لدينا من امكانيات ؟

ان التطابق مع الواقع يجب أن يدعم بالدليل الموضوعي ، ولذلك فان عدم دعم المخادعة بالدليل الموضوعي سيجعل الجانب المقابل أكثر شكا ، وربما سيجعله يدور في مدارات أخرى ، أو ربما سيهمل خبر المخادعة القادم لحين وجود الدلائل المبرهنة على الخبر ، ومع ذلك فان المخادعة يجب أن تعزف على قيثارة واحدة ، بلحن واحد ، حيث أن الاذن البشرية لا يمكن أن تسمع عدداً كبيراً من الالحان في وقت واحد ، وعليه فان وجود عدد كبير من المسالك في خطة المخادعة ربما سيجعل الجانب المقابل ، منصرفا عنها نهائيا ، ويحاول أن يتصرف على وفق آراءه غير المؤثر فيها من قبلنا ، وكمثال جيد على ذلك هو ان المصريين في حرب تشرين ١٩٧٣ ، وقبل اقتحامهم خط «بارليف» ، عمدوا الى السير باتجاه واحد ، وكثفوا عليه الحركة ، كمسلك عمل .. كانوا يأتون بكل سرعة وينفتحوا أمام القناة بسرعة ويعودون أيضاً بالسرعة نفسها ، وبذلك العمل تم تطبيع جهاز المخابرات التابع للكيان الصهيوني . حيث أخذت الحركة تبدو لهم حركة بسيطة لا تتعـدى الانفتاح البسيط ، حتى دنت ساعة المنازلـة الحاسمة ، فانقضوا على الخط المذكور بكثافة شـديدة بعد أن عبروا قناة السويس ، بين عويل وذهول العدو الصهيوني .

ان نهاية حالة التطبيع يجب أن تقود الى ما يدعى : «الوصول الى نقطة عدم التمييز» وهذه الاجراءات جميعها ستوفر لنا الحرية في العمل .

ز ـ التدريب : ان التدريب يعد شرطا أساسيا من أجل اتقان أي عمل ، سواء كان هذا العمل عسكريا أو مدنيـــا ، والغرض من التدريب ، بصورة عامة ، هو الوصول ، بالكفاءة الفردية أو الجماعية ، الى أوجها ، ولما كانت المخادعة عملا حساساً جسيماً ، له مردودات كبيرة ، ولذلك فان

اتقان خطط المخادعة وتصحيحها ، وفحصها يعد أمرا ضروريا ، كما انها يجب أن تخضـــع عموما قبل تنفيذها الى «لعب الحرب» للقـــرار على الهفوات التي تتخللها ان وجدت •

ان التدريب على أعمال المخادعة يجب أن يشمل فضلا عما ذكر أعلاه ، تدريبا عاليا متقنا للافراد الذين سيقومون بتنفيذ خطوات ، أو صفحات خطة المخادعة واستئصال أية عوائق يمكن أن تصادفهم في المستقبل •

المخادعة عملية مشتركة ، ولذلك فهي من مسؤولية جميع الصنوف ، وبالتعاون مع بعضها ، ولذلك فان اتقان هذه الصنوف لمهماتها الخاصة ، خلال التدريب قد لا يكون كافيا للنجاح ، لأن المخادعة تحتاج فضلا عن ذلك ضبطا أمنيا خاصا ، وعليه فان المخادعة عند تطبيقها بواسطة القطعات توجب في الكثير من الاحيان عدم الافصاح بغايتها الى القطعات المنفذة ، حيث يجب أن تفهم القطعات المذكورة أن ما تقوم به هو واجب حقيقي، وذلك من أجل ضمان أمن الخطة بالدرجة الاولى ، وضمان الظهور الجدي للقطعات بدلا من حالة التسكع الذي يمكن أن تنتابها اذا علمت أن الواجب يخص المخادعة ثانيا •

ان تدريب القطعات على واجبات خاصة خلال أوقات التدريب ، مع تنمية الحس الامني خلال ذلك التدريب ، سلما وحربا ، ربما ستكون مدخلا ناجحاً في سبيل الوصول الى أعلى درجة في موضوعة المخادعة عندما يحدث الصراع المســـلح سواء على النطاق السوقي أو العمليـــاتي أو التعبوي •• وحتى لو كان هناك ميل لاخبار القطعات المنفذة للمخادعة عن الواجب المناط بها ، فان ذلك يجب أن لا يجري الا في اللحظة الاخيرة تضامنا مع مبدأ الامن •

التنبؤ والمخادعـــة :

ان التنبؤ هو عملية سبر أغوار المستقبل ، ومعرفة ما يمكن أن يحدث

فيه ، وقد عرفه العقيد «صامويل هيز» في كتابه العسكري الشهير «تولي القيادة» على انه :« النظرة العامة الى المستقبل لرؤية ما يكمن فيه » •

ومن هذا المنطق يمكن أن نستدل على أن التنبؤ ليس عملاً خالياً ،وإنما يتداول المعطيات الواقعية ، ومن ثم يقوم بالدراسة التحليلية الفردية والجماعية للتوصل الى ما يمكن أن يحدث في المستقبل ، وعليه فان التنبؤ ليس عملا خياليا ، الا أن الخيال الخصب والجوال يمكن أن يخدمه •

التنبؤ العالي الاقتدار يتمكن من أن يصل الى حقيقة المعلومات والاعمال الانية ويفرز ما هو حقيقي منها وما هو مكرس لأغراض الخداع ، وهذا العمل يقدم خدمة جليلة ، في الحرب لأنه سيسقط كل المراهنات التي اعتمدت على أعمال الخدع وامكانية نجاحها مع اسقاطها في هوة العدم •

القائد وهيئة ركنه ، اعتياديا ، يفتشون عن المعلومات المفيدة ، ويقيمون الاتجاهات الانية باستمرار ، بغية التنبؤ بالموقف الذي يمكن أن يحصل في وقت لاحق ، ومن هذه المعلومات يمكن أن يتنبأ بالفرص التي يمكن أن تتوفر ، والمشاكل التي يمكن أن تحصل ، والمجالات التي يتوجب بها اتخاذ القرارات الحازمة ، والسريعة ، وعليه فان التنبؤ زيادة على ما ذكر أعلاه يتطلب الموهبة الخلاقة ، لادراك حالة المستقبل ، ومتى ما نجح في هذا المسعى فستكون أعمال المخادعة التي يقوم بها الجانب المقابل حركات مسرحية لاننا نعرفها سلفا •• بوساطة التنبؤ ، ومن هنا يمكن أن نستنتج أهم استنتاج حول المخادعة ، وهو : «ان التنبؤ ، يمكن أن يحول عمليات المخادعة ، الى سلسلة من الاعمال العبثية ، التي لاتقدم ولا تؤخر ، وذلك بالتظاهر بتصديقها ، ومن ثم مباغتة الخصوم بالحقيقة ، بتحشيد القوات الرئيسة نحو محور الجهد الرأس المعادي •• وهذا بدوره يمكن أن يؤدي بالخصوم الى الدمار المحقق، حيث أن المخادع المخدوع سوف يقع هو في الكمين الحقيقي ، الذي يولد له الارتباك وفقدان التوازن الذي سنستغله من أجل كسب المعركة •

أعمال المخادعة لا تعني الخروج الخيالي عن المألوف ، لأن هذا الخروج قد يقترن بالمستحيل ، وعند ذلك فان امكانية تصديقه سيكون من الصعوبة بمكان ، وسينبثق عن هذا الامر أعمال أقرب للطيش منها للادراك الانساني ، وعلى أية حال ، فان صرف النظر في بعض الاحيان عن مسلك معين ربما يتطلب القيام بأعمال صعبة جدا ، ولكنها غير مستحيلة ، بحيث يمكن للجانب المقابل أن يتنبأ بامكانية حدوثها •

اذن فالعملية المذكورة لن تكون الا زيادة في تكثيف صورة التنبؤ لدى الخصوم •• واذا ما قلبنا صفحات التاريخ العسكري ، سنجد حتى نابليون نفسه لم يتماد في أعمال المخادعة الى حدود بعيدة، وقد قال هو نفسه مراراً بأن العدو يعرف اسلوبه جيدا ، ولذلك فان الخروج عن المألوف سوف لن يكون سوى عمل مكشوف للمخادعة ، وقد تنبأ في عام (١٩١٤) تنبؤا مخطوءا حول الجيوش المتحالفة ضده تاركا جيوشهم تتقدم نحو باريس متنبئا بأنهم سيتقدمون نحو «لايزبك» ، وعلى أساس أن الجيوش الفرنسية تسيطر على جسر نوجين ، وهكذا اعتمدت خططه على أسس مخطوءة دفع ثمنها غاليا ••

مما مر أعلاه يمكن أن نصل الى استنتاج آخر وهو أن التنبؤ اذا كان خائباً فانه سيمرر أعمال المخادعة بسهولة • أما إذا كان التنبؤ جيداً ، فانه سينعش القطعات ومعنوياتها ، ويتجاوز خطط المخادعة المعادية •

عملية التنبؤ ليست عملية خيال مجنح طائر ، وانما هي افرازات عقلية عرافة بما يمكن أن يحمل المستقبل ، وبما أن ميدان العمليات والتعبئة ميدان تتصارع فيه الارادات ، والافكار ، والاكاذيب ، ولهذا فان غربلة كل المعلومات من قبل هيئة الركن والقيادة سيجعلها قادرة على معرفة الخداع من الحقيقة ، وذلك لان المعلومات المتأتية من الوثائق الفورية ، والتي تبدو ظاهريا أكثر صحة من غيرها تبقى بحاجة الى التحقيق فيها ، وعلى أساس «أن الشك مبدأ اليقين» ، ولهذا فان معاملة كل الوثائق والمعلومات المتناقلة بشك

عند الحصول عليها سيعطينا الفرصة الى معرفة حقيقتها بعد دراستها دراسة علمية .. وهنا يلعب التنبؤ دورا كبيرا في مجمل العملية حيث يمكن أن تضع أيدينا على الاعمال التي يراد منها مخادعتنا .

ان عمليات التنبؤ التي اشبعناها تمحيصا في مجال المخادعة ، لا يمكن أن تقتصر على فرد معين ، وانما يمكن لاي فـــرد أن يمارسها ، ومع ذلك فان التطرف في طرح وجهات النظر المتنبأ بها يجب أن لا يقود الى التحيز التام لها ، ومع ذلك فان الشفيع العملي لأي عملية تنبــؤ يكمن في الادلة التي تقود الى فكرة ، والاستنتاجات الدامغة المنطقية التي تبرر التنبؤ ، ومهما كانت الامور ، فان القرار النهائي في كل عمليات التنبؤ والاخذ بها سيكون هو للقائد صانع القرار .

كخلاصة مكثفة لما طرحناه سابقا يمكن القول أن المخادعة هي صراع بين قيادتين ، تحاول كل منها اكتساح الاخرى بالاكاذيب المبرمجة ، أو الاكاذيب المتزاوجة مع حقائق بسيطة ، والفعاليات المسرحة ، والتي يمكن للتنبؤ إذا كان صـــادقا أن يغربلها ، ويفرزهـا ، ، ويتصرف بالشـــكل الصحيح تجاه الاحداث .. أما الجانب الذي يفتقر الى ملكة التنبؤ فان الاكاذيب المبرقعة البراقة سرعان ما تنطلي عليه ، ولذلك فانه ، وعلى أكثر تقدير سيقع في شباك الهزيمة القاتلة التي يمكن أن تستأصله من جذوره .

المراجع والهوامش :

(١) التعريف المذكور كان متداولا من قبـــل أجهزة المخادعة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية ٠

(٢) الحرب الخاطفة السوفيتية ـ تأليف ـ بي٠ ايج٠ فيغور ترجمة اللواء الركن نعمة فارس ، وهو من تراجم وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ الطبعة الاولى ـ ص١٠٩ ٠

(٣) فرنان شنايدر ـ تأريخ الفنـــون العسكرية ـ ترجمة فريد أنطونيوس ـ مكتبة الفكر الجامعي ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الاولى ١٩٧٠ ـ ص٧٣ ٠

(٤) محمود عزمي ـ دراسات في الحرب الخاطفة ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الاولى ١٩٧٢ ، ص٢٦٦ وحتى ٢٧٠ ٠

(٥) يشار دائما الى أن الصراع في حرب كوريا الشمالية والجنوبية ١٩٥٢ كان صراعا متأتيا من قرار الامم المتحدة لمناصرة كوريـــا الجنوبية التي داهمتها كوريا الشمالية ووصلت بالقرب من عاصمتها سيؤول ٠

(٦) هناك أمورا أخرى حرية بالمطالعة في هذا الموضوع ، اذ لا يمكن أن نفصل هذا المجال عن الجانب النفسي والمعنوي ، ومع ذلك يمكن مراجعة كتاب «مدخل الى التأريخ العسكري ـ الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، والمعرب من قبل أكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي ص٦٣ـ٦٤ ٠

(٧) في التعابير الفلسفية لا يوجد يقين مطلق ، الا للذات الالهية ، وما خلا ذلك يعتبر من المتغيرات ٠

(٨) المخادعة السوقية ـ سلسلة الثقافة العسكرية الرقم «٦٦» الصادرة عن وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ المترجم من قبل العميد الركن أمجد حسن الزهيري ص١٥٠ ٠

(٩) نفس المصدر السابق ص٤ ٠

(١٠) الهجوم المباغت ـ دروس للتخطيط الدفاعي ـ بقلم ريشارد كي ٠ بيتس ـ ترجمة العميد الركن كنعان خورشـــيد عبدالوهاب ـ من اصدارات وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ص٢١١ ٠

المناورة والمخادعة

ان بعض مفردات الحرب ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا .. بحيث لايمكن أن نفصل بينهما في أي حال من الاحوال .. وهذا يحدث بين مفردات مثل المناورة ، والمباغتة ، والمخادعة .

المناورة في شكلها العسكري هي إتجاهات تقدم القوات المسلحة للقيام بعمليات عسكرية ، أهدافها معروفة سلفاً ، وهي إما أن نقوم باختراع قطعات العدو من نقاط ضعيفة جبهويا ، وهذا المسلك في العمل العسكري يتخذ اذا كانت المواضع الدفاعية المعادية تسند أجنحتها الى موانع لايمكن اختراقها ، وهناك المناورة بضرب جناحي العدو أو أحد أجنحته ، بحيث يتخلخل الجسم الاساسي للموضع الدفاعي وبذلك تتمكن من استثمار هذه الحالة للقضاء عليه ، بواسطة تدمير قواته أو شلها عن العمل ، كما وتوجد مناورة تخطي المقاومات المعادية بحيث لا نشتبك معه وجها لوجه ، وانما نحاول أن تتجاوز قواته ونصبح خلفها ونقطع خطوط امدادها ، بعد أن نسيطر على العقد المهمة التابعة له في الخلف ، وتعد هذه المناورة خير الوسائل للمناورة ، إذ أنها تستنزف أقل ما يمكن من الدماء البشرية ، ولكنها تحتاج الى قوات مدربة تدريبا جيدا للعمل ضمن ساحة معركة واسعة ، وقد نادى المفكر البريطاني «ليدل هارت» باسلوب التخطي غير المباشر كثيرا ، وسخر له أكثر من بحث ،

وهو يعد وليد هذا القرن ، وقد استخدمته بعض الجيوش في العقود المنصرمة من القرن العشرين ، وقد ظهر من استخدام هذا الاسلوب أنه أسلوب جيد يمكن الاعتماد عليه اذا ساعدت الظروف الموضوعية الاخرى على تطبيقه •

اذا أردنا أن نشرح المناورة من وجهها السوقي ، فانها تنقسم على قسمين هما المناورة على الخطوط الداخلة ، والمناورة على الخطوط الخارجة ، والتي سنتناولها في المستقبل ، بعد أن نبين العلاقة بين المناورة والمخادعة •

المخادعة ضمن المناورة تعني اعطاء العدو فكرة معينة عن أرتالنا ، بحيث نوحي له اننا سنتقدم بعدد من الارتال ، وان الرتل القوي هو الرتل الايمن أو الايسر ، أو القلب ، بينما نحاول نحن أن نقوم بعملية التفاف وتخطي المقاومات ، ولا نهاجمه جبهوياً بهذه الارتال ، ويمكن أن نقلب الآية ، ويكون العكس هو الصحيح •

من الطبيعي ان عملية المخادعة ، وخصوصا في المستوى السوقي «الاستراتيجي» ، تحتاج الى أن تكون هناك مناورة مزدوجة يكون الاعلام جانبا منها والجانب الدبلوماسي الجانب الاخر ، لاسناد الجانب العسكري ، وسنقوم بتقريب ما ذهبنا اليه الى الاذهان باعطاء صورة بهية حول هذا الامر ألتقطت من خلال مزاوجة الجغرافيا ، بالسوق ، فعلى سبيل المثال اذا أردنا أن نتقدم على جبهة معينة ، وهذه الجبهة تحتوي على منطقة جبلية ، وكذلك على منطقة زاخرة بالانهار تعقبها منطقة صحراوية ، فان القيادة السياسية يمكن أن تلعب دورا بارزا ومتميزا في اسناد عمليات المخادعة ، اذ أنها ربما تكلف السفراء في الخارج بالاتصال بالجهات التي تتمكن من التجهيز ، لتجهيزنا بمعدات جبلية ، على أن لا يصاحب هذه الاتصالات صخب عال ، وانما يمكن أن يكون حوارا هامسا •• على شرط •• أن له القابلية على التسرب البسيط الموحي بأننا نريد عملا عسكريا في منطقة جبلية ، بينما نحن نخطط ونهيء المستلزمات للعمل في منطقة صحراوية ، وهكذا يمكن أن تقترن المخادعة

العسكرية بالمخادعة السياسية في المستويات العليا أو عليه فان التنسيق في المخادعة السوقية يحبذ أن يكون من أعلى القيادات ، للحصول على الفائدة القصوى من كل المصادر المؤدية الى المخادعة •

مهما أطلنا في شرح أبعاد المناورة ، فسنجد أنفسنا في النهاية عند نقطة مهمة ثمينة واحدة ، وهي أن لكل قائد ، أسلوبه الخاص في عملية المناورة ، التي يحاول تطبيقها ، ففردريك الاكبر ، القائد البروسي العبقري المتمرس في الحرب ، كان يحاول دائما أن يقوم بمناورة ضرب أحد أجنحة العدو ، بعد أن يقوم بعمليات مخادعة واسعة النطاق تشمل كل الجبهة ، أما نابليون فكان له اسلوبه الخاص في عمليات الالتفاف ، حتى إذا وصلنا الى هذا القرن ،وضمن المعطيات التسليحية المتاحة التي سرعت من قدرة الجندي في التنقل من منطقة الى منطقة أخرى عبر استخدامه للدروع ، وناقــلات الاشخاص المدرعة ، والعجلات الاعتيادية والمدفعية المسحوبة ، فــان اللجوء الى مناورة تخطي المقاومات ، سيكون هو الامر المفضل ، بعد القيام باجراءات مخادعة معينة ، وقد نجح المارشال «غوديريان» في مسعاه عندما قاد فرق «البانذر» الالمانية ، خلال الحرب العالمية الثانية عبر الآردين ، متخطيا مقاومات خط «ماجينو» الفرنسي والوصول الى سواحل القناة البريطانية في «دنكرك» •

المسألة التي طرحت على بساط البحث والتي تخص المخادعة والمناورة وقبل عدد قليل من العقود الزمنية تخص التلويح بالحرب النووية ، والذي يوجب على العسكريين التفكير بايجاد أساليب أخرى في عملية المخادعة تخص هذا الجانب ، والتي تهدف الى جعل الجانب المقابل يفقد توازنه العسكري النووي •

مهما كانت الامور فان العقائد المطروحــة للمناقشة في الوقت الحاضر تنقسم على ثلاثة أقسام ، أو بالادق ثلاثة محاور ترتبط ارتباطا وثيقا بالمخادعة، فالولايات المتحدة الامريكية تؤمن بالمعركة البرية الجوية ، التي أساسها ، لا

المناورة في شكلها التقليدي الذي أوضحته سابقاً ، وإنما بشكل تمزج فيه كل أنواع المخادعة والمناورة في وقت واحد ، ووفق الظروف الموضوعية لساحة العمليات .. حيث تفقد الارض عندهم والحالة هذه أهميتها .. وتبقى القوات هي الاساس في تنفيذ العملية .

الاتحاد السوفيتي في الجانب الاخر يؤمن «بجحفل المناورة العملياتي البعيد المدى» ، والذي من واجباته الاساسية القيام بالمناورة العميقة التي قد تتجاوز مئات الكيلومترات ، بعد أن يكون قد وضع خطة خاصة بالمخادعة على جميع الاصعدة ، ومنها المخادعة بالقوة الجوية ، والبحرية ، والمعدات الالكترونية لتسهيل العملية المذكورة .

مما تقدم يمكن أن نلمس أن كلا من القوتين العظميين قد وضعت عقيدتها في المناورة مستندة الى عقيدة الاخرى بغية مقارعتها عندما تدق أجراس الحرب ، فعندما احتضنت الولايات المتحدة الامريكية عقيدة المعركة البرية الجوية التي تحتاج الى ميدان معركة واسع نجد أن الاتحاد السوفيتي وضع عقيدة جحفل المناورة العملياتي البعيد المدى الذي يتناسب مع العقيدة الامريكية ، والعكس هو الصحيح .

دول أوربا الغربية تؤمن بالدفاع ، ومن ثم بعقيدة القوات المعقبة .. لانها تحس ، بانها ستكون كبش الفداء المقبل عند حدوث أي صدام مسلح بين الدولتين الكبيرتين ، وهذا ما يدفعها للتشبث بالدفاع كاسلوب عمل ، مع اقتران هذا الاسلوب بخطة مخادعة بالقطعات والتجهيزات فضلا عن خطة مكملة أخرى تتجسد بالمخادعة الالكترونية .

جوهر الموضوع بالنسبة للمناورة التي تقترن بالمخادعة ، هي أن كل مناورة لاتقترن بخطة مخادعة نموذجية يمكن أن يصيبها الفشل ، وان الصراع بعد ذلك سيكون مريراً قاسياً ، ينجم عنه وضع أشد فتكاً وهولا مما محسوب له سلفا ، أما اذا اقترنت الخطط الخاصة بالمناورة بخطط عملاقة للمخادعة ،

فربما ستقل الخسائر ، وربما ستكون الارجحية لجانب دون آخر ، من دون الدخول في صدامات دموية حادة واسعة النطاق ، لأن المخادعة ستكون هي العمام الذي يقلل الخسائر .

الحرب الحديثة ، وخصوصاً عندما تقدم العلم العسكري والتجهيزات ، سوف تتيح للقادة وسائل أخرى للمخادعة ، ولكنها لن تكون أسهل مما كانت عليه .. ففي السابق كانت الجيوش تتقاتل في مناطق محدودة جدا ، وكانت الوسائل المستخدمة في القتال قليلة جداً ، أما اليوم ، فنحن أمام وسائل جبارة وعليه فان المخادعة ، ليست بالسهولة التي قد يتصورها البعض ، وانما العكس فهي ستكون معقدة جدا ، حيث أن الحاسبات الالكترونية والمسح بواسطة الاقمار الصناعية من خلال الفضاء الخارجي سوف تتمكن من تشخيص أرتال المناورة ، كما يمكنها أن تحل الكثير من الامور ، وتجعل من العمليات أمرا لايمكن أن يمر بسهولة ، مع هذا فان هذه الاجهزة لأزالت مقصورة على عدد قليل من الدول الكبرى ، وهذا يحتم علينا أن تتشبث بالمخادعة والمخادعة الى حدود بعيدة ، مع تطلعنا الدائم للحصول على تلك التجهيزات في أية فرصة متاحة .

ان القائد العام ، أو القيادة العسكرية في مسرح العمليات ، وعندما تجري أعمال المخادعة ، وتبدأ المناورة ، سوف تكون مشغولة حتما في أمر ادارة العمليات ، وملاحقة حركة الفرق والفيالق والجيوش ، ولهذا فان الثقافة العامة للضباط وهيئة الركن سوف تكون عاملا مساعدا لتحليل المعلومات الميدانية ، بغية مساعدة القائد في اتخاذ القرار المناسب ، وعدم جعله يدور في حلقات متنوعة تشمل على المخادعة والمناورة ، وقيادة القطعات ، ومن ثم النظر الثاقب الى منظوماته الادارية .

ان التخطيط للمخادعة والمناورة ، وكما أسلفنا ، أصبح أكثر تعقيدا لا في ساحة العمليات حسب ، وانما خلف الخطوط الخلفية ، حيث يتعين على

القائد أن لا ينظر في ساحة المعركة ، ويشخص أساليب المخادعة فحسب ، وانما عليه أن ينظـــر الى الخلف ليجـد أيضا ماهي الاساليب التي يتبعهـــا العدو بالمخادعة ، مع عدم اغفال رصد الاشعاعات المعادية التي يساعد على انتشارها الرتل الخامس ، وفي هذه النقطة بالذات يرى البعض أن المناورة ، وعمليات المخادعة عندما توضع عليها أن لا تغفل شرائح السكان الذين تجري العمليات العسكرية على أراضيهم ، بحيث تتمكن من أن تتعـــرف على خصوصياتهم ، وتقرر على وفق ذلك ما يمكن أن يقدموه للعدو في مجالات المخادعة ، مثل ترويج اشاعات معينة ، أو غيرها من الامور ، حيث وضعت كتب عديدة تبحث التأثيرات الجغرافية السكانية على الحركات العسكرية ، ومنها عمليات المخادعة والمناورة •

القائد ومهما كانت الظروف ، عليه أن يقوم بحماية قطعاته من المخادعة المعادية ، سواء بالمناورة ، أو بالاشاعات المهموسة ، أو ، العالية ، لأن اللب الحقيقي لعنفوان القطعات يتمثل بالجندي العزوم ، وليس بما يحمل من سلاح وان كان السلاح هو الاداة التي تنجز الفعل القتالي ، وهذا بمجمله أي بتعدد الافراد ضمن القوات المسلحة ، يمكن أن نمثله بالقرميد الذي يكون جدران الدار لمجموع القوات المسلحة ، وعليه فان حمايته من المخادعة المعادية تقع أول ما تقع على القائد ، ومن ثم على هيئة ركنه ومستشاريه ، وصولا الى الآمرين الذين يمثلون الحدود الدنيا في عملية القيادة ، والذين يقع على عاتقهم درء هذا الخطر عنه ، والذي من الممكن أن يهشم بنيته النفسية والقتالية على التوالي •

ان درء الخطر عن المقاتل لا يتم بالسفسطة الفكرية العسكرية ، بل يحتاج الى حجج علمية مدروسة ، لكي تؤثر في المقاتلين ، لان مقاتلي هذا العصر هم عناصر مثقفة ، وعت الحياة وعرفت مفرداتها بشكل موسوعي •

بعد هذا العرض عن المناورة والمخادعة علينا أن لا نفصل المستويات التي تجري بها عمليات المخادعة ، لانها تشكل حلقات متصلة ، فقد تفيد تنفة من

المعلومات يتناقلها عـــدد قليل من الافراد في الخنادق الامامـيـــة المستويات العملياتية والســـوقية ، كما يمكن أن تفيد بعض المعلومات البســيطة التي تتداولها القطعات في المستوى السوقي ميــدان المعركة والمستويات التعبوية بصورة مباشرة ، ويذهب كتاب رواد الاستراتيجية الحديثة الى ذلك من خلال اهتماماتهم بأن :

«فن الحرب قد تعقد مع تعقد الآلة ، ولهذا فمن الضروري تتمشى عوامل التسليح مع العوامل التعبوية في العمليات الحربية ومع الاستراتيجية التي لا يمكن أن تنفصل عنها ، والتي هي لها بمثابة الخادم المخلص الامين»(1) .

جميع الامور التي تسبق المعركة كالمخادعة يجب أن تخدم خطة المناورة، والمناورة يجب أن تقود الى وضع عسكري متين يؤدي الى الظفر ، ومع هذا ، فان القضايا العسكرية المعاصرة تعد قضايا متشابكة الى أبعد الحدود ، بيد أن هذا الامر يجب أن لا يقودنا الى التعقيد ويجعلنا نقع في دوامة الحيرة ، عندما نقوم بعمليات التخطيط ، فلكل موضوع يوجد أفراد اختصاصيون يمكن أن يقدموا المشورة الى القيادة ، وعليه فان الاستعانة بهم يعد أمرا حتميا ، فالقائد الذي تخرج من صنف المشاة لايمكن أن يكون ضابط مخابرة لامعا ، وإنما يمكن أن يفهم قدرا كبيرا في الصنف الاخير ، ولكل قاعدة شواذ ، ومع كل هذا وذاك فان هيئة الركن هي التي تمثل عنق الزجاجة التي تؤدي الى القائد ، والتي عليها أن تنسق جميع الامــــور ، بحيث عندما تعرض على القائد خطة المخادعة النهائية مصحوبة بخطة المناورة عليها أن تكثف الرؤية خلال العرض، وأن لا تقدم العرض بصورة استطرادية لكي يتمكن صانع القرار من اتخاذ القرار المناسب .

ان العلــم الحديث قد سخر لخدمـة جميع الميادين ، ومنهــا الميدان العسكري .. ومع نمو هذا العلم وتزايده ، فقد أدخلت الى معظم الجيوش الحديثة ، مواضيع تخص بحوث العمليات ، وهذه البحوث يمكن أن تتخصص

في أكثر من مجال عسكري ، واحد ، ومن هذه المجالات ، مجالا ، المخادعة ، والمناورة ، وبوساطة هذه البحوث المستندة الى العلم يمكن الركون الى احتمالية قوية في نجاح عمليات المخادعة والمناورة ، شرط وجود معلومات حقيقية وتفصيلية عن الجانب المقابل ، وكاستنتاج حول الموضوع هو أن بحوث العمليات اذا ما أريد لها النجاح يجب أن تغذى بالمعلومات الوفيرة المتداولة من قبل باحثين أذكياء على أن تكون المعلومات المذكورة معلومات حقيقية غير زائفة ، لان المعلومات الزائفة يمكن توقع بحوث العمليات ، وعمليات القرار في مطبات لا أول ولا آخر ، وستنعكس انعكاسا سلبيا لا تحسد عليه في عملية القيادة ، ومن ثم على القطعات المنفذة .

مع كل ما تقدم فان القرار النهائي والبت في الامور الجوهرية سيكونان من صلاحية القائد ، الذي يعد هو صاحب القرار الآخير ، وله الصلاحية أيضاً بأن يرفض جميع الحلول المقدمة لـه ، ويأمر باجراء بحوث عمليات أخرى للتوصل الى حلول أكثر ملاءمة له ، وهكذا نجد أن القائد هو الذي يقع تحت اصبعه «زر اطلاق القرارات» مهما كان نوعها وحتى القدرية منها .

عندما ندرس التاريخ لا يمكن أن نجد قادة متشابهين في التفكير الى حد التطابق ، وقد يكون كل قائد منهم قد اتخذ من مبادىء الحرب كتابا مقدسا اخر عليه أن يراعي أحكامه بدقة ، ولكنهم عند اتخاذ قرار معين ، ربما سيجدون أنفسهم مختلفين حول بعض التفاصيل ، حتى لو كانت جزئية ، واذا أخذنا على سبيل المثال لا الحصر ، الولايات المتحدة الامريكية ، أو الاتحاد السوفيتي ، فسنجد في الولايات المتحدة الامريكية كانت ادارة «كاسبر واين بيرغر» في مسألة الدفاع تختلف عن ادارة «مكنمارا» ، وكلاهما كان وزيرا للدفاع في أوقات معينة ، ورغم ذلك لم تحدث أي تغيرات قانونية في مجال أعضاء مجلس الامن القومي ، ولا في المسؤولية الرسمية لاعضاء هذا المجلس منذ اقرار قانون عام ١٩٤٧ ، ومع ذلك فليس هناك من ينكر بأن الرؤساء الذين أعقبوا ذلك قد

استخدموا المجلس وأعضاءه بطرق مختلفة عن غيرهم كثيراً ، كما أن البعض كان أكثر نجاحا من غيره في المهمات الموكولة بهم[٢] .

اذا عرجنا على الاتحاد السوفيتي في الموضوع نفسه فسنجد أن التبدلات القيادية قد تغيرت منذ وفاة ستالين ، الا أن جوهر الموضوع السوفي لم يتغير مطلقا[٣] . حيث كانت ومازالت عمليات المخادعة والاستخبارات تدار من قبل أجهزة «الكي ، بي ، جي» وتجري على وتيرة واحدة ، وهذا يغرر الرأي على أن أعمال المخادعة والمناورة بالتصريحات لم تتغير مطلقا ، وان كان هناك تغير في الاشخاص والقيادات ، وعلى أية حال ان التغير لايمس جوهر الموضوع وانما قد يمس السياقات المتداولة للعمل ، ومن الطبيعي أن هذا ينجم من المتغيرات في الظروف الموضوعية .

المعطيات المارة الذكر يمكن أن تفضي بنا الى رسم مخطط بياني لاعمال المخادعة ، الذي سيبين لنا في نهاية المطاف أن السياقات عرضة للتبدل ، أم الاسس الموضوعية في عمليات المناورة والمخادعة فهي راسخة لا يمكن تبديلها لأنها جاءت عبر تاريخ طويل معمد بالدم ، ودراسة مستفيضة من قبل أعاظم العلماء العسكريين ، فضلا عن علماء علم النفس الاجتماعي والعسكري ، وقد أثبتت الحروب التي جرت في هـــذا القرن أن ما توارثناه من مبادىء عمل ، وأسس عسكرية ما زال هو سيد الساحة في التفكير العسكري .

هذا العرض يؤكد مرة أخرى ان القرارات التي يتخذها القادة حول عمليات المخادعة والمناورة ، هي قرارات تتأثر الى جانب بعيد بالشخصية القيادية المسؤولة غير أن هذه الشخصية لا يمكنها أن تتجنب الاسس ، وانما يكون ديدنها الاسس المتعارف عليها ، وان أي شطط في هذه العمليات سيؤدي الى ارتكاس مهلك ، من شأنه أن يوشم القائد تأريخياً بوشم من العار[٤] .

اذن كاستنتاج مهم فان المخادعة والمناورة هما سياقان يعتمدان أساسا على

أسس وجذور علمية خاصة ، وان من يبتعد عن هذه الاسس يمكن أن يسقط في متلاطم من مأساة الخيبة •

الهوامش :

(١) رواد الاستراتيجية الحديثة ــ تأليف أدور ميــد ايرل ــ ترجمة الاميرلاي، أركان حرب ، محمد عبدالفتاح ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ توزيع المكتبة العالمية ــ بغداد ــ العــراق ساحة التحرير ــ الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص٢١ •

(٢) من مقال «تقويم لهيئة الاركان الامريكية المشــتركة» كمؤسسة استشارية ودورها في صنع القرار ، والمنشور في مجلة كلية الحرب الامريكية والمترجم من قبل اللواء الركن محمــود وهيب لطيف ــ والمنشور في مجلة مختارات سوقية الصادرة عن وزارة الدفاع العراقيــة ــ دائرة التدريب ــ مديرية التطوير القتالي في آب ١٩٨٦ ص٥٣ •

(٣) الكتاب المترجم من قبل وزارة الدفاع العراقية ــ دائرة التدريب ــ مديرية التطوير القتالي حول السوق في الاتحاد السوفيتي والمترجم من قبل الدكتور كاظم هاشم نعمة والذي يدور في فلك الامر الذي ناقشناه في النقطة المذكورة •

(٤) المصدر رقم «٢» أعلاه ص٥٥ •

(★) عبارة مشهورة في الوسط العسكري •

العلاقة الجدلية

بين

السياسة والفلسفة والمخادعة

منذ أن وجدت الحياة على سطح الارض ، كان البشر يقوم بعملية تفكير مستمرة ، الغرض منها الاستدلال على الاشياء ، ومعرفة ضواهرها ، وبواطنها ، ومن ثم تداولها اذا كانت تمثل رغبة الاكثرية ، أو رفضها اذا كانت تتقاطع مع المعتقدات السائدة ، والتفكير الانساني عموما كان متفاعلا في ثلاثة ميادين لايمكن الفصل بينها ، وهذه الميادين ، هي : الميدان السياسي ، والعسكري ، والفلسفي .

منذ نشوء الحضارات ، نجد أن رأس الدولة هو مفكرها وهو قائدها العسكري والسياسي معا ، مع بعض الشواهد القليلة الخارجة على هذا القانون ، ففي العهد الاشوري ، كان الملك هو القائد الفاتح والمفكر معا ، وهو رأس السلطة السياسية ، واذا عرجنا بعد ذلك على المجتمع الاغريقي سنجده يتطابق مع فكرتنا الى بعض الحدود ، فالاسكندر المقدوني ، قد تتلمذ فلسفيا على يد « أرسطو » وكان هو الحاكم السياسي ، والقائد العسكري في الوقت نفسه ، وهكذا كان « فردريك الاكبر » أيضا .. وهذا ما يسمى « بوحدة القيادة » وهي أعلى مرحلة للنشاط الفكري للانسان ، فوحدة القيادة توفر للقائد الفرص للاطلاع على كل شيء وجعل كل من السياسة والعسكرية يخدم

بعضهما البعض الاخر من خلال يد واحدة غير مجزأة •• وبما أن السياسة تتأثر بالفكر الفلسفي عبر اطلاعها على التجارب الفلسفية العالمية ، بغية صقل الشخصية القيادة لديها ، لذلك نشـــاهد أن بعض القرارات العسكرية تأخذ صفة فلسفية ، سواء كان متخذ القرار يعلم ، أولا يعلم بهذا التأثير •

مما تقدم يمكن أن نصل الى استنتاج هو وجود علاقة جدلية وترابط فكري بين كل من السياسة والفلسفة ، والعسكرية ، وهذا الترابط ينعكس بصورة تامة عندما تدخل الدولة حربا معينة •

لما كانت المخادعة من ضمن مفردات الحرب المهمة ، فانها والحالة هذه ستتأثر وتؤثر في الثالوث المشار اليه أعلاه •

لقد كان «سان تشو» في الصين يـــدرس الحرب ومن ثم يتولى قيادة الجيش ، على الرغم من أن الشعب الصينـــي لم يعرف تأريخياً على أنه شعب يهوي القتال ، الا أن ذلك ، لم يمنع من أن ينجب هذا الفيلسوف الذي بقيت كتاباته تشكل رجعا جيدا للعسكريين ، وغير العسكريين كما أن هذا الفيلسوف الصيني القديم قد قدم معرفة وأفكاراً علمية لابناء بلده، تم استخدامها بشكل جيد ، عندما ابتدأت حملات « جنكيز خان » على الصين ، وقد ترجمت تلك المفردات العسكرية الى أعمال ميدانية ، ولايمكن في هذا العرض أن ننسى قوله : « اقرعوا الطبول ، وارفعوا الاعـــلام ، كي يظن عدوكم أن عددكـــم كثير»(*) •

ان هذه العبارة تجسد فعل المخادعة ، وخصوصا في الحركات الليلية ، عندما لا يتمكن العدو من تشخيص القوة لنا بصورة جيدة ،حيث سيعتقد من صخب الطبول أن العدد كثير ، وان لم يكن كثيراً ، فهو أكثر مماقدره سابقاً ، أما اذا جئنا الى «الاسكندر المقدوني» سنجد أن الامر يتشابه مع ما ذهب اليه «سان تشو» الى حدود بعيدة ، فالاسكندر لم يكن فيلسوفا منظرا كأفلاطون وسقراط ، وأرسطو ، وانما كان تلميذا نجيبـــا لآرائهم الفلسفية ، وكان لا

ينفصل عن الفلسفة مطلقا .. مهما كانت الظروف ، لذلك كنا نجده ، يسحب في حملاته الفلاسفة ليستانس بآرائهم ، ويذكر أنه أخذ اراء بعض منهم قبل حدوث معركة «أربيلا» التي حدثت بالقرب من أربيل الحالية في شمال العراق، والتي قضى بها قضاء تاما على الجيش الفارسي ، وقائده داريوس الثالث .

اذا أمعنا النظر في المعركة الاخيرة سنجد أن المخادعة كانت عاملا مساعدا على ربحها حيث أشعر الاسكندر المقدوني القائد الفارسي ان وسط «قلب» الجيش المقدوني هو منطقة هشة ، مما حدا بداريوس الفارسي مهاجمة منطقة الوسط ليقع في فخ المخادعة .

ان المنهج الفلسفي ، وبعد هذا العرض نجد أن له صدى منذ القدم في التطبيقات العسكرية حيث أن الفيلسوف الاغريقي «سقراط» عبر منهجه في السؤال والجواب لايزال يعمل به ، لان القائد ضمن المنهج المذكور يسأل نفسه دائما مايأتي :

★ اذا عملت هذا ، ماذا سيكون رد الفعل المعادي ؟
★ الجواب ـ سيكون .. كذا .. وكذا .. الخ .
★ ان الحل يكمن في .. كذا .. الخ .

وهكذا بقى الفكر الفلسفي يطعم السياسة من جهة والعسكرية من جهة أخرى ، أو ليطعم السياسة التي تطعم بدورها العسكرية وفي الحالة الاخيرة يجب أن يكون القائد السياسي هو القائد العسكري في الوقت نفسه .

الفلسفة عموما لم تظهر بشكل مؤثر في العسكرية مثلما حدث في القرن الثامن عشر ، عندما أخذ الفلاسفة يلجون أبواب العسكرية من خلال تفكيرهم بالدولة .. وبما يجب أن تكون عليها مؤسساتها .. وبما أن الجيوش تمثل مؤسسة من مؤسسات الدولة ، لذلك نجدهم قد ولوجوا هذه المؤسسة ، وأثروا فيها تأثيرا واضحا ، «فهيغل» وهو فيلسوف ألماني مثلما كان ينادي

بالدولة كسلطة لاتقاوم ، وهي تمثل لديـــه الحقيقة العظمى التي ليس للفرد الحق عليها ، ولا يوجد أي شيء انساني خارج نطاقها .

ان هذه الفلسفة عندما يتم تكريسها لتلائم الجيوش ، فستجعل الجنود أدوات طيعة في يد الدولة ، ولا يمكن لهم أن يطرحوا أي مطالب حتى ولو كانوا في حالة عوز وفاقة ، أو أي شيء آخر يعد مشروعا كحق انساني ، وبهذه الحالة عليهم الانصياع التام للدولة والقادة القائمين على تمشية أمورها سواء كانت هذه التمشية في الطريق الصحيح أو خلاف ذلك ، كما أن هيغل نفسه كان ينادي بأن العنصر الجرماني هـــو الصفوة النهائية لروح العالم ، وبهذا العمل قدم الى ألمانيا نظرة استعلائية يمكن أن ينبثق عنها أعمال عدائية ، وقد استثمر هتلر هذه الفلسفة لمصالح خاصة ، ونضج فحواها في عقول الالمان ، قبل قيامه باكتساح أوربا الغربية ، ومن بعدها الاتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية ، مع ما صاحب هـــذه العمليات القتالية من اجراءات مخادعة مستفيضة ، وخصوصا خلال هجومه على الاتحاد السوفيتي .

من العـــرض الذي مر أعلاه يمكن أن نلمس الكيفيـــة التي امتزجت السياسة والفلسفة العسكرية في بودقة واحدة في أذهان قادة الرايخ الثالث ، هؤلاء القادة الذين رضعوا أفكار «هيغل» و «نيتشه» ، والاخير يؤمن بفلسفة القوة والعنف .

اذا ذهبنا الى طرف آخر في الثالوث المذكور ، فاننا سنأخذ عينة عسكرية تتمثل بالفكر التعبوي والسوقي الالماني «فون كلاوزه فتز» على أساس أنه منهجه العسكري في الكتابة قد تأثر ، وبعمق بفلاسفة عصره ، وارتكز أيضاً صاحب ميدان فسيح له ثقله في شؤون القتـــال ، وسنجد أنه ، وحتى ضمن على الفيلسوف «هيغل» فهو يقول أن : «الحرب عمل يجب أن يعمد بالدم الى أبعد الحدود ، وان الحل النهائي للأزمـــات يجب أن يمر عبر القوة ، وان القضاء على الجيش المعادي ، وسحقه هو الامر الذي يحقق أماني الدولة» .

من الطبيعي أن آراء كلاوزه فتز في الوقت الحاضر ، والتي تختص بالقوة والعنف والدماء لا تلاقي قبولا مقنعا ، وان الدول في الوقت الحاضر تتشبث الى آخر لحظة بالسياسة والدبلوماسية قبل أن تقع في براثن الحرب المدمرة ، لان السلاح الان أصبح أشد فتكا مما كان عليه في زمن كلاوزه فتز ، وان لبعض الدول حوارا ساخنا من طراز عنيف خاص يتمثل بالتراشق النووي المميت .

ما كان سائدا من فكر فلسفية ، وعسكرية ، وسياسية في القرون الماضية ، لايمكن أن ينسجم مع المجتمع الدولي في الوقت الحاضر ، ولا يمكن أن تكون الفلسفة بمعناها العدواني المار الذكر هي الاساس في العمل القتالي ، ولايمكن اعتبار الحرب ، وكما قال «مولتكه» القائد الالماني العسكري الشهير «نفحة الهية» .

مع ظهور كارل ماركس ، وأنجلز ، ومن ثم لينين نجد أن الخط الفلسفي بدأ بالتوجه باتجاه آخر لم يقترب أبدا من هيغل وغيره الذين كان لهم باع في فلسفة القوة ، فانجلز لا يعتقد أن القائد هو شخص يجب تقديسه ، مثلما يعتقد «نيتشه» ، ولا يعتقد كذلك أن القيادات العسكرية ، وحتى العبقرية منها يمكن أن تأتي بالمعجزات ، ومع هذا فانه لا يثلم حق بعض القادة النوابغ ويعد أن قوتهم تكمن في : «معرفة وتطبيق الاساليب ، وفقا للوسائل المادية والمعنوية ، وهذا يتطلب الكثير من الجهد والتأمل»[1] .

اذا سرنا في رحاب الفلاسفة الثلاثة ووصلنا الى «لينين» فسنجد أنه يبحث الموضوع بطريقة أخرى ، فهو لا يرى أن الفن الحربي فن لا مغزى له ، وانما يعده ، فنا من الفنون ، وهو وسيلة ضرورية يمكن أن يستخدمها القادة في الثورات القادمة ، وقد أثرت مقولته هذه في «ماوتسي تونغ» عندما قاد الى التحرر بأعمال عسكرية باهرة تمخضت عنها عقائد عسكرية ، مازالت قائمة حتى الآن ، هذا ناهيك عن تأثر ماوتسي تونغ كقائد عسكري وسياسي

بالفلسفة الماركسية ، وهكذا نلمس مرة أخرى الوشائج الوثيقة بين كل من السياسة ، والعسكرية ، والفلسفة ..

اذا أردنا أن نتعمق أكثر في العلاقة الجدلية المذكورة فعلينا ، أن نأخذ عينة أخرى تتمثل «بميكافلي» ، الذي كان يؤمن ايمانا عميقا بفلسفة القوة ، معتبرا القوة كفضيلة من الفضائل الاخرى ، ويوافق «نيتشه» و «هيغل» حول الانانية التي تعني القوة والتي تقـــود الى الطموح ، ومع ذلك فانه لا ينسى العوامل الاخرى المطلوبة في تكوين القوة العسكرية ، وانه خلافا «لكلاوزه فيتز» ، لا يؤمن إيماناً مطلقاً بإبادة العدو بالسلاح ، بل انه يذكر في كتابه «عن الحرب ، وفي أحكام عامة بالضبط العسكري» : «من الافضل اذا استطعت هزم العدو جوعا عن دحره بالسيف» ، كما انه يقرن تفكيره الفلسفي بالمخادعة العسكرية ، بكل وضوح ، عندما يقول : «أن العدو اذا ما تمايل وتمكن من الاطلاع على خططك العسكرية ، فعليك بتبديلها » ، أو قوله : «استفد من الفرص عندما تقدم لك ، ، واستفد من الجنود الفارين من العدو لارباكه»(٢) .

المفردات العسكرية الميكافيلية حول المخادعة والتي ذكرناها سابقا تنبع من فكر سياسي وعسكري في آن واحد ، بغض النظر عن شخصية قائلا ، لانها تعد قابلة للتطبيق حتى الان ، مـــع التحفظ على بعض الافكار التي تتقاطع وتفكيرنا في الوقت الحاضر ، والذي لامجال لذكرها .

اذا ما قمنا بمتابعة لينين أكثر من ذي قبل فسنعثر على شيء مهم آخر وهو أن لينين كان من المعجبين بكلاوزه فيتز ، ولكن كان يخالفه في بعض الآراء الجوهرية مخالفة تامة ، فعندما قرأ لينين عبارة كلاوزه فيتز الشهيرة : «الحرب تساوي جزءا من كل ، والكل هو السياسة» سطر تحتها كلمة خطأ ، ولم تشفع لكلاوزه فيتز خدماته السابقة لروسيا في تبديل هذه الكلمة .. حيث أن لينين كان يسير على خط أنجلز ، وهذا ما جعل هواجسه تختلف عن هواجس كلاوزه فيتز ، ومتقاطعة معها في بعض الحقول .

مهما كانت الامور والطروحات ، فان فون كلاوزه فيتز قد تأثر بهيغل ، لذلك نراه يتبنى خلال كتابه «في الحــــرب» المنهج الهيغلي في الفلسفة ، أي «الفكرة ، ونقيضها» ، ومن ثم التوليف بــــين الفكرة والنقيض ، مع اعطاء السيف الافضلية في تحقيق أهداف السياسة .

كلاوزه فيتز خلال طروحاته المتعلقــــة بالتناغم بين السياسة والفلسفة والعسكرية أولى اهتماما خاصا للمخادعة ضمن الاطر العسكرية ، كما وأفرد لها باباً خاصاً ، وقد تبناها لأنها تمهد الدرب الوعر للمباغتة ، وتجعل المباغتة أشد مضاء وأكثر هولاً على الجانب المعادي ، وقد طبق السياسي الالمــاني «بسمارك» بصورة لافتة للنظر آراء كلاوزه فيتز المتعلقة بالتفاعل الفكري بين السياسة والعسكرية ، يساعده في الامر المذكور منصبه الذي يحوي على طرفي المعادلة المذكورة ، وهي السياسة والعسكرية ، علما ان بسمارك قد تأثر أيضا بالجنرال «مولتكه» لانه كان قريبا منه بصورة مستديمة .

جميع الفلاسفة الذين ذكرناهم لم يتطرقوا في كتاباتهم الى شخصية القائد الطبقية ، لأن من المسلم به ، في تلك العصور ، أن جل القيادات العسكرية ، كانت تأتي من طبقة النبلاء ، والاقطاعين ، وان أول من طرح مسألة القيادات على أساس طبقي هو «كارل ماركس» ، وقد حصر هذا الحق بالعمال فقط ، أو يدعى «بالبروليتاريا» ، وهذا الرأي اذا ما نوقش من وجهة النظر العسكرية فانه يعد رأيا مخطوءا ، لان القيادة الفذة المقتدرة المبدعة لايمكن وقفها على شريحة معينة من شرائح الشعب ، وانما تبرز من أي شريحة منه خلال العمل ، ولو قدر لآراء كارل ماركس المذكورة أن تطبق في العصر القيصري لما وجدنا قائداً عظيماً في روسيا مثل «سفروف» ، وكان من الممكن أن نشك في امكانية ربح بعض المعارك الروسية التي جرت ضــــد الاتراك الذين يتميزون بروح عسكرية عالية وضبط صارم(٣) .

الخط الفكري السياسي لماركس لا يتقاطع مع العمل العسكري ، وانما يتقاطع مع فكرة القيادة ، حيث أنه يجند القيادة العملية التي يقودها العمال ، وبما اننا أسلفنا القول نجند القيادة الجماعية فلهذا فاننا نتقاطع معه أيضا ، ولنا في هذا الشأن مبادئنا التي برهنت على صحتها ، حيث اننا نعتقد ان القيادة موهبة فكرية وهي علم وفن وخصائص أخرى(٣٣) ، والتي تصقلها التجارب لاحقا ، وعلى أية حال فان فكرة ماركس بشأن القيادة العمالية تحققت خلال الحرب العالمية الثانية عندما أصبح ستالين مارشالا للاتحاد السوفيتي ، فضلا عن انه كان القائد السياسي للدولة ، وقد انطلت على ستالين كل ألاعيب هتلر العسكرية والسياسية ، وكانت المخادعة العسكرية الكبرى التي حققها الالمان على الروس وليدة معاهدة سياسية بين الطرفين ، وهذه المعاهدة قد زرعت حالة الاطمئنان في قلب ستالين ، وقد استغل هتلـــر هذه الحالة ، وقامت جحافل الجيوش الالمانية باكتساح الحدود السوفيتية في أكبر عملية عسكرية ، ولم يتمكن ستالين أن يقدم أية فكرة مقبولة ، تقارع هذا الحدث ، وانما كان جل ما عمله هو تبديل هذه القيادة ، أو تلك بقيادات أخرى •• وبقي الوضع على هذا المنوال حتى وصلت الجيوش النازية أبواب موسكو •• وهنا علينا أن نذكر أن كل القيادات العسكرية القيصرية تم تسريحها ، ولذلك اعتمد الجيش الاحمر على القادة المنبثقين من الشرائح العملياتية ، وهؤلاء يعدون قليلي خبرة في هذا الميدان •• ومن الطبيعي أن هذا الامر هو افراز طبيعي لفكر ماركس الذي يؤمن بالمادية عكس التفكـــير الهيغلي الميتافيزيقي الذي كان امتداده الطبيعي هو الفكر النازي متمثلا في شخص هتلر •

ان التفكير الهيغلي قدم لنا هتلر ، والتفكير الماركسي قدم لنا ستالين ، وهما انموذجان لتفكيرين ، فلسفيين متقاطعين ، حيث كان هتلر ، رومانتيكياً حالما ، لم يحسب للماديات أي حساب ، على عكس ستالين الذي كان يؤمن بها ، ولذلك كان عمليا الى حدود الصرامة المتوحشة ، علاوة على أنه كان لاينهل المعرفة العسكرية من المنهل الماركسي بل تعدى ذلك الى الاخرين ، حيث أن

الطروحات الماركسية في الميدان العسكري كانت قليلة ، ومن الافراد الذين أعتمد عليهم في عملية التثقيف الذاتي هو «أنجلز» ، لان الاخير وان كان ماركسي الهوى ، الا انه كان متعمقا في العلوم العسكرية ، وقد تنبأ بصورة مبكرة بأن أية حروب ستحدث بالمستقبل سيكون الجانب المتفوق بها هو الجانب الذي يتمتع ويستند الى فلسفة ثورية ، وبهذا أضاف الى العسكرية التقليدية بعدا آخر هو البعد الفلسفي الثوري ، والذي كان حتى ذلك الوقت يعد بعدا هلاميا يختمر في عقول القادة فقط ، كما ان انجلز نادى بعدم فصل السياسة عن العمل العسكري ، وبما أن السياسة تسند الى الفلسفة ، وقد دخلت من باب واسع الى العسكرية ، ولذلك فان الترابط والحالة هذه سيكون أقوى وأمتن، وعليه كاستنتاج مهم ان المؤسسةالعسكرية السوفيتية بعدثورة أكتوبر بدأت تنهل من الفكر والفلسفة الماركسيتين ، وبذلك فتحت الابواب للكثير من الجيوش بتبني الافكار نفسها ، ومن الطبيعي أن هذهالافكاركانت تتنافى مع الافكار السائدة في ذلك الوقت والتي تتنافى الان مع أفكار بعض الدول في الوقت الحاضر أيضا ، والتي تعرض بأن العسكري يجب أن يكرس للقتال ، وبهذا المنطق تجعل من الشخصية العسكرية ، شخصية أحادية الجانب .

ان أنجلز بهذا الترابط لم ينسى ، أبدا عمليات المخادعة ، كشيء أساسي في القتال ، وهو يرى أن المخادعة تتمثل بالدعاية المظللة الطويلة الامد ، والفعالة ، ومع كل هذا العطاء الفكري المطروح من قبل أنجلز ، فان ستالين خلا سني حكمه لم يطبق الا القليل ، وأصبحت آراوه العسكرية هي الافكار السائدة ، كما أنه قام بعمليات تصفوية داخل القوات المسلحة شملت الكثير من المفكرين العسكريين ، مما أضعف القدرات العسكرية والفكرية على حد سواء داخل صفوف تلك القوات ، ولذلك عندما اقتحمت القوات النازية تراجعت بشكل يثير الدهشة ، ومع ذلك فقد ساعدا حليفي الاتحاد السوفيتي الأبديين،

وهما الطقس ، والعمق السوقي الكبير ، القيام من الصدمة بعد حين ومن ثم العمل لتحرير الاراضي السوفيتية ، بعد أن أتعبت الانواء الجوية الالمان ، وقلت امداداتهم .

اذا ما تركنا الفلاسفة الالمان ، والفكر السوفيتي الماركسي ، وتوجهنا صوب الفلاسفة الفرنسيين ، فسنجد أن فلسفتهم ، قد أثرت أيما تأثير في تفكير نابليون بونابرت ، وعلى آرائه السياسية ، وفي تفكيره العسكري الذي تشكل المخادعة جزءا متميزا فيه ، ففي معركة «أولم» الذي حدثت بينه وبين القائد النمساوي «ماك» ، قام نابليون بخدعة لم يسبقه اليها أحد ، حيث كان يعسكر بعيدا جدا عن أرض المعركة ، وبالتحديد على السواحل الغربية من الشاطىء الفرنسي والمقابلة لانكلترا ، وقد روج معلومات تفيد انه سيهاجم البر البريطاني ، وليس القوات النمساوية في «أولم» ، الا انه وفي اللحظات الحاسمة استدار بكل خفة نحو الجيوش النمساوية ، التي كانت في حالة خدر تام ، حيث انها أعتقدت أن المقصود هـو بريطانيا ، وقد كتب له النجاح في المعركة وأسر الكثير من الجيش المعادي .

ان تفكير نابليون تأثر الى حد بعيد ، في مراحل حياته الاولى ، بالمفكر العسكري الفرنسي «جوبير الذي كان من المفكرين النابغين في عصره ، فضلا عن اهتمامات نابليون الاخرى المتمثلة بالتاريخ ودراسة الحروب السابقة ، ومن هنا وعى دروس التاريخ بشـكل مكثف ، ومع ذلك لم يغفل نابليون قراءة كتابات «جان‌جاك روسو» ، إلا أنه تأثر أكثر ما تأثر بالشعور القومي ، والنابع من تأثره التام بالثـورة الفرنسية ، ومفاهيمها ، أما عندما بدأ نجمه بالصعود ، فقد زاوج الشعور القومي بالعسكرية ، لكي يلد من رحم هذا التزاوج العطاء القتالي الثر المتدفق حماسة من لدن الجنود ، ويقول مونتكمري حول هذا الامر ما يأتي :

«كان نابليون يدين بفضل كبير الى كتابات جوبير الخاصة بأفكاره عن الاهمية العسكرية للشعور القومي»(٤) .

ان نابليون تأثر أيضا بحوادث الثـــورة الفرنسية التي كانت زاخرة بالدسائس والحيل بين الاطراف المتنازعة على الحكم ، وهكذا كان عهد نابليون عهد تحول فكر فلسفي زاخر بالاحداث ، ومع هذا فان نابليون خلال حملته الشهيرة على ايطاليا ، والذي أطلق فيهـــا عبارته الشهيرة التي تنص على عدم وجود المستحيل الا في القواميس ، تعطينا دلالة كافية ، على الكيفية التي مارس بها العمل العسكري ، حيث انـــه حصل على المباغتة الممزوجة بالمخادعة بعد عبوره جبـــال الالب الوعرة المغطاة بالجليد ، ومع هذا فان فكـــر نابليون الفلسفي ، والمصادر التي استقى منها هذا الفكر وصمها المعسكر الشرقي على أنها وليدة البرجوازية ، وان قيادته لم تكن ثورية بالمعنى الذي يفهمه الفكر الماركسي مع عدم نكران عبقريته العسكرية ، وفي هذا الصدد يقول الجنرال ستروكوف : «دخل نابليون بونابرت ١٧٦٩–١٨٢١ التاريخ كقائد عسكري بارز ، وكزعيم بورجوازي كبيـــر ، ويقدر علم التاريخ العسكري الماركسي تقديراً عالياً نشاط نابليون ، كقائد عسكري بارز، تفتحت عبقريته على أساس العلاقات التقدمية الجديدة ، وقد ذكر أنجلز أن الحرب الثورية ، بالذات هي التي كونت شخص نابليون الانسان ، الذي استطاع تحويل الاسلوب الجديد لخوض الحرب أسلوبا نظاميا ثم سار الى درجة الكمال»(٥) ان الماركسيين ، وان لم يتقاطعوا بدرجة كبيرة مع أفكار نابليون العسكرية وفلسفته الحياتية ، الا انهم ينظرون اليه ومن وجهة نظر خاصة بهم ، وهي الحرب الثورية التي ينادون بها دائما ، ومع ذلك فالكثير من المفكرين يعتقدون أن وصول نابليون الى قمة السلطة في فرنسا ، ومنحه لقب «الامبراطور» لم يأت من عبقرية نابليون العسكرية فحسب ، وانما من تفكيره الحياتي ومقدرته السياسية ، التي لا تخلو من دهاء وحيلة ، فكيف تمكن هـــذا العسكري المتغطرس ، وفي بحر هائج متلاطم من الافكار المتصارعة والفلسفات الصعود الى هذا المركز لو لم يكن من الدهاء والحيلة والمناورة والعبقرية بالقدر الكبير ، وقد برهنت معاركه على

الاشياء المذكورة ، والتي كان يقع على قمتها خطة المخادعة الذي كان يضع في كل مرة أطرها العامة .

اذا ما تجاوزنا فرنسا واتجهنا صوب الجزر البريطانية ، سنجد أنفسنا ازاء نمط جديد من التنظيم المحافظ ، ففي المملكة المتحدة هناك الملك ، وهناك رئيس الوزراء ، وكما هو معلوم ، فان الملك «يملك ولا يحكم» ، وهذا يعني تجريد الملك من صفة القيادة ، بمفهومها العسكري ، واناطة ذلك برئيس الوزراء ، ولكن ، هل حقا أن لرئيس الوزراء في المملكة المتحدة الرأي الاول والاخير في مسألة القيادة العسكرية ؟

الاجابة عن هذا السؤال ، تأتي عبر حوادث الحربين العالميتين ، الاولى والثانية ، ففي الحرب العالمية الثانية كان «شرشل» هو القائد الفعلي للقوات المسلحة للدول التابعة الى رابطة الشعوب البريطانية ، و«شرشل» كما هو معلوم له بعض الاطلاع على التجارب العسكرية ، حيث شارك في حرب «البوير» وعمل كضابط بحري ، وتأثر بفلاسفة عصره ، وكان يميل الى منطق القوة الذي ساد فترة الحرب العالمية الاولى ، ويكفي أن نذكر أن ضباط الحرب العالمية الاولى كانوا يحتقرون كل ماهو ضعيف وكانوا يعزفون عن قراءة شعر أكابرة الشعراء البريطانيين ، كاللورد «غوردن بايرون» و «شيللي» ، ومن جهة أخرى فكان لكل ضابط ديوان الشاعر «كبلنغ» الذي يمجد الاستعمار والقوة(٦) .

في الحقيقة ، ان البريطانيين وان كانوا محافظين ، الا انهم يلتقون مع أفكار نيتشة العنيفة ، وانهم بهذا المنطق تمكنوا أن يسودوا خمس العالم ، مستخدمين الخداع والقوة ، والتفرقة ، سواء في كواليسهم السياسية ، أو في أعمالهم العسكرية المكشوفة ، وقد تجسدت المخادعة كما أسلفنا لديهم عند الانزال في شاطيء النورماندي الفرنسي ، وبالعمل سوية مع القوات الامريكية ، وفي هذه الحالة جرت أول عملية خارج نطاق البريطانيين ، وهو

تجزئة القيادة حيث وضعت القيادة العسكرية تحت امرة الجنرال «أيزنهاور»، وهو عسكري محترف بارع في الاداء الاداري، وبذلك خرج «شرشل» من حلبة القيادة، وبذلك أصبحت كـل من السياسة، والعسكرية، والمخادعة تدور في فلك خاص قد يبتعد أحدهما قليلا عن الاخر.

مع كل ما تقدم فان ظلال التفكـير الفلسفي لونستون شرشل، تبدو واضحة على عمليات المخادعة عبر جهـاز «الكترا» المخصص لهذا الغرض في الحرب العالمية الثانية، وبهذا كان يتدخل في شؤون أيزنهاور والقادة الميدانيين الاخرين، وما ينطبق على الحرب العالمية الثانية كان منطبقا على الحرب العالمية الاولى، حيث أن كلا من الولايات المتحدة الامريكية، والمملكة المتحدة، ورابطة الشعوب البريطانية، وفرنسـا كونت حلفا لمواجهة ألمانيا وتركيا، وقاتلوا بالمفاهيم الفكرية نفسها.

ان كل ما ذكرناه، حول علاقة الفلسفة، بالسياسة، والعسكرية، ومن ثم بالمخادعة كان يعتمد على الفلسفة المجـردة التي نادى بها بعض الفلاسفة والمفكرين، بيد أن هناك في بطون التاريخ، نوعا اخر من الفلاسفة، والتي ترتبط ارتباطـا وثيقا بالسياسة والعسكرية على حد سواء، وهـذه تتمثل «بالتجزب المرن للقوة»، وقد جرى اختيار المفردات خلال حرب الثلاثين عاما بين كل من ألمانيا وفرنسا، وقد بدأت هـذه الحرب بين دولتين، كل منهما تحاول أن تسيطر على أوربا، ولهذا فانها التجئت الى القوة ولكن ليس بمفهومها المتعارف عليـه، وانما بمرونة تامة، وهكذا وبعد قليـل وباستخدام هذه الفلسفة نجد أن أوربا قد انقسمت على فريقين، الفريق الاول يمثله كل من الامبراطور الروماني «فرديناند الثاني» وتعاونه كل من اسبانيا، وبافاريا، والفريق الثاني تمثله فرنسا وبعض الدول التي تحظى بتأيد القسم الاخر، وعلى أية حال، فان رئيس وزراء فرنسا في ذلك الحين «روشيليو»، تمكن بوساطة دهائه وحيلته من اغواء الملك السويدي «جوستاف أودولف» للدخول

في التحزب ضد الامبراطور ، ويعتقد الفيلد مارشال «مونتغمري» ، أن هذه العملية تعد أكبر عملية مخادعة واغواء في ذلك العصر[٧] .

ان «التحزب المرن للقوة» وان كان سائدا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في أوربا ، فانه لم يمنع وقوع الحروب ، وانما كان يعتمد كورقة ضغط على هذا الجانب أو ذاك لتأليف حلف قوي تجاه عدو مشترك ، وكما يحدث الان في أوربا عبر حلفي وارشو والاطلسي ، ولهذا فقد استقتل «روشيلو» لكسب «غوستاف أودلف» ، لان الاخير كان قائدا كبيرا له فلسفة عسكرية خاصة ، انعكست على كتاباته ، ففي كتابه «مقالات عن الحرب» أشار الى أن المعنويات العالية تحتم علينا أن نمنع شرب الخمر والدعارة ، وامتهان المقدسات كما علينا أن نكون انسانيين ونحرم عقوبة الجلد .

ان استخدام الجيش الذي كان يقوده جوستاف أودولف كان يستند الى عاملين للنجاح ، أولهما ، أن كل من غوستاف وروشيليو عمدا الى المخادعة كحدث افتتاحي للنصر ، وقد عمدا الى الايحاء للعدو المتمثل بالامبراطور بأن قيادة «والتشتاين» الروماني قد أصبحت تهدد الامبراطورية الرومانية لكثرة الجيش الذي يقوده ، والذي من الممكن أن يسيطر به على الامور ، وقد كانت قوة هذا الجيش تقدر بمائة ألف مقاتل ، وقد أدت هـذه الخديعة الى خفض جيش «والنشتاين» الى النصف وجعله خمسـين ألفا بدلا من الرقم الاول ، وهكذا وبوساطة هذه الخديعة تمكنوا من اقصاء نصف القوة المقابلة ، وازاء هذا الوضـع تمكن جوستاف أدولف من اغواء بعض الجنـود العاملين مع والنشتاين العمل معه[٨] ، لان أوربا في تلـك الحقبة كانت تعتمد على بعض المرتزقة ، والذي تمكن من أن يحصل على معلومات مؤكدة عن جيش الخصوم ، وكحصيلة لذلك نؤكد هنا مرة أخرى أن النصر الذي حاز عليه جوستاف جاء من عمليات مخادعة اعتمدت السياسة ، وفلسفة «القوة المرنة» ، والتي أدت الى هزيمة الجيش الروماني في «بريتنذفيلد» .

ان المخادعة من وجهة النظر الفلسفية تعد تجربة المجموع لا تجربة الفرد وحده ، وان التاريخ هو المعلم الاول لفن المخادعة ، وان المخادعة تحتاج الى أفكار متعددة تجتمع لدى أكثر من فرد ، الا ان من يقرر عليها في النهاية هو فرد واحد .. القائد ، وكل ذلك تلعب به الظروف الموضوعية دورا بالغا ، ويؤدي كل ذلك الى المباشر أو غير المباشر في مجمل العملية العسكرية ، وهنا علينا أن نستذكر قول شكسبير : «يمكن الوصول الى المباشر عن طريق غير المباشر» ، ومن هذا المنطلق بشر «ليدل هارت» بفلسفة قد تكون قديمة ولكن بقناع جديد ، وهذه الفلسفة تتمثل باسلوب التقرب غير المباشر ، وتخطي المقاومات ، وهاتين المسألتين لا يمكن أن تتمان بنجاح إلا إذا تشابك عاملين مهمين أساسيين ، هما المخادعة ، والمناورة .

من الطرح أعلاه نجد أن ليدل هارت يخالف الفلسفة المادية ، التي تبني كل قوانينها ويجعل للصدفة فرصة من الفرص لاكمال العملية برمتها ، وهكذا نجده يقترب من الغيبيات أو الاحلام في شكل محدد من الاشكال ، كما وانه يقع في التعميم عندما يقول : « مما لا ريب فيه ان عمل النبي يتعلق بعمل القائد ، وان على القائد أن يرجم كما رجم الانبياء»(٩) ... وفي هذا المجال يمكننا التعليق بأن الانبياء لا يستحقون الرجم ، وانهم في سننهم صادقون ، وان من يرجم الانبياء لابد وأن يكون من الكفرة ، وهذا هو حال القادة الذين أثبتوا بالبرهان القتالي الساطع انهم صادقون في تطبيقاتهم لمبادىء الحرب وأسسها ، والعوامل المادية المؤدية الى النجاح ، والتي تعد المخادعة مفتاح الدخول اليها .

الفيلسوف الفرنسي المعاصر «جان غيتون» يناقش المسألة بشكل آخر ، فهو يعتقد أن العلم يقتصر على المعرفة بصورة شفافة ، أما الحكمة فهي فن السعادة ، ولكنها السعادة التامة ، والسمو رغم الآلام ، والهدوء ورباطة الجأش في حالات الفشل ، وبين العلم والحكمة يقف الفن ، وهو مركب من العلم والحكمة ، لأنه الممارسة المستندة الى المعرفة(١٠) .

الرأي المطروح أعلاه من قبل الفيلسوف جان غيتون عد الحكمة لا عامل مؤثر في العسكرية فحسب ، وانما عامل متفاعل ينجم عنه الفن ، وهذا الفن يمكن تسخيره لاغراض القتال ، وعلى أية حال ، وبعد أن قام بالطرح أعلاه يصل الى مفاهيم ينهيها نهاية تتعلق بالحيلة أي المخادعة فهو يقول :

«نحن لا نمجد المنتصر لحظة في الانتصار ، ولا لشجاعته فحسب ، بل نمجده لحيلته وذكائه»(١١) .

وهكذا يعطي جان غيتون الحيلة مقدرا وثقلا وفيرا في عملية تحقيق النصر تتعدى الشجاعة ، وهذا الرأي ، قد يكون مبالغاً به ، حيث أن الكثير من المعارك لم تربح بواسطة المخادعة ، وإنما لعبت المخادعة دوراً حيوياً فيها ، ومهما كانت الامور ، فان بعض المعارك لم تربح بوساطة المخادعة ، وان بوساطة الذكاء والدهاء الفطري للقائد مقرونا بالمخادعة ، كثالوث سياسي وعسكري متعاون ، وفي هذه الحالة على القائد عليه أن يكون فكرة المنازلة ، وفكرة الخداع ، ومسالك العمل للمنازلة التي عليه أن يتعامل معها واقعيا ، للوصول الى الغاية ، عبر وصوله الى فلسفة الخصم الفكرية ، والتلاعب بها .

الفلسفة الفكرية للجانب المقابل ، تقع في قمة الهرم العسكري المطلوب ، كما ذهب الى ذلك ليدل هارت ، وعليه ، ولكي ننجح بالوصول الى قمة الهرم ، علينا ان نتسلق هذا الهرم ، مهما كان العناء ومهما كانت المشقة ، ومهما بلغنا من تعب ، لان هذه حالة غير اختيارية ، وتأخذ صفة الوجوب ، لان تسلقنا المضني سيقدم لنا المعرفة ، التي تتمكن بواسطتها من رصف بنيان المخادعة .

الطرح المذكور أعلاه قد يمثل حالة لا تتفق مع أفكار بعض الفلاسفة والمفكرين العسكريين ، الذين يرون النصر معمدا بالدم ، ويريدون الارض قديحا مقدسا للخصوم ومنهم كلاوزه فيتز ، كما وان الماركسيين يعتمدون الحرب الثورية التي لا تختلف عن الطرح العنيب لكلاوزه فيتز الا قليلا ، ومع ذلك فان مفاهيم القرن العشرين تبدو أقل عنفا ، والحروب أقصر زمنا ، عدا

حربنا العادلة مع ايران التي استمرت ثماني ســـنين ، أما من الجانب المقابل فسنجد ان الاسلحة أصبحت أكثر فتكا متمثلة بالذرة ، ولهذا فجاءت في هذا القرن فلسفات مثل «الردع» و «الانتقام المتبادل» لتضع حدا ، للكثير من الحروب .

الطروحـــات أعلاه مثلت التماسك الواضـــح بين السياســـة والفلسفة والعسكرية ، معمدة بالعنف في مداه الاقصى عند البعض ، ومداه الادنى عند البعض الاخر ، ويمثل المدى الاعلى في هذه المعادلة ، المفكرون العسكريون ، والفلاسفة الالمان مثل نيتشه ، وكلاوز ەفيتز ، ومولتكه ، أما من يمثلون المدى الادنى منهم ليدل هارت ، والمفكر العسكري البريطاني المعاصر «فوللر» ، ومع ذلك فهناك من المفكرين ، من يتجاوز السياسة ، واختصاصات الحرب والقانون والاخلاق[١٢] ، ويذهب عميقا في رؤية الفكر الذي يمثل أساس العلاقات الداخلية للفرد ذاته ، وبنظرة شاملة وبسيطة ، وهكذا ستكون الحرب استنباطا الى اللاشعور «اللبيدو» والذي نادى به «فرويد»[١٣] ، وعلى أساس أن العواطف المكبوتة قد تترجم الى أعمال حقيقية ، عند رفع الغطاء النفسي عنها ، وايجاد المناخ المناسب لتطبيقها ، وهنا يمكن للقائد أن يقوم بالمخادعة ولكن بطرق معقدة مستلهما أفـــكاره من اللاشعور ، كما ويمكن في الوقت نفسه أن يكون هناك قائد يقوم بالمخادعة ولكن بشكلها المبسط ومستلهما أيضا أفكـــاره من اللاشعور ... ومن هذا التحليل يمـــكن أن نلغي كل الفلسفات أعلاه مادام الانسان يستلهم كل الأشياء من اللاشعور .

مهما جاء به فرويد لتبرير الســـلوك الانساني فان المفكر والفيلسوف الفرنسي «جيبير» ، يعد أول من وضع يده على العلاقة المتكاملة بين العسكرية والفلسفة ، والسياسة ، وعلاقة هذه المفردات العميقة بالمخادعة ، عند أصر على أن الحرب فكرة تتعلق بالسياسة ، والفن ، والتشريع والاقتصاد ، الى آخر المفردات الحياتية المتداولة ، وهذا الامر يعد انجازاً جاداً قام بالبرهنة عليه عبر بعض الكراسات التي أصدرها في ذلك الوقت .

اذا أخذنا الموضوع من جانب آخر ، سنجد ان المخادعة جزء من عملية ستراتيجية واسعة النطاق ، لان الستراتيجية «السوق» تولد من رحم العقيدة، وعليه فان المخادعة ، تعد المعبر الشرعي عن السياسة ، ولذلك فهي ترتبط معها بصلة رحم لا يمكن أن تنفصم أبدا ، وهكذا يتجسد الثالوث العسكرية ـ الفلسفة ـ السياسة بصورة واضحة على أرض التطبيق العملي ، والذي يولد المخادعة ، والتي إذا ما جرى تطبيقها الفعلي سيتداولها الخصوم على انها مسلمات حقيقية ، وليست أسطورة خرافية غير قابلة للتصديق ، ومن الطبيعي جدا أن مسألة الحبك المتقن سيكون له القوس المعلى في النجاح ، وفي هذا الموضوع يقول جان غيتون :

«في النهاية ، فان التمييز بين الوسائل المقبولة ، والوسائل الممنوعة في الحرب ، واستخدام المفاجأة ، والخداع ، وخرق التعهدات ، كل هذا فلسفة ما وراء الطبيعة»(١٤) .

وهكذا فالمخادعة كفكرة كما جاء في النص السابق هو عمل فكري ميتافيزيقي قد لا تدركه حواس الانسان الاعتيادية ، وهو يبين قمة العلاقة بين الفلسفة من جانب ، وبين مفردات الحياة الاخرى من الجانب المقابل .. هذه الفلسفة التي يشكل الخداع ركنا أساسيا من أركانها .

الشكل الاخير للمخادعة قد يكون شكلا غير متعارف عليه عسكريا ، ولكنه ، بالتأكيد ، يشكل فكراً فلسفياً حقيقياً ، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الستراتيجية «السوق» على أساس انها عمل نابع من المباشر ليجسد على أرض الواقع بصورة فريقة تنطلي على الآخرين ، وبما أن هذا العمل قد لا يكون الا غملا هلاميا لا وجود له ، ولذلك فان المخادعة ، والحالة هذه ، يمكن عدها عملا يمكن تدوينه تحت فقرة «الميتاستراتيجي» أي ما وراء الاستراتيجية «ما وراء السوق» سيما وانه عمل مبطن قادر على الغاء القرار العسكري والسياسي للجانب الاخر لأنه يدخل الى رئتهم بشكل طبيعي مثل الهواء ، ومن

ثم يبدأ بفعله الغادر ، حيث تبدأ الحواس تشعر بعبثية الكون والوجود ، والوصول الى «حس اللحظة الحرجة» والتي تتساوى فيها الحقيقة والخيال ، الصدق ، والاكذوبة ، الموت والحياة ... الخ من مفردات وجودية كانت سائدة عقب الحرب العالمية الثانية في المجتمع الغربي ، وخصوصا بين صفوف الشباب ، والجنود المسرحين ، ولذلك أثرت هذه الموجة الفلسفية الشرسة على العقول والتي أثرت بدورها في السياسة والعسكرية بشكل عارم كان من نتائجها ضحالة الاداء القتالي والفكري العسكري في الحرب الفيتنامية الاولى والثانية ، حيث أن الاولى كانت تدور بين الثوار الفيتناميين والجانب الفرنسي، والتي انتهت بسقوط قلعة «ديان بيان فو» الفرنسية ، أما الثانية فقد دارت بين الولايات المتحدة الامريكية والثوار أنفسهم فضلا عن فيتنام الشمالية .

مما مضى نجد كيف أن ما دعى اليه الفيلسوفان الفرنسيان الوجوديان «جان بول سارتر» و «البير كامو» كان له تأثير صارخ على عقول الافراد ، مخلا بموازين العمل العسكري الى أبعد الحدود ، بعدما أخل بالميزان الفكري الذي تشرب بعبثية التفكير ، وانزواء الذات في حالة عديمة مستهينة تنهل من مأساة الوهم ، والذات الانسانية التي حطمتها الحرب، والسياسة، والاقتصاد، وهكذا ولدت فلسفة حديثة رخوة لا تؤمن بالعنف في الحرب ، أو بالليل ، لانها لا تؤمن بالحرب أساسا ، وانها كرست نفسها للعبث ، واستلهام ما وراء الطبيعة ، وهي لذلك تتقاطع مع الفلسفة النتشوية التي تؤمن بالعنف والقوة ، والتي زادها المفكر والفيلسوف العسكري الايطالي «دوهية» بعداً مضافاً بعد أن عمد عن قصــد بأن يشمل هذا العنف والخديعة لا الأجهـزة العسكرية فحسب ، وانما المدنيين أيضاً ، وجميع أجزاء الدولة المتحاربة ، وهذا بحـد ذاته يعتبر خروجا عن المألوف والقوانين الانسانية المرعية .

ان تجاوز فلسفة الحرب الى السكان المدنيين ليكونوا قرابين في مذبح الحرب لن يؤدي زمنا ومكانا الحصول على النصر برقم قياسي ، وقد أعطتنا

الحرب الفيتنامية الثانية مثلا رائعا في عدم امكانية الحسم في الحرب بالتعرض على السكان المدنيين وقصفهم ، حيث كانت تتعـــرض عاصمة فيتنام الشمالية «هانوي» يوميا الى هجمات مكثفة من سلاح الجو العملاق التابع للولايات المتحدة الامريكية ، وعبر طائراتهم القاصـــفة الثقيلة المسماة (بي ٥٢) ، وقد برهن القرار السياسي الذي دعا الى قصف المدنيين في فيتنام على بطلانه •

بعد هذا العرض تتوضح لنا معالم الفلسفات التي تقترن بالحرب ، والتي تعد النتشوية من أعنفها ، والتي يحبذ الفكري السياسي في الوقت الحاضر تحاشيها ، ومع ذلك فمن الخطأ أن تستبعد اللجوء اليها في المستقبل ، لاننا اذا وقعنا في أسر فكرة معينة فاننا سنكبل أفكارنا ، ولذلك يجب أن تتفاعل مع الظروف الاتيـــة السائدة ، وعلينا أن لا نتكر أن من الممكن أن يلجـــأ اليها «سياسيون/عسكريون» متأثرون بمواقف معينة ، وعلى أساس أن الحرب هي ظاهرة اجتماعية تعني الجميع ، ولا يمكن الفصل فيها بين الجندي المقاتل في ميدان المعركة والافراد الذين يدعمون هذا الجندي من الخلف ويوفرون له أفضل الفرص للنصر ، وعليه فان الاستنتاج هو أن ضرب المدنيين في أي حرب مقبلة ، وكما دعا اليه « دوهيه » يعد أمراً وارداً يجب أنلا نستبعده ، وأن نتهيأ له منذ وقت السلم ، وأخيرا وفي نهاية هذا الفصل سنقتبس حوارا بين الجنرال الفرنسي «دولا شابيل» و «جان غيتون» ، يبين عمق العلاقة بين الفلسفة والسياسة ، والعسكرية ، والحرب ، بما فيها من مخادعة ، والمقتبس عن جان غيتون نفسه والذي ينص على مايأتي :

«استدعاني الجنرال دولا شابيل وقال لي : «الان سأطلب منك عملا آخر ان كل استراتيجية تحتم وجود فلسفة كامنة ، لقد تأمل كلاوزه فيتز حملات نابليون ، كما تأملها جوميتي «مفكر عسكري» لكنه ذهب أبعد من جوميتي ، لأن كلاوزه فيتز كان مشبعاً بفلسفة ما وراء الطبيعة ، فقد قرأ «كانت» وهو فيلسوف شهير ، كما قرأ هيغل بصورة خاصة •• وأضاف دولا شابيل قائلا :

«ودون أن يكون لدي فكرة متميزة ، فاني أعتقد باننا سنجد في تكوين فوش وهو قائد فرنسي شهير والهامه بصـــمات الفلسفة الفرنسية كما ظهرت لدى «ديكارت» و «باسكال» و «برغسون» ، واني أقول لك هذا لاوضح لك ما سأطلبه منك ، اننا لا نستطيع أن نعرف خصمنا المحتمل ، ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد به ، ان خصمنا يستمد فلسفة كارل ماركس ، وقد استمد كارل ماركس فلسفته من هيغل ... اذن فالمطلوب منك فلسفة هذه المسألة التي أطرحها عليك ، وبصفتك مؤرخا للفلسفة ، فلابد أنك أشبعت هيغل درسا ، وكشفت كل فلسفته ، فأنت تعرف نموذج تفكيره ، ومسلماته ، وطرائقه ... اني أطلب منك أن تشرح كيف يؤثر التفكير الهيغلي والماركسي على مبادىء الحرب الحديثة وأساليبها»(١٥) .

مما مر أعلاه وجدنا كيف أن الفكر الفلسفي يؤثر في السياسة والحرب ، وهذا التأثـــير سيقوم برسم النهج المقبل الذي ستكون المخادعـــة على رأس قائمته .

الهوامش :

(١) العقيد الدكتور طلال عامر المهنا ـ التاريخ العسكري من ٤٧٠ق م ـ ١٩٤٥ دار اقرأ ـ بيروت لبنان ص٦٣٦ • لم يذكر الطبعة •

(٢) اللواء الركن حارث لطفي الوفي ـ مبادىء الحرب ـ سلسلة بحوث عسكرية الرقم «٤٧» وزارة الدفاع العراقية • دائــرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ الطبعة الاولى ١٩٨٥ ص٢٤٨ •

(٣) الجنرال ستروكوف ، تاريخ فن الحرب ، الجزء الاول ـ ترجمة العميد الركن صباح الدين الاتاسي ـ دمشق ـ الطبعة الاولى ١٩٦٨ ـ ص١٧٢ـ١٨٩ •

(٣) أ ـ صدام حسين ، نظرة في خصائص القيادة الناجحة • دار الحرية بغداد • الطبعة الاولى • يؤكد فيه على ما ذهبنا اليه •

(٤) الفيلد مارشال مونتغمري ـ الحرب عبر التأريخ ـ تعريب وتعليق فتحي عبدالله النمر ـ المكتبة الانجلو ـ المصرية ـ القاهرة ـ مصر ص ٤٨٩ • لم يذكر الطبعة •

(٥) ستروكوف ـ تأريخ فن الحرب ـ مصدر سابق ص٢١٦ •

(٦) الحصار ومسيرة الاهوال ـ كتاب مترجم من قبل العقيد المتقاعد رشيد صالح العزاوي ، سلسلة الثقافة العسكرية الرقم «١٠٦» الصادر عن وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ الطبعة الاولى تشرين الاول ١٩٨٦ ص٦٤ ، يقول النص بها : «لم تكن الخلق وخشونة الطبع الخلل الوحيد ، لخريجي معهد «الدرشــــوت» العسكري ، فهم لا يقرأون الكتب كذلك ، وهم يحتقرون الشعر ، مالم يكن من نظم «كيلنغ» ، كما أنهم كانوا يرتاحون الى اللغة الاوردية أكثر بكثــــير من ارتياحهم الى لغة شكسبير وهومر •

(٧) مونتغمري ـ الحرب عبر التاريخ ـ مصدر سابق ص٣٧٧ •

(٨) المصدر أعلاه ص٣٨٤ •

(٩) ليدل هارت ـ الاستراتيجية وتأريخها في العالم ـ ترجمة هيثم الايوبي ـ منشورات دار الطليعة ـ ط١ بيروت ـ لبنان ص٣٣ •

(١٠) جان غيتون ـ الفكر والحرب ـ ترجمة المقدم الهيثم الايوبي ، وأكرم ديري ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص٧ •

(١١) المصدر أعلاه ص٨ •

(١٢) المصدر أعلاه ص٩ •

(١٣) عدنان خلف النداوي ـ مصطلحات أساسية في علم النفس ـ سلسلة بحوث عسكرية الرقم «٦٧» ـ وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ الطبعة الاولى ت١ ١٩٨٦ ص٤٩ •

(١٤) جان غيتون ـ الفكر والحرب ـ مصدر سابق ص١١ •

(١٥) المصدر أعلاه ص١٥ •

معركة قادش

المخادعة الساذجة الناجحة

عـــام

ان الحديث عن معركة «قادش» يعد حديثا ذا شجون ، لكونها معركة نموذجية للمخادعة موغلة في عروق التاريخ في قدم حدوثها ، وقد أستخدمت فيها عناصر المخادعة بكاملها ، حيث أستخدمت أولا كأقوال موحية لحدث معين ، روجت على شفاه المقاتلين كما رافقها استخدام الفعل العسكري المخادع ثانيا ، فضلا عن أنهـــا استخدمت البيئة والمناورة في سبيل نجاحهـــا ، والتي سنأتي على تفاصيلها في المواد القادمة برؤيا مكثفة ، ولهذا الغرض ، سنعطي أولا الابعاد المكانية ، والزمانية لهذه المعركة ، ومن ثم نقول بتأشير العمليات .

معركة المخادعة هذه ، جرت في العام (١٢٨٨)[١] قبل الميلاد بين جيشين يمثلان نظامين مختلفين ، هما الحيثيون ، والفراعنة .

قادش مدينة من مدن ســـوريا القديمة ، وهي تعد المسرح العملياتي للقتال بين جيوش الفرعون رمسيس الثاني ، وجيوش الحيثيين ، والتي انتهت كمعركة بابرام اتفاق بين الدولتين المتجاورتين ضد خصم لم يعرف تاريخيا ، ولكن تشير بعض المصادر الى أن هـــذا الجلف كان موجها الى الإشوريين الأشداء في الشرق[٢] .

جاءت هذه المعركة عندما تمكن الحيثيون باسترداد ، كل ما حصل عليه الفرعون منهم سابقا «تحتمس الثالث» في سوريا الشمالية ، حيث قام بعد ذلك «سيتي الاول» وهو والد «رمسيس» بقتال الحيثيين مما دفع ابنه رمسيس الثاني بتجهيز جيوش قوية لاسترداد ، ما فقده أسلافه .

معركة قادش ، تعد آخر عمليات قتالية بين الحيثيين والفراعنة ، ولم تذكر كتب تلك المرحلة ان قتالا اخر جرى بين الحيثيين ، وان جل ما تذكره تلك الكتب أن رمسيس الثاني قد قام بالزواج من أميرة حيثية ، وهذا العمل يعد عربونا للصداقة في تلك العصور ، اذ انه يعني ، ان الدماء قد اختلطت ، وان أواصر القربى قد عقدت ، وقد ظلت هذه العادة الملكية سائدة حتى وقت متقدم من هذا القرن ، حيث كان يلجأ حكام وملوك أوربا في القرون الماضية الى الزواج من ملكات وأميرات الدول الاخرى ، وبهذا العمل ، يمكن أن تخفف التوترات الموجودة على الساحة ، وعلى أية حال ، فان الفراعنة والحيثيين لم تكن لهم تلك العلاقة ، بالعسكرية التقليدية المكتوبة والمتداولة ، ولكن كان لهم الوعي العسكري الفطري ، الذي يظهر جليا في مفردات وحلقات هذه المعركة ، كما تظهر لنا هذه المعركة ، سلامة التنظيم وتوزيع وانفتاح القطعات كما تشير لنا المصادر المتيسرة لدينا في الوقت الحاضر .

ان كل جانب منهما كانت له القدرة الذاتية على الابداع العسكري ،رغم تباين ظروف المعركة ، وتبدل معطياتها بين ساعة وأخرى ، كما وتكشف لنا هذه المعركة ، عن كيفية اسناد الجنود في الامام اسنادا اداريا متينا بعصر لم تكن به هناك عجلة أو طائرة ، وإنما كل وسائط النقل كانت لا تعدو أكثر من حيوانات نقلية بسيطة ، ومن الجدير بالذكر ، ان هذه المعركة العظيمة لم تدون بالشكل الذي يعطي لنا تفاصيل كثيرة ، وان مجمل ما وصل منها للعصر الحاضر ، هو فكرة المعركة والمخادعة لقوات الطرفين .

مما لا شك فيه أن القادة العسكريين الذين جاؤوا بعد هذه المعركة حتى يومنا الحاضر ، قد استفادوا من بعض مفرداتها الجذرية ، ومن المؤكد مهما

كانت معطيات هذه المعركة هو افتقارها الى وجود الاساليب القتالية الناضجة، ومفرداتها التي اتبعها كل من القائدين ، والتي كانت ستغني التاريخ العسكري العالمي ، لو دونت بشكل دقيق مستفيض ، بيد أن الاشارات الكثيرة الى هذه المعركة والنصر فيها قد سجل ، ولكن بومضات شاحبة لا تمثل كل التفاصيل، وربما كان الدخول في تدوين التفاصيل يعد عملية متعبة ، لان تفاصيل معركة بهذا الحجم يحتاج الى الكثير من الجهد •

التهيؤ للمعركة :

في عهد سيتى الامبراطور الفرعوني ، وبعدما استتبت الامور ، سادت الامبراطورية المصرية مدة هدوء ، مع خدر عميق والنوم المنتشي على أحلام الانتصارات السابقة ، وهذا ما جعل الحيثيين يعملون بدون كلل أو ملل •• والتهيؤ الى جولة قادمة مع المصريين ، ولهذا ، بدأوا أول ما بدأوا ، بتشكيل جيش قوي مدرب ، غايته الاولى والاخيرة ، أن يصبح متفوقا على الجيش المصري ، وقد عهدوا بهذه المهمة الى القائد «موتاللو» ، وهنا علينا أن لا نظن أن المصريين قد ناموا الى الابد ، تحت النشوة الطاغية لتلك الانتصارات بصورة كلية ، اذ أن رمسيس الثاني ، وبعد برهة وجيزة أصبح حاكما لمصر ، فبدأ هو الاخر تقوية جيشه الى المدى الذي يمكنـــه من مقارعة الخصوم ، المتمثلين بالحيثيين ، وقد تم له ما أراد ، وأصبح جيشه في العام ١٢٨٨ قبل الميلاد يضارع جيش الحيثيين ، علما أن الجيش المصري ، كان يركز في قتاله على عمل الكمائن بوساطة المخادعة المتقنة ، علاوة على تفضيله القتال بالمناطـق المفتوحة ، التي تشابه بيئة مصر والسودان ، كما كانوا يعتمدون على القوات الخفيفة الحركة المدربة تدريباً جيداً على الصبر ، والجلد ، والمكابدة ، والمهارة ، ومن الجدير بالذكر أن جيش المصريين كان يضم في صفوفه ، بعض المرتزقة ، وهو شأن الجيوش في تلك الحقب من الزمن ، وصولاً الى وقتنا الحاضر ، مع تقلص حجمهم الان •

كانت مدينة قادش تقع على نهر العاصي في سوريا ، الذي ينساب من الشمال الى الجنوب ، عبر بحيرة حمص ، وكانت المدينة المذكورة ، كأي مدينة قديمة أخـــرى تحتوي على بيوت متفرقة ، يسكنها الجند ، مثلمـــا تسكنها العوائل المدنية •

نهر العاصي يعد نهرا غير عميق وواسع ، ويمكن عبوره من عدة أماكن ، بتجهيزات عبور بسيطة ، وعلى أية حـــال ، كانت مدينة قادش تطل على سهل فسيح ، ويحيط بهذا السهل بعض الاراضي المتمـــوجة ، كما كانت المنطقة عموما ، مشتجرة ، تساعد على التموية والاختفاء في بعض أقسامها •

نهر العاصي ، وقبل قادش بقليل يتفـــرع منه نهر صغير يذهب باتجاه الجنوب الغربي ، أما عند قرية «شاباتانو» والتي تقع بما يربو على عدد من الأميال جنوب مدينة قادش ، فان النهـــر المذكور يبدل مجراه الى الجنوب الغربي ، لذلك يصبح لزاما على الجيوش التي تريد الوصول الى قادش ، عبور النهر من أي منطقة قبل قادش ، اذ ان عبوره من أمام مدينة قادش كان يمكن أن يعرض المهاجمين الى مخاطر جمة ، وخسائر مذكورة يمكن أن يوقعها بهم المدافع •

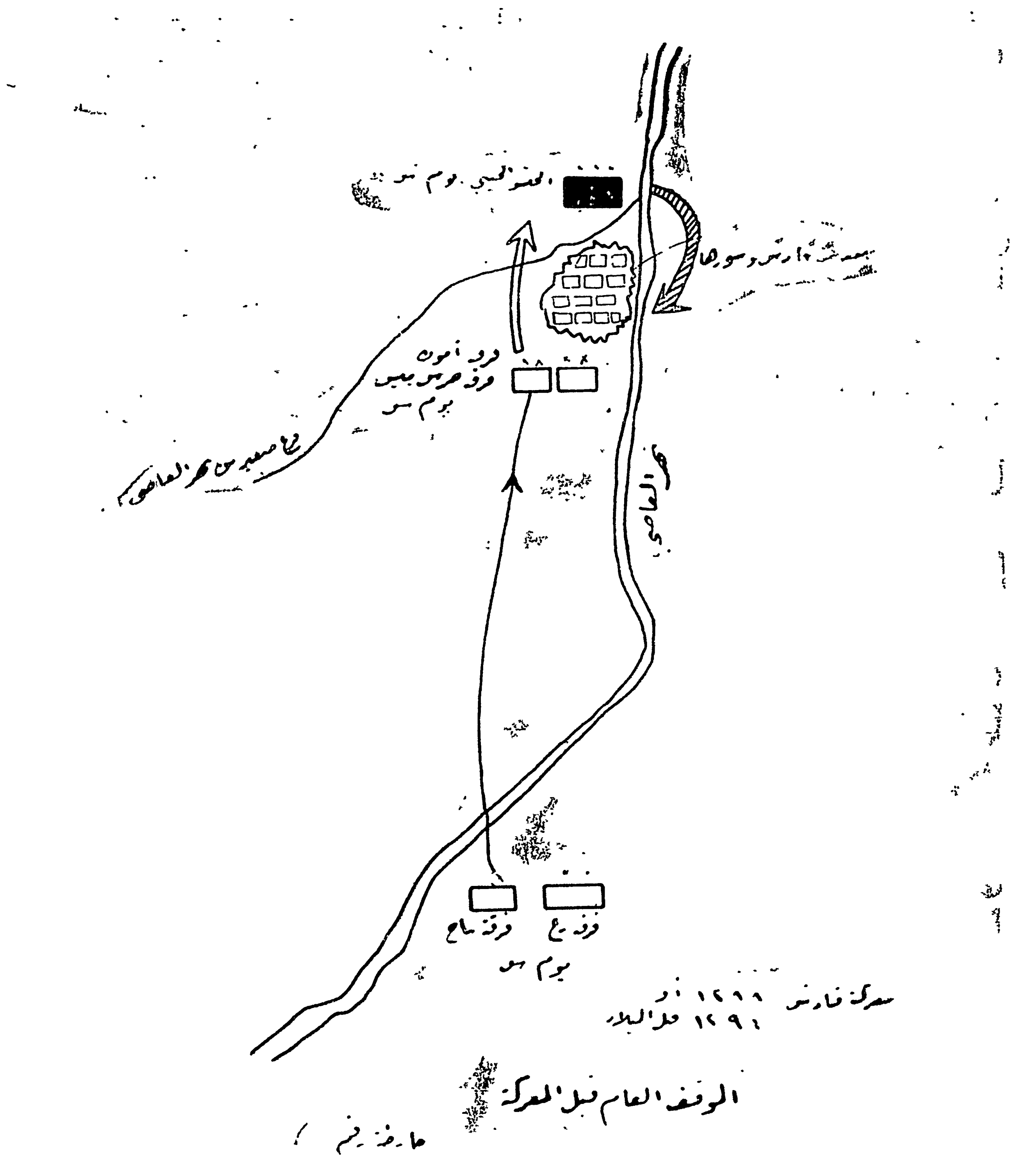
قوات الطرفين

لا يمكن على وجه التحديد اعطـــاء رقم صحيح حول القوة العددية للطرفين حيث لم تكن في تلك العصور المبكـــرة ، الكثافة السكانية ، تسمح باحتواء جيوش كبيرة جدا ، ومع ذلـــك فان بعض المصادر تقول ان جيش الجيشين يتكون من سبعة آلاف فرد ، وبعضهم يزيد على هذا الرقم بكثير حتى يصل الى أربعة عشر ألف فرد •

مهما كانت الاحوال السائدة في تلك المرحلة ، اذا ما قمنا بقياسها بالمراحل اللاحقة ، والتي تلتها بزمن طويل ، والمتمثلة بالحروب المقدونية ، فسنجد أن

الجيوش كانت لماتزل لا تتجاوز المائة ألف مقاتل ، أو الستين ألف مقاتل ، ولذلك فيمكن تخمين القوات في تلك الفترة المبكرة بعشرة آلاف ، وهذا الرقم يخضع الى الكثير من عوامل المناقشة ولكن يعد أقرب الى الصواب منه للخطأ حسب المعطيات التي ذكرناها سابقا(٤٢أ) .

اذا عدنا الى المعسكر المصري ، سنجد من الثابت أن جيش الملك المصري رمسيس ، كان يتكون من أربع فرق ، وهي فرقة «حرس رمسيس» ، وفرقة «آمون» ، وفرقة «رع» وفرقة «بتاح» ، فضلا عن قوات «ناران» ، وهي قوات كنعانية متحالفة مع الملك رمسيس ، وقد أخذت اسمها من اسم قائدها الكنعاني «ناران» .



المجموع العامل للقوات المصرية والحالة هذه كانت وعلى وجه العموم المقترب من الخصوص تعـادل خمس فرق ، فاذا ما أخذنا النظام السائد في

الجيش المصري ، وحللناه ، سنجد ان العـــدد يقترب من الحقيقة ، ولكنه لا يمثلها بصورة كلية .

جميع الوثائق والادلة ، تشير ، وبما لا يقبل الشك ، أن هذه الجيوش ، كانت تستخدم أسلحة مختلفة ، فالجيش المصري ، كان يستخدم «البلطة» كسلاح ، ومع ذلك فان استخدامها كسلاح في هذه المعركة يعد قليلا ، لانها لم تكن سلاحا فعالا ، أمام أسلحة جيدة مثل السيف ، الذي يمكن عده سلاح المعركة المؤثر ، والذي كان يستخدمه الملك رمسيس شخصيا ، والتي تدل الاثار الشاخصة حتى الان على أن كان سيفا طويلا وعريضا في الوقت نفسه ، علما بأن هنـــاك سيوفا قصيرة أقرب منها «للخنجر المتوســط» من السيف الطويل ، ومع كل هذه الاسلحة فان السلاح الرئيس الفعال كان هو الرمح ، لانه أكثر فعالية في الاشتباك ، وبالامكان تصنيعه بصورة بسيطة ، هذا فضلا عن «النبال» البسيطة الصنع .

المصريون عموما كانوا ذوي بصـــيرة ثاقبة ، فهم فضلا عما ذكر أعلاه كانوا يفضلون استخدام حاملي النبال بالعربات الحربية ، بغية اعطائها قابلية حركة كبيرة ، ومع كل ذلك ، فان هذه الاسلحة كانت أسلحة عصرها ، وهي بسيطة اذا ما قورنت بالاسلحة التي جاءت في العصر الاوربي الوسيط والذي حدثت به ثورة «البارود» .

مع كل ما تقدم يمكن أن نستنتج استنتاجا مهما هو أن هذه الاسلحة البسيطة كان الهدف منها اعطاء الجيش المصري قابلية حركة عالية ، وخفة في التنقل ، ولهذه الاسباب ، واذا ما زاوجنا هذا الامر مع عدم وجود اسناد اداري كالذي يجري في الوقت الحاضر ، لبساطة الحياة حينذاك ، يمكن أن نقدر الفرقـــة المصرية ، بأربعة آلاف جندي ، وبذلك يمكن أن لا يتجـــاوز الجيش المصري في تلك المعركة (١٥-٢٠) ألف جندي .

٥

النقطة الاخرى في تقدير قوات الطرفين تكمن في مدينة قادش نفسها ، اذ أن هذه المدينة كانت مدينة محصنة يمكن الدفاع عنها ، ومع ذلك فاذا ما نظرنا الى عصرها سنجد أن مدناً مثلها لا يمكن أن تستوعب جيشاً بالعدد الذي ذكرناه ، لان السكان المدنيين لا يمكن اغفاله ، ولهذا فان الرقم المعتمد هو أقرب الى الواقع في أقل تقدير ، علما أن العوائل في تلك الحقبة من الزمن كانت تسكن في بيوت فسيحة ، لانها كانت تسكن جنبا الى جنب مع حيواناتها المهجنة .

عبر مقارنة بسيطة بين الجيشين ، وكما حللناه سابقا ، تبين لنا ، أن جيش الملك رمسيس يبلغ ضعفي الجيش الحيثي ، وهذا فضلا عن مؤشرات أخرى تتمثل من أن الدولة الحيثية كانت أصغر من الدولة المصرية ، ولذلك وانها لو كانت متفوقة عدديا بدرجة كبيرة في ذلك العصر لكان من الصعوبة أن يتفوق المصريون بتلك السهولة .

الخطة الحيثية

الخطة الحيثية لم تلجأ الى الدفاع الساكن «المستكن» داخل أسوار مدينة قادش(٣) ، وهذا يعني بأبسط المفاهيم العسكرية عدم قبول الحيثيين الحصار في هذه المدينة ، وما لهذا الحصار من ويلات يمكن أن يقاسي منها قطنة المدينة، ولأمد طويل، وكذلك طبقوا فكرة «الهجوم خير وسيلة للدفاع» والتي مازالت السائدة حتى الان .

من خلال المعطيات أعلاه كان على القائد الحيثي «موتاللو» أن يخرج بقسم متوازن من جيشه من المدينة ، لتكون لديه فسحة أرض كافية للمناورة، بغية القيام بالهجوم المنتخب الذي يلائم وضع قواته ، وبالفعل ، ترك القائد الحيثي المدينة ، وتوجه الى شمالها ، بحيث جعلها تحجب تحركاته تجاه أي جيش يقدم من الجنوب ، وهو المسلك الذي كان متوقعاً ، حيث أن رمسيس الثاني ، عندما يتقدم من مصر عليه أن يسير شمالاً بغية الوصول الى قادش .

لم يكن رمسيس الثاني متصورا عندما تقدم نحو الحيثيين أن قسما من القوات الجيشية قد تركت المدينة ، حيث كان الاسلوب المتعارف عليه انذاك أن يلتقي الجيشان وجها لوجه ، وبعدها تبدأ عمليات المخادعة والمناورة ، فضلا عن أسلوب قبول الحصار في قلعة معينة أو مدينة مسورة تحت حماية الجنود الذين يستخدمون النار والحجارة والنبال .

الخطوة الثانية في خطة القائد الحيثي كانت تتمثل في حركته من شمال مدينة قادش ، وعبور نهر العاصي نحو الجهة الشرقية ، بحيث سيفقد له كل أثر ، اذا ما تقـــدمت جيوش رمسيس الى الشمال من أجل تطـــويق المدينة ، وبوساطة هذه الحركة تمكن القائد الحيثي الماكر أن يخفي تحركاته ،حيث أن ما قام به يعد مناورة عملياتية بأرقى مستوى .

ان أحكام الحصار على المدينة من قبل رمسيس يعني توزيع قواته ، أو معظمها على وجه التحديد باتجاهات مختلفة ، بحيث ستكون واهنة في كل النقاط بالنسبة للمهاجم من خارج المدينة ، وقد تمكن القائد الحيثي بهذا العمل أيضا من تجزئة القوة المصرية ، ومن ثم تصفيتها الواحدة تلو الاخرى ، بعد أن يكون قد فرقها الى شراذم صغيرة ، وهذه الخطة اختزلت ، أو بالاخرى اختصرت عامل القوة العددية المصرية ، مـــع عدم اغفال ابقاء بعض القوات الحيثية البسيطة داخل المدينة ، لتكون قاعدة يمكن اللجوء اليها في الحالات الحرجة ، وللقتال دفاعـــا عن المدينة ، اذا ما كان هناك خرق يذكـــر ، وبهذا الوضع ، كان على رمسيس أن يجزئ قواته ، فهو عليه أن يفرز قسما من هذه القوات لتطـــويق وحصار المدينة وقسما اخـر لاعمال القتال الاعتيـــادية ، وكاحتياطات .

ان الحركة المخطط لها ثانيا كانت تشمل على عبور نهر العاصي نحو الجهة الشرقية ، وهذا يعني بمفردة عسكرية بسيطة أن القائد الحيثي يتمكن أن يقوم بمهاجمة القوات المصرية القادمة من الجنوب ، وهي في حالة حركة ، ومن

أي منطقة تلائم الموقف التعبوي ، وهو بهذا العمل أيضا سيتمكن من تجزئة قوة رمسيس ثلاثة أجزاء ، فالجزء الاول سيقوم بمناوشات عند سور المدينة ، أما الجزء الثاني فسيكون في شمال المدينة ، والجزء الثالث سيكون مقطوعا في الجنوب ، وبذلك ستنعزل القوات بعضها عن البعض الاخر •

النقطة الاخرى التي تكمن في الخطة الحيثية تتمثل في أن مدينة قادش بعد عملية عبور الجيش الحيثي النهر غرب القوات ، وهكذا ستحجب المدينة المذكورة مرة أخرى حركات الجيش الحيثي ، بحيث ستكون عازلا بينه وبين قوات رمسيس ، فضلا عن أنها ستكون في راحة تامة بينما ستكون الجيوش المصرية في حالة انهاك قاس جراء مسيرها من مصر نحو قادش لمسافة طويلة جدا ، وهذا يعني ، أن القائد الحيثي قد فكر عندما وضع الخطة بأن الجيوش المصرية التعبة زائدا امكانية المباغتة والخداع يمكن أن يقضي على تلك الجيوش بسهولة ، وبهذا يتمكن أن يعزز من امكانياته في استئصال عامل التفوق العددي ، والتي ذكرناها سابقا ، والمتمثلة بأربع فرق متعاقبة الحركة ، يجري تكاملها بالقرب من قادش لخوض المعركة •

أن القائد الحيثي فضلا عن الامور السابقة قد أمن مبتغاه الاداري ، حيث ان الجانب الشرقي من مدينة قادش سيبقى مفتوحا ، ويمكن أن يعتمد عليه اداريا ، لان المدينة كانت تقع في جانبها الشرقي على نهر العاصي ، وهذا يعني بمفردات القاموس العسكري أن جناحها الشرقي يستند الى مانع مائي يدرأ الخطر عنها ويقدم لها خدمات ادارية جليلة ، أهمها امكانية تموينها بالماء بصورة دائمية ، وهو العنصر الاهم لادامة الحياة ، ولذلك فان من يريد محاصرتها كليا عليه أن يقوم بعبور النهر ، وتطويقها من كل جانب ، وهذا كان يعد عملا جسيما وصعبا في تلك العصور •

الخديعة الحيثية الساذجة

بغية اكمال المخطط العسكري المطلوب ، قام القائد الحيثي «موتاللو» بارسال جنديين ، قام بتلقينهما بصورة جيدة بما يبتغي للمخادعة ، ومجمل

التلقين ينص على أن الجيش الحيثي لا ينوي القتال ، وانه تراجع شمالا ، وترك مدينة قادش ، وربما وصل الى منطقة حمص «حمص الحالية الواقعة في سوريا» أو حتى «حلب» في أقصى شمال سوريا خوفا من البطش الفرعوني ، وان مدينة قادش ليس بها سوى قوة بسيطة ، وبعض السكان المدنيين القلائل ، وعليه فان الجيش المصري إذا ما أراد أن يستأصل جذور الجيش الحيثي ومن ثم القضاء على شوكة الحيثيين المحرقة ، ومن بعدها اخضاعهم أن يتقدم باتجاه الشمال لملاقاتهم بمعركة تاريخية فاصلة •

لقد أطلق « موتاللو » هذين الجنديين باتجاه الجنوب ليقصا هذه الاكذوبة المرجحة على الجيش المصري ، وعلى أساس انهما جنديان قد فرا من المعسكر الحيثي ، ولا ينويان القتال ، وانهما يريدان أن يلجا الى الجيش المصري ، وانهما سيضعان خدمتهما في متناوله •

لقد وصمنا المخادعة التي قام بها القائد الحيثي على انها مخادعة ساذجة وذلك لعدة أسباب جوهرية هي :

١ ـ ان القائد المصري لم يحاول معرفة الخداع ، حيث انه لم يمحص الاخبار ولم تكن لديه القابلية على استنطاق الجنديين استنطاقا منطقيا ، بحيث يتمكن من التعرف على كامل الحقيقة ، وانما أخذ الامور على انها واقعية، ولذلك وقع في هوة جهالة عميقة ، كما سنبينه من سير المعركة •

٢ ـ ان قائدا عظيما مدركا مثل رمسيس ، ربما وقع في فخ الخطابية التمثيلية التي قام بها الجنديان الحيثيان ، اللذان ربما كان لديهما قوة اقناع عالية ، مع حركات مسرحية انطلت على رمسيس الملك ، وهنا كان على رمسيس أن لا يتخذ موقفا يعتمد كليا على معلومات الجنديين المذكورين•

٣ ـ ان قائدا كرمسيس ، كان عليه أن لا يتقدم شمالا بصورة مجزأة بحيث يصبح في شمال المدينة ، وانما كان عليه أن ينتظر بقية قواته ، لتتكامل

في منطقة تحشد معينة ، على أن تكون قبل المدينة ، ومن ثم القيام بالحركة شمالا ، وذلك من باب التحفظ ، والاحتياط ، مع عدم الاعتماد المفرط على معلومات كاذبة .

٤ ـ النقطة الأخيرة تكمن في أن رمسيس في تصديقه لهذه المعلومات الكاذبة لم يقم باستشارة قادته الذين كانوا يعقبونه من الجنوب الى الشمال ، حيث اتخذ القرار بمفرده ، أو بمعاونة قائد أو قائدين ممن كانوا بمعيته ، ولم يستشر القادة الذين كانوا يعقبونه .

الخطة المصرية

الخطة المصرية لم تكن خطة متكاملة ، وانما كانت خطة تعتمد أساسا على الوصول الى قوات العدو وتدميرها ، وهذا الامر سيكون أقرب الى تعبير «الهجوم التصادفي» ، وعلى أية حال ، فان هذا السياق كان سائدا في تلك العصور ، حيث كانت الامور لا تعدو على الحصار الطويل ، لاسوار المدن ومن ثم اقتحامها ، أو تسليم المدينة بعد نفاد مؤنتها ، بوساطة تدمير قواته في ساحة المعركة .

كان رمسيس لايلوي على شيء سوى أن يقوم بتدمير الحيثيين ، وبأي ثمن كان ، كما انه ضمن تقديره للموقف ، كان مستخفا بعدوه ، ولذلك كان مسيره مسيرا متسارعا بغية الوصول اليـــه بأقرب مدة زمنية ، لمحاصرتهم في المدينة ، ومن ثم ابادتهم ، أما بعد أن أخبره الجنديان بان الجيش الحيثي سار شمالا ، فعدل خطته ، ليقوم بمطاردة الجيش المذكور ، ومن ثم الالتحام معه وتدميره ، اثر معركة حاسمة ، يمكن أن تؤدي الى اعادة السيطرة المصرية على سوريا القديمة . اعتمدت الخطة المصرية على قوات احتياطية ، وهي قوات «ناران» الكنعانية ، التي يمكن أن تشكل زخما مضافا الى قواته ، سواء خلال المعركة ، أو عند تخلخل التوازن الاساسي للقوات المصرية .

كل الامـــور والاحداث كانت تدل على أن رمسيس كان يـــرقص على ايقاعات مُلتاللو ، عبر تصديقه للقصة الخرافية التي رواها الجنديان ، وهكذا يمكن الاستنتاج بأن الملك المصري رمسيس لم تكن لديه خطة واضحة في معالجة الأمور ، وإنما كان يفكر فقط بفرقه الاربع التي بامكانها تغطية كـــل أسوار مدينة قادش ودكها وتدميرها ، وعلى أساس تقسيم المدينة على أربعة قواطع ، كل قاطـــع يعهد به الى فرقة متكاملة تتمكن أن تحكم الحصـــار في قاطعها ، وصولا الى النتيجة النهائية ، والمتمثلة في اضعاف الدفاعات المقابلة ، واقتحامها بعد ايجاد الثغرة التي تتمكن بوساطتها النفاذ الى داخل المدينة وإبادة الجيش المعادي .

الخطة المصرية وفق المنظور أعلاه كانت خطة متحمسة ، ومتفائلة ، وتقدر الامور على أسس تم اختبارها سابقا ، وهي أن الامبراطورية المصرية ، وبهذا العدد الكبير من الجيوش يمكن أن تسحق أي قوة تجابهها ، ومن الطبيعي ان هذه التقديرات جاءت من خلال مواقف سابقة ، إلا انها لم تراع الظـــروف الموضوعية السائدة ، لان لكل زمان ظروفه الخاصة .

كان الملك المصري خلال وضعه للخطـــة يتحدد باسلوب عمل واحـــد ، ولذلك لجأ الى مسلك واحد ، ومع كل ذلك فان العسكريين عبر جميع العصور لايقعون في مثل سوء التقدير هذا ، وانما يحاولون دائما معرفة جميع مسالك العمل المتاحة ، وهم يؤمنون بأن مسالك العمل المتاحة والمعروفة يمكن أن يوجد بجانبها مسلك عمل آخـــــر يمكن للعدو أن يقوم باتباعه ، وقد كتب «بليبوس» المؤرخ اليوناني الذي جاء بعـــد هذه المعركة وفي المدة ما بين (٢٠٦ـ١٢٠) قبل الميلاد : «ستجدون عند تقدير موقف العدو أن أمامه ثلاث طرق مفتوحة سوف يستخدم احداها ، ولكن عند القتال الفعلي سيفاجئكم باستخدام طريقة رابحة»(٤) .

سير المعركة الحقيقي

غادر رمسيس الاراضي المصرية في أحد أيام ربيع العام ١٢٨٨ أو ١٢٩٤ قبل الميلاد ، حسب ما تذكره المصادر وقد أراد أن يقوم بهذه الغزوة في هذا الوقت بالذات ، لان الجو سيكون جيدا ، ومواكبا لاجراء حركات كبيرة ، خلافا للشتاء والصيف ، وقد درجت على هذه العادة معظم الجيوش ، الا في بعض الحالات الاستثنائية ، هذا فضلا عن ان هذا التوقيت يعد ملائما للجيش المصري التي تسود مناخ دولته الحرارة ، ولذلك فكان يمكن أن يلاقي هذا الجيش بعض المحن لو أنه اختار توقيتا اخر غير هذا التوقيت لاجراء الحركات القتالية ، كالشتاء ، أو الخريف على سبيل المثال •

كان الملك المصري رمسيس ، هو القائد العسكري ، والسياسي في وقت معا ، وهكذا كانت وحدة القيادة متمثلة جدا في العملية ، وهذا أمر مرغوب به، إذ أن جمع القيادة في مجالها العسكري ، والسياسي بيد واحدة ستذلل كل الامور الصعبة التي من الممكن أن تحصل ، فضلا عن أن وحدة القيادة تجعل السياسة بخدمة العسكرية ، والعكس هو الصحيح عبر شخص واحد هو القائد الاعلى •

لقد واصل رمسيس المسير حتى وصل الى أعالي نهر العاصي ، «يدعى أوزنيتس في تلك الحقبة» ، وعندما وصل الى هـــذا المكان كان بامكانه أن يصل مدينة قارش بعد مسيرة يوم واحد •

كان الملك رمسيس الثاني على رأس الجيش وفي طليعته ، عندما وصل المنطقة المذكورة أعلاه ، وقد أخذ على عاتقه قيادة فرقة «آمون» وهي فرقة جيدة فضلا عن فرقة حرس رمسيس ، وكان عليه أن يعبر الى الضفة الاخرى من النهر ، لان مدينة قادش كما أسلفنا كانت تقع على الجهة الغربية من نهر العاصي ، وهكذا عبر بالفرقة النهر المذكور من منطقة تبعد من (٨ـ١٠) كيلو مترات من المدينة المذكورة •

خلال عمليات العبور ، وبعد انجازه ايضا كان رمسيس الثاني واثقا من انه سيقوم بحصار قادش ، وتدمير الحيثيين بـــأسرع وقت ، ولهذا استعجل التقدم شمالا وبكل سرعة نحو قادش بفرقة «آمون» المذكورة ، وقد ترك بقية الفرق منسلخا عنها لتعقبه بعد أن تكمل العبور الواحدة تلو الاخرى ، وهنا وقع في أكبر غلطة عملياتية ، وهي تتمثل بعدم إنتظاره التكامل لكل قواته والتحرك بها مجتمعة نحو العدو •

خلال مسيره المتسرع التقى بالجنديين اللذين سبقت الاشارة اليهم ، وقد أخبراه القصة المعروفة وحسب السيناريو المتفق عليه سابقا ، وهكذا سار الى الشمال متجاوزا مدينة قادش ، وفي هذه اللحظات بالذات كان الجيش الحيثي خلف مدينة قادش ، وحال اقتـــراب الجيش المصري من قادش ، قام الجيش الحيثي بعبور نهر العاصي نحو الشرق جاعـــــلا مدينة قادش غربه ، وتستر تحركاته ، مثلما تستر وجوده وتحشداته ، ويمكن الاعتماد عليها من ناحية الاسناد الاداري ، ومداد التموين والإعاشة المطلوبة •

بينما كانت فرقة آمون تعسكر في الشمال بعد عناء يوم كامل من المسير كانت تعقبها فرقة مصرية هي فرقة «رع» تعقبها الفرق الاخرى ، وهكذا كانت هناك فرقتان في الشمال ، وفرقتان بالجنوب ، والاخيرتان في حالة تنقل •

كان القائد الحيثي موتاللو يرصد تحركات الفرق المصرية من الجانب الاخر من النهر بكل وضوح وهدوء ، وعندما تبين له أن فرقة «رع» جاءت لتلتحق بفرقة «آمون» وفرقة «حرس رمسيس» قام كرة أخرى بعبور النهر متجها نحو الغرب من منطقة جنوب قادش ، ليهاجم فرقة «رع» المنفردة ومن ثم تدميرها ، وكانت تعقب فرقة «رع» فرقة «بتاح» ، وكان بالامكان تدميرها أيضا ، وهكذا خطط أن يهاجم الفرق المصرية الواحدة تلو الاخرى •

لقد فوجئت فرقة «رع» بالهجـــوم الحيثي المباغت ، الذي اعتمد على الخديعة المذكورة ، وتمكن أن يخرقها ويجعلها «شذر مذر» ، حيث أصبحت

هذه الفرقة ، ومن هول المباغتة شراذم صغيرة ، انطلق قسم منها نحو الشمال للإلتحاق بفرقة «آمون» ، ولكن حتى هـــذه الشراذم الهاربة نحو الشمال عقبتها القوات الحيثية السيارة ، التي كانت تركب العربات ، وتقوم بتمزيق وقتل تلك الشراذم ، أما القسم الاخر من فرقة «رع» والذي نجا من الضربة الحيثية فقد فر نحو الجنوب .

بات واضحا الان ان رمسيس قـــد عزل شمالا مع قواته ، وان قوات الحيثيين تفصل بينه وبين فرقة بتاح في الجنوب ، وهذا يعني أنه انقطع عن خطوط مواصلاته ، لذلك كان في موقف لايحسد عليه أبدا ، وبدت تظهر له خيوط الفشل ، لقاء تصديقه للجنديين الحيثيين الهاربين .

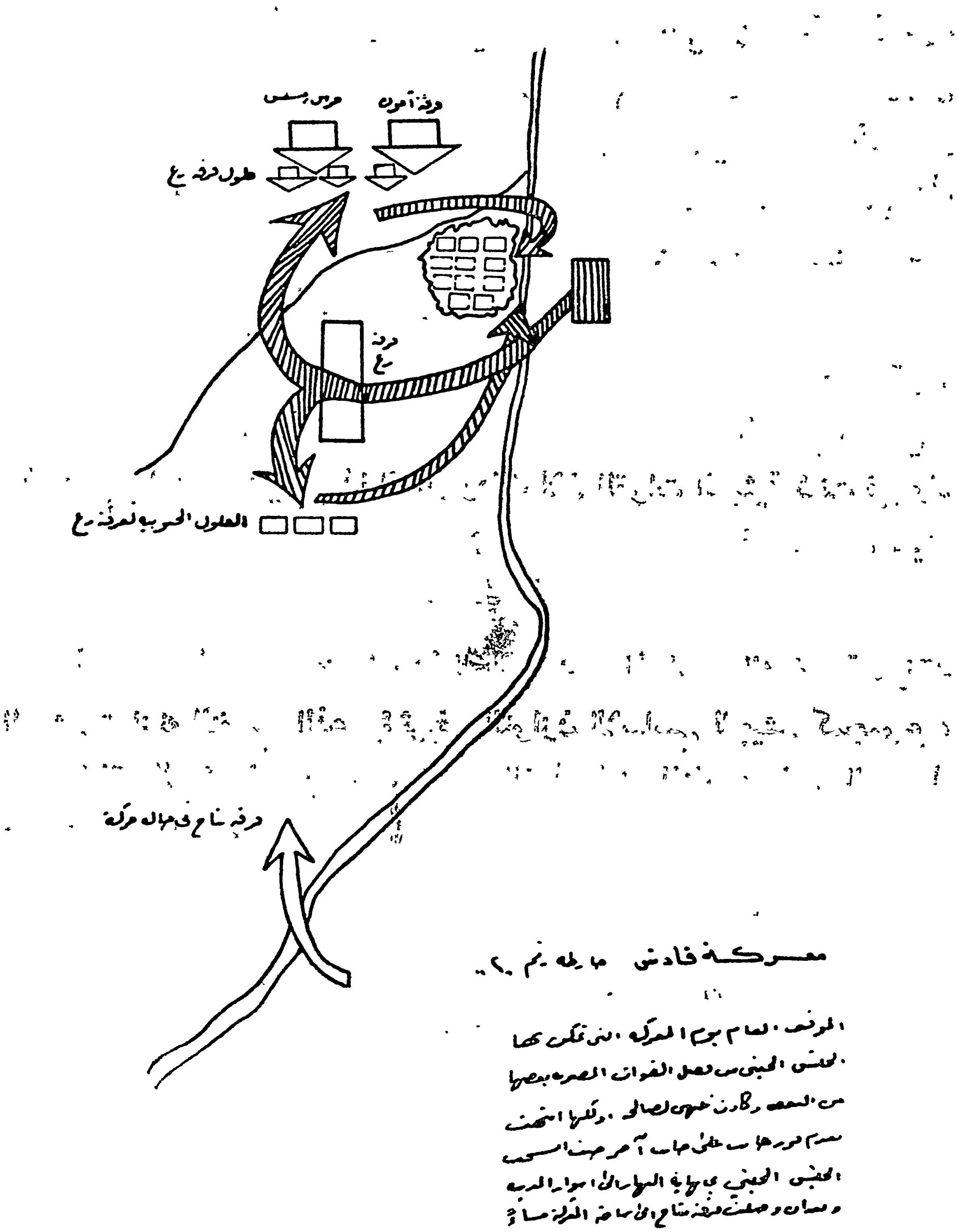
كان القائد الحيثي «موتاللو» لايفتأ يتجسس على قوات الملك رمسيس الثاني ، وهذا عمل مشروع ، ولكن هذا العمل المستمر كان له ثمنه حيث وقع اثنان من جواسيسه في قبضة الملك رمسيس ، الذي تمكن من أن يعرف الموقف العام منهما ، بعدما قام باستنطاقهما ، وقد أفاد الجنديان ، أن «موتاللو» قد قام بخداعه ، وان قوات الحيثيين كانت في الجانب الشرقي من نهر العاصي ، ولم تذهب للشمال ، وان الجيش الحيثي أراد بذلك القيام بمناورة عملياتية الغرض منها تجزئة الجيش المصري ، وضرب فرقه الواحدة تلو الاخرى ، كما أخبراه أن مدينة قادش مازال بها قسم من الجيش الحيثي لاغراض الدفاع ، ولتكون قاعدة يستند اليها في أمور الادامة والتموين .

عندما وصلت الشراذم الهاربة من فرقة «رع» الى معسكر فرقة «آمون» وفرقة حرس «رمسيس» وهم في حالة من الذعر والارتباك ، تطاردهم قوات الجيش الحيثي بأقصى سرعتها ، ساد الذعر فرقة «آمون» نفسها ، أما فرقة حرس رمسيس فقد انسحبت بحركات غـــير مدروسة لانها لم تكن منفتحة للمعركة ولا متهيئة لها .

أبصر وأدرك الملك رمسيس الثاني عظم الكارثة التي من الممكن أن تنزل به ، ولذلك وبكل عزيمته وشخصيته المؤثرة ، لملم شمل قواته ، وأخذ يجس ميدان المعركة ، فعرف أن الجناح الشرقي للجيش الحيثي المستند الى النهر هو القسم الضعيف في تركيبته ، ولذلك ، وبغية تعديل الموقف هاجم هذا الجناح ، بوساطة قطعاته الخفيفة الحركة ، المتمثلة بالعربات الحربية ، وقد أحرز في هذا المجال بعض النجاح .

ازاء هذا الموقف المتجدد كان على القائد الحيثي أن ينقل قسما من قواته الى الجناح المهاجم ، والذي بدا واضحا انه بات يعاني من الهجوم المصري ، ولكنه لم يفلح من القيام بهذا العمل وذلك لان القوات الحيثية كانت في واد آخر ، حيث انها وعندما تبين لها ان النصر قاب قوسين أو أدنى ، ذهب بعيدا وتمادت في أعمال السلب والنهب والحصول على الغنائم .

في الحالة أعلاه ، وعندما يبدأ الجنـــدي بالمكاسب الشخصية ، يفقد الجيش توازنه النفسي الذي يؤثر في التوازن الاساسي للجيش كمجموع ، وهكذا فقد الحيثيون توازنهم ، وأصبح القتال غايته الغنائم ، وليس الحصول على النصر النهائي .



بعد ان بانت الامور بشكل أوضح قام الملك رمسيس الثاني بزج فرقة «ناران» الاحتياطية نحو الحيثيين وهم في حالة فقدان التوازن ، وقد تمكنت

الفرقة المذكورة الحد من خطورتهم ، كما وهاجموهم أيضا من الجناح الغربي، وهذا يعني بمفردات بسيطة ، أن زخم الهجوم الحيثي قد استنفده رمسيس ، وأوقفه في منطقة الوسط والغرب . ولهذا فقد تابع هجومه على الجناح الشرقي بكل قوة مستفيدا من ضعف هذا الجناح ، وبوساطة عرباته المسلحة تسليحا جيدا ، والتي لم يتمكن الحيثيـــون من أن يحشدوا عرباتهم تجاهها ، لانهم خسروا الكثير منها خلال عمليات المطـــاردة التي قاموا بها سابقا ، أو خلال عمليات صد الهجمات المصرية ، في منطقة القلب والجناح الشرقي ، وهنا لابد أن نذكر أن من الامور التي ساعدت على استقرار المعركة هو التسليح المتقدم للجيش المصري ، الذي كان يمثل جيشا لدولة متقدمة حضاريا ، خلافا للحيثيين الذين كان تسليحهم أقل كفـــاءة من الجيش المصري ، وخصوصا في عربات القتال والسيوف ، حيث كانت سيوفهم قصيرة .

مهما حدث في تلك المعركة ، ومهما كانت الملابسات التي لم يعثر على تفاصيلها ، فان الموقف استقر بدون نصر مؤكد لجانب على جانب آخر ، الا بعد أن علم القائد الحيثي أن فرقة على وشك الوصول الى ميدان المعركة قادمة من الجنوب ، وهي والحالة هذه ستكون منتعشة ، لم تدخل القتال ، ولم تعط أية خسائر ، ولذلك فانها ، على الارجح ، ستقلب الموازين لصالح المصريين ، ولهذه الأسباب وقبل وصول هذه الفرقة التي كانت ستصل مساء ، انسحب القائد الحيثي ومعه ما يربو على ســـــتة آلاف جندي الى داخل المدينة ليقبل حصارا طويل الأمد .

نهاية غير متوقعة للمعركة

استقر الموقف بقبول الجيش الحيثي للحصار ، ولكن الحصار لم يحدث مطلقا ، اذ سرعان ما قامت الجيوش المصرية بالعودة الى مصر بعد أن لملمت شملها ، ولم يحاول الملك رمسيس الثاني احتلال مدينة قادش ، وتذكر بعض

المصادر أن المعركة انتهت بالصلح(٥) ، بين الملك رمسيس الثاني ، والقائد الحيثي «موتاللو» ، وان معاهدة صداقة قد أبرمت بين الطرفين ، وكان عربون هذه الصداقة زواج الملك رمسيس الثاني من احدى الاميرات الحيثيات ، كما وتذكر هذه المصادر ان هذه المعاهدة موجهة لعدو مشترك لم يذكر اسمه .

اذا نظرنا الى مجمل التاريخ في تلك المرحلة ، سنجد هناك قوتين متناميتين الأولى هي القوة الاشورية التي بدأت تتصاعد في الجزء الشمالي من العراق ، أما الاخرى فهي قوة من المهاجرين كانت تنحدر من الشمال باتجاه البحر الابيض المتوسط ، وكذلك موجات مهاجمة أخرى من بحر ايجة ، ولهذا فربما كان العدو المشترك الذي أشرنا اليه هو الاشوريين أو تلك الهجرات الشمالية .

بعد أن سبرنا غور هذه المعركة ، علينا أن نقر أن التفكير السوقي للقائد الحيثي وكذلك العملياتي ، كان تفكيرا ساذجا اعتمد على جنديين بسيطين ، وعلى أية حال ، فانه كان واضحاً انه خطط للمخادعة سوقياً ، وقد طبق هذه المخادعة منذ اللحظة الاولى للتهيؤ لها ، وحتى نهايتها ، وان مخادعته الساذجة طبقت بشكل متقن في ساحة العمليات ، وأصبحت مخادعة عملياتية ، خدمت الجيش الحيثي في ميدان المعركة الى أبعد الحدود ، لولا طمع الجنود الحيثيين ، أما اذا عرجنا على القائد المصري الملك رمسيس الثاني ، فهو يمثل قائدا اعتمد على قوته العددية وأسلحته المتفوقة ، ولهذا يمكن أن يقال أنه أساء تقدير الموقف ولم يزن ويقدر قوة خصمه الفكرية ، ولذلك وجدناه يتوسل في الحصول على نصر في ميدان المعركة بالطرق التقليدية العسكرية التي كانت سائدة في تلك الحقب ، ولم يحاول أن يعطي للابداع الاني دورا في عمليات القتال ، وهكذا قبل بعد أن انصحت له الموازين بالصلح والعودة الى مصر وتحت شعار لا غالب ولا مغلوب .

الهوامش :

(١) المعركة المذكورة تذكر عنها الموسوعة البريطانية للتأريخ ، أنها حدثت عام ١٢٩٤ قبل الميلاد ، بينما ترجع المصـــادر الاخرى حدوثها عام ١٢٨٨ قبل الميلاد ومع ذلك ، فان الفرق بين الرقمين لا يعد كبيرا من وجهة نظر تأريخية بعيدة ، ولهذا ولمزيد من المعلومات والتفاصيل يمكن مراجعة :

THE ENCYCLOPEDIA OF MILITARY HISTORY FROM 3500 BC TO THE PRESENT BY ERNEST DUPUY AND TREVOR N. DUPUY-JANE'S PUBLISHING COMPANY-LONDON 1977.

(٢) الاميرلاي أركان حرب ـ محمد عبدالفتـــاح ابراهيم ـ الحرب بين الماضي والحاضر ـ اشراف ادارة الثقافة العامة بوزارة التربية بمصر ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ طبع المطبعة العربية ـ القاهرة ـ لم تذكر سنة الطبع ص١١٧ ٠

(٢) أ ـ لم تذكر الموسوعة البريطانية للتاريخ باللغة الانكليزية عدد القوات لكل من المصرين والحيثين ٠

(٣) اللواء الركن حارث لطفي الوفي ـ فن المناورة ـ سلسلة بحوث عسكرية الرقم «٢٠» الصادر عن وزارة الدفاع ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ الطبعة الاولى ١٩٨٤ ، ص٢٩ ٠

(٤) الحرب في التأريخ مصدر سابق ، ص١٩ ٠

(٥) الحرب بين الماضي والحاضر مصدر سابق ص١١٧ـ١١٨ ٠

معركة سيهايس

الخداع البحري المتقن

عـــام

قد تكون معركة سيلاميس أو سيلامين البحرية هي أول معركة كبرى طبقت فيها المناورة العملياتية باسلوب صحيح ، يزخر بالكفاءة ، والدراية العسكرية بشؤون البحر ، وهي أول معركة يذكرها التاريخ عموما ، والتاريخ العسكري بشكل خاص ، على انها نموذج متفرد في عمليات المخادعة البحرية المتقنة الى مديات بعيدة ، كما ويذكر التـــاريخ على انها أول معركة على وجه الخصوص كانت تمثل حربا مشتركة بين القوتين السائدتين في تأليف الجيوش لذلك العصر ، والمتمثلة بالقوة البحرية ، والبرية ، وهذا التعاون سنقوم بشرح تفاصيله خلال تناولنا لسير المعركة .

يتفق الجميع على ان المعركة المذكورة قد جرت في العام (٤٨٠) قبل الميلاد بين كل من الجيش الفارسي بقيادة «سركيوس» أو «سيركسيس» الاول ، وهو ابن الملك «داريوس الاول» ، الذي تولى الملك من (٤٨٥) قبل الميلاد وحتى (٤٦٥) منه ، والذي كان يتبع خطوات أبيه بتحطيم شوكة الاغريق ، وهم الاعداء التقليديون للفرس ، أما الجيش الاغريقي فقد كان بقيادة «تيمستوكل» وهو يعد من القادة السياسيين «لأثينا» عاصمة اليونان الحالية والمدينة الاكثر شهرة [illegible]

وكان رئيسا لما يسمى بالحزب الوطني الدمقراطي ، وكان يعتقد اعتقادا جازما بأهمية البحر ، أو البعد البحري للانتصار على الفرس ••• وقد عارضه البعض على أفكاره هذه ، الا انه تغلب عليهم ، ونفذ كل أفكاره البحرية ، فبنى الاسطول الاغريقي ، كما وأنشأ مرفأ »بيريه« ، أما حياته ، فقد عاش للمدة (٥٢٥) قبل الميلاد حتى (٤٦٠) منه ، ومن المؤسف له أن يكون هذا القائد الذي أنهى العنجهية ، والغطرسة الفارسية في ذلك العصر ، ولمدة طويلة من الزمن ، قد مات منتحرا ، نتيجة اتهامات ، اتهمها به خصومه السياسيون ، ولكن مما يسجل اعجابا لهذا القائد هو عدم قبوله الالتحاق الى الفرس ، وخيانة وطنه ، رغم العروض الكثيرة التي عرضوها عليه ، والتي تعد مغرية جدا ، الا أن الضمير الوطني كان متوقدا وهاجا في هذا الجندي الشجاع ، الذي فضل الموت على الخيانة •

هناك بعض الاشكالات البسيطة حول المخادعة في هذه المعركة ، حيث يذهب البعض ومنهم «ليدل هارت» من : «أن المخادعة كانت تمثل حيلة ، هي في حد ذاتها أسلوب من أساليب الهجوم غير المباشر»(١) •

ان الحيلة التي ذكرها «ليدل هارت» لم تكن تعني اسلوب التقرب غير المباشر بأية حال من الاحوال ، وانما كانت اسلوبا مباشرا ، الا انها كانت على شكل استدراج عسكري متقن من قبل الاسطول الاغريقي للاسطول الفارسي وإيصاله الى «منطقة قتل» كما أرادها الاغريق ، ولذلك كان الاشتباك بعد هذا الاستدراج اشتباكا مباشرا بين جيشين متصارعين على سطح مياه البحر •

كان كل من الجيش الفارسي والاغريقي متعددا في ولائه ، فالجيش الاغريقي ، كان عبارة عن تحالف من «الاثنين» و«الاسبرطين» و«البيلوبونيز» ، وهؤلاء قد لمحوا الى القائد الاغريقي خلال المؤتمر الحربي الذي سبق المعركة الى احتمالية انسحابهم ، وتركه وحيدا أمام الاسطول المعادي ، كما أن الجيش الفارسي كان يضم المصريين ، والفنيقيين ، وقوات الملكة «أختيميز» ، وهكذا

يمكن أن نلمس عدم التجانس المطروح أعلاه وعلى الاخص في الجيش الفارسي، ولذلك فان قيادته والحالة هذه كانت تتطلب جهدا كبيرا في سبيل توحيد أفكار هذا الخليط غـــير المتجانس، وجعله يقاتل بالصورة الصادقة وصـــولا الى النصر .

النقطة الاخرى في هذه المعركة هي أن القوات البحرية ، وخلافا للقوات البرية ، كانت ، وبصورة عامة لا تعتمد على خطوط مواصلات يمكن أن تقطع من قبل الخصوم ، ويجري بعدها التســـليم ، أو القتال بلا جدوى ، اذ ان البحر ساحة فسيحة مترامية الاطـــراف يمكن أن تجري بها المناورة بصورة ممتازة ، هذا علاوة على ان السفن البحرية تعتمد على نفسها اعتمادا ذاتيا لمدد طويلة ، ولكن هذه القوات اذا دخلت في منطقة ضيقة أو برزخ فانها سوف لا تقطع خطوط مواصلاتها فحسب ، وانما سوف تنقطع عن بقية القطع البحرية الصديقة والحليفة ، وعن قواعدها البحرية الاساسية .

معركة سيلاميس الذي نحن بصددها ، وان كان التفوق العددي فيها واضحا الى جانب الفرس ، سواء في قطع الاسطول ، أو بالقطعات البرية ، التي كانت تتقدم على محور اخر فان النتيجة النهائية كانت لصالح الاغريق ، بعد أن عرفوا كيف يستخدموا المخادعة بشكلها البحري المتقن ، وكان من نتائج هذه المعركة سكوت الفرس عن التحرش بالاغريق لمدة تربو على سبعين عاما .

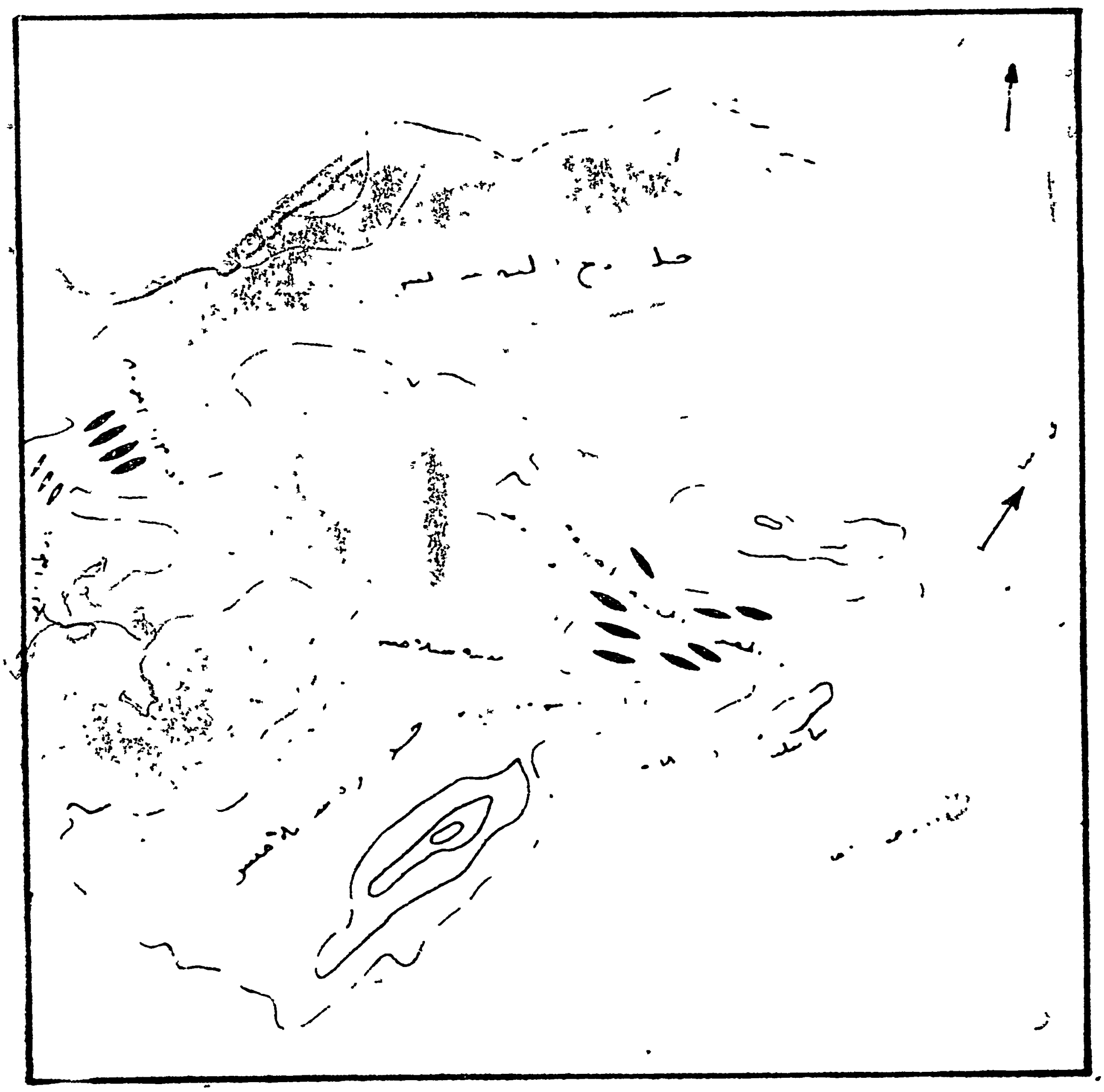
ان هذه المعركة البحرية الرائعة لماتزل حتى الان تعد نموذجا فريدا يدرس في المعاهد العسكرية ، لا لما تنطوي عليه من مهـــارة في استخدام الاساطيل البحرية ، ولكن للدروس العسكرية والاجتماعية التي أفرزتها ، وأهمها أن المجتمع الاغريقي ، كان مجتمعا لا يحبذ الحروب الا اذا فرضت عليه ، وانه كان يهوى الفلسفة والعلوم ، وتطوير الذهن الانساني باتجاه المعرفة ، ومع ذلك فانهم ولايمانهم بأن الانسان يعد المثل الاعلى ، وان الدمقراطية والدولة هما توأمان ، ولذلك كانوا من أشرس المقاتلين عندما تتعرض أرضهم وحرية

للعبودية ، هذا في جانب أما في الجانب الذي يمثله الفرس فنجد أن الصورة قاتمة جدا ، حيث كان الهـــدف من وراء حروبهم ، هو التفتيش عن المظاهر الارستقراطية ، والذي يمكن لمسه من خلال تقسيم جيشهم على مجموعتين ، أولهما المشاة ، أو عبيد الارض ، وثانيهما الفرسان ، وهم أبناء الامراء ، وكبار ملاكي الارض ، وأتباعهـــم ، ولذلك فكان خماسهم للقتال أقل بكثـــير من الاغريق لانهم تعودوا حياة الدعة(٢) ، هذا ناهيك عن أن عبيد الارض الذين كانوا تحت ألوية جيش الفـــرس لايمكن أن يتحمسوا للقتال مثلما يتحمس الاغريقي للدفاع عن أرضه وحريته ، ولذلك كان عطاؤهم أقل ، مما أدت الى غلبة الاغريق ، وان كانوا أقل عددا ، ومـــع هذا فان المأخذ التأريخي على الاغريق هو حروبهم الداخلية التي أنهكتهم حتى ظهور الامير «فليب» ، والد الاسكندر المقدوني ، الذي تمـــكن من توحيدهم ليكونوا قوة ضاربة ، استخدمها فيما بعد الاسكندر المقدوني بصورة تثير الاعجاب ، ولتجعله واحدا من أشهر القادة الشباب في التاريخ ، وليطرد الفرس ، ويحطم دولتهم •

التهيؤ للمعركة

قبل عشر سنوات من حدوث معركة «سيلاميس» وفي العام (٤٩٠) قبل الميلاد وقعت معركة برية ، تعد من المعارك الكبيرة بين الفرس والاغريق ، وهذه المعركة هي معركة «ماراثون» التي حدثت في سهل «ماراثون» الذي يبعد حوالي عشرين ميلا الى الشـــمال الشرقي من مدينة «أثنا» العاصمة الحالية لجمهورية اليونان ، والتي تمكن فيها ، حسب تقديرنا (١٢ـ١٥) ألف جندي اغريقي من الانتصار على (٤٠ـ٥٠) ألف جندي فارسي ، وذلك بسبب الخطة الاغريقية المحكمـــة ، وحسن التدريب الذي كان عموده الفقـــري الرياضة البدنية ، وقد دللت هذه المعركة ، وبما لا يقبل الشك ، بان التفوق العددي في بعض الاحيان لا يمثل سوى ترهلا عقيما ، عندما لا يقترن بحسن القيادة ، وخفة المناورة ، والخديعة ، وحسن الاداء •

الانتصار الاغريقي في معركة ماراثون لم يثن عزم من الاعداء لعـدوان آخر يستهدف اليونان أيضا ، لاسباب عديدة ، أهمها اعادة الاعتبار لملكهم المتغطرس ، ولأخذ الثأر لمعركة «ماراثـون» الخاسرة ، وقد استغرق وقت الاعداد عشر سنين ، علما أن الفرس خـلال هذه المدة كانوا لايخلون من المشاكل ، حيث كان عليهم أن يخمدوا ثورة حدثت في مصر ، وان يرمموا الحكم بعد وفاة ملكهم «داريوس الاول» ، بعد أن خسر المعركة أمام القائد الاغريقي «ملتاديس» .



النقطة الاخرى في الاستعدادات الفارسية هي بناء سفن غير مقاتلة ، الهدف منها القيام بتموين الجيش الفارسي المقاتل ، الذي كان يتقدم على

اليابسة ، والمنحدر من الشمال نحو «أثنا» ، حيث سيصبح أقرب الى الاسطول منه الى خط مواصلاته البعيد ، كما أن وصول السفن الى اليونان سيوفر للقوات الفارسية اسنادا اداريا سريعا ، وبذلك سوف لن تلتفت الى الوراء ، للتفتيش عن الطعام والمواد التموينية الاخرى .

فضلا عن السفن الادارية المذكورة كان العمل يجري على قدم وساق لبناء سفن مقاتلة تحمل القوات البحرية الكثيرة العدد .

اذا عرجنا على الجانب الاغريقي ، فسنجد أن الامر يختلف نسبيا ، حيث شعرت جميع المدن اليونانية ، أن الفرس ، لا يمكن أن يتناسوا هزيمتهم ، وانهم لا محالة عائدون ، لذلك وبغية مجابهة هذا الخطر اللئيم ، كان عليهم أن يوحدوا صفوفهم الفكرية لتتوحد قوتهم الضاربة ، ولهذا عقد اجتماع في «كورنتيا» تمخض عنه الاتحاد بين هذه المدن تحت قيادة «سبارطة» العسكرية ، كما ركزوا على منطقة أثينا ، وسهولها للقتال ، مستفيدين من دراسة طبيعية منطقتهم ، التي تعد في معظم أجزائها جبلية وعرة ، يسهل الدفاع عنها ، هذا فضلا عن تطوير سلاحهم الرئيس المتمثل بالرمح الطويل ، والسيف مع الشعار القائل «النصر أو الموت» ، والذي كان يثير فيهم حماسا قل نظيره .

التوحد تحت ظل قيادة عسكرية اسبرطية كان يعني أن الاغريق قد فطنوا الى عظم التعاليم الاسبرطية الصارمة ، التي لا تؤمن إلا بالجندي المتدرب تدريبا جيدا ، يتمكن من خلاله تحمل المشاق مهما كان نوعها ، ومقاتلا شرسا للدفاع عن شعار «النصر أو الموت» ، ويذكر الماريشال مونتغمري أن «ليكوريوس» المؤسس الشهير لدستور اسبرطة ، قد أدخل نظاما اجتماعيا وآخر سياسيا تمكنت اسبرطة أن تكون بموجبه أقوى دولة عسكرية في المنطقة ، كما نص هذا الدستور على تدريب المواطنين بين سن السابعة وحتى سن الثلاثين تدريبا عسكريا ، وهذا يعني أن الجندي الاغريقي كان في أوج شبابه عندما يقاتل ، ومن الطبيعي أن هؤلاء الجنود يخضعون لاختبار طبي ،

في السابعة من عمرهم ، أما عند الفشل ، أي عندما يكون الطفل في هذه السن ذا عاهة ، أو متأخر جسمانيا فكان مصيره القتل[٣] ، وهكذا نجد عندما كانت تجري عملية التهيؤ لمواجهة الفرس مرة أخرى أن الجميع قد قبلوا بالشعار الاسبرطي بغية اداء قتالي عنيف وشرس .

النقطة الاخرى في مجال التهيـــؤ كانت تتمثل ببناء اسطول يتمكن من منازلة ومقارعة الاسطول الفارسي ، مهمـــا كان حجم هذا الاسطول ، مع الاعتماد على المنـــاورة والتنقل السريع من نقطة لأخرى ، على وفـــق الموقف القتالي ، لاسيما وأن الفرس يهاجمون من الشمال برا ، ومن الجنوب بحرا .

جغرافية ميدان المعركة

لو نظرنا مليا الى خارطة المعركة المرفقة ، سنجد أن المنطقة يمكن تقسيمها من الناحية الجغرافية على منطقتين متباينتـــين ، الاولى مسطحات مائية تتمثل بالبحر الابيض المتوسط ، وامتداداته ، والاخرى يابسة .

اذا أمعنا النظر بدقة في المنطقة المائيـــة بالقرب من السواحل اليونانية لوجدناها تنقسم أيضا على ثلاث مناطق ، الاولى تتمثل في عرض البحر ، والتي لا تحتوي على أي جزر قريبة ، ولذلك فهي تســاعد على المناورة والمعارك والمعارك البحرية ، بشتى أبعادها ، أما المنطقة الثانية فهي المنطقة المتاخمة للبر اليوناني ، وهذه تشمل على جزيرتين مهمتين هـــما جزيرة «مستاليا» الكبيرة نسبيا ، وجزيـــرة «أتلانت» الصغيرة ، والتي تقع في الجنـــوب الغربي من الجزيرة الاولى ، والثانية لاتوجد لها أهمية كبيرة مثلما توجد للاولى ، اذ ان الاولى يمكن أن يستفاد منها لعمليات الابرار ، كما ويمكن أن تستخدم مع الاسطول لعمليات الحصار البحري للشواطيء اليونانية ، أما اذا اتجهنا شمالا فسنجد أن البحـــر يأخذ بالضيق ليشكل في النهاية قناة تدخـــل الى خليج

«أيليوسيس» ، والتي تقع عليه مدينة تحمل الاسم نفسه ، علما ان الخليج المذكور لا يخلو من بعض الجزر الصغيرة ، هذا ناهيك عن أن الخليج المذكور ينحدر ثانية عبر القناة الغربية ليحيط «سيلاميس» في جميع الجهات ويجعلها جزيرة مستقلة .

اذا أخذنا اليابسة ، فسنجد أنها تتكون من جزيرة «سيلاميس» نفسها والتي تشكل مدينة «سيلاميس» أحد معالمها ، حيث تقع هذه المدينة في الجانب الشرقي ، وعلى القناة الشرقية التي أشرنا اليها سابقا ، أما «سنيورسوا» ، فهي شبه جزيرة على شكل لسان تتصل بالجزيرة نفسها ، وهذا اللسان يطوق الى بعض الحدود القناة الشرقية ، ولذلك فانه يسند الجناح الجنوبي للقوات التي من الممكن أن تدافع عن القناة ، أما في الجانب الاخر وفي الاجزاء الجنوبية الشرقية والى الجنوب من اللسان المذكور فهناك سلاسل جبلية بسيطة .

اذا أمعنا النظر الى الخريطة ثانية سنجد شرق سيلاميس الاراضي اليونانية الممتدة حتى مدينة أثينا التي تبعد ستة وثلاثين كيلومتراً عن المنطقة، كما سنجد أن هناك ميناء بحريا يقع في الجنوب الغربي من اليونان هو ميناء «بيرايوس» ، والى شماله سلاسل جبال «أجالوس» ، وهذه تمتد محاذية للقناة الشرقية المؤدية الى خليج «ايليوسيس» .

من الشرح أعلاه يمكن أن نستنتج الان استنتاجا مهما هو أن هذه المعركة البحرية لو حسمت لصالح الفرس ، كان على قواتهم أن تترجل ، ومن ثم التقدم نحو أثينا عبر طريق «بيرايومس» ، وذلك من أجل الالتقاء مع الجيش الفارسي المتقدم من الشمال نحو أثينا أيضا .

المنطقة بصورة عامة تصلح للدفاع المتقدم بالنسبة للجيش الاغريقي ، حيث يمكن أن تستند دفاعاتهم البحرية الى ثلاث نقاط تعبوية مهمة تشكل خط صد عظيم ، وهذا الخط يتمثل بالخط الواصل بين ميناء «بيرايوس ــ جزيرة بستاليا ــ شبه جزيرة سينوراسورا» ، والذي لا يحتاج الى حشد

اسطول بحري ضخم ، لان جزيرة «بستاليا» ، وشبه جزيرة سنيوراسورا يمكن الدفاع عنهما بوساطة المشاة أو الفرسان ، أما المنطقة الكائنة بين جزيرة بستاليا وشبه جزيرة سنيوراسورا فهي ضيقة ويسهل الدفاع فيها بصورة ممتازة ، ولذلك فان أي عدو والحالة هذه لا يمكن الا أن يغفلها لانها تعد ممرا مائيا مهلكا .

قوات الطرفين

تبقى قضية قوات الطرفين في هذه الواقعة مشكلة عويصة جدا ، حيث أن كل ما كتب عنها يمكن أن يخضع للمناقشة ، لانه جاء بشكل استطرادي متواصل قد يصل الى حدود الخرافة احيانا ، ولكن علينا نحن في هذا الزمن عند تقديرنا لقوات الطرفين أن نخضع أنفسنا للغة المنطق ، والعوامل المؤثرة في نشر وانفتاح القطعات البحرية لكل من الجانبين المتصارعين .

تذكر المصادر المختلفة المتعددة على أن الاسطول الفارسي كان يتكون من (١٢٠٠) سفينة حربية مهمتها القتال البحري ، ويؤكد على ذلك «هيرودوت» المؤرخ الشهير ، ولو أجلنا النظر في الخريطة بعد أن قرأنا جغرافية المنطقة في المادة السابقة ، لوجدنا أن المسافة التي تتجمع فيها السفن الفارسية لمحاصرة السفن الاغريقية تربو على ثلاثة أميال ، وهي متمثلة بالمنطقة الكائنة بين «بيرايوس» وشبه جزيرة «سنيوراسورا» ، وهذه المسافة لا تسمح بانفتاح هذا العدد الكبير من السفن حتى ولو كانت هذه السفن تقف بثلاثة خطوط ، الذي يحوي كل خط منها والحالة هذه على أربعمائة سفينة ، وهو عدد غير معقول لاشغال هذه المنطقة ، أي أن بين سفينة وسفينة ستكون مسافة لا تزيد عن خمسة عشر مترا ، ومن الطبيعي أن هذه المسافة لن تكون مقبولة البتة ، حيث انها ستحدد السفن لانها لا تسمح بالمناورة للسفن عندما يبدأ القتال الفعلي .

الرقم المذكور يمكن أن يكون كحـــد أدنى بحدود (٣٠) مترا في ذلك العصر بين سفينة وأخرى ليكون معقولا ، وعليه وكاستنتاج نهائي ، فان عدد السفن الفارسية يمكن أن يربو على (٦٠٠-٨٠٠) سفينة ، في أعلى احتمال ، وفقا للمعطيات الجغرافية المذكورة .

الرقم الذي تم التوصل اليه سنعتمده في البحث ، علما بان بعض المراجع لم تتمكن من تحديد السفن الفارسية، بل نظرت الى المسألة من وجهة نظر أخرى هي نتيجة القتـــال ، كما ان قسما من المصادر استقى معلوماتـــه من مراجع اغريقية ، وربما بالغت هذه المصادر بكثرة الاسطول الفارسي لتبين وتمجد بطولاتها بالانتصار على هذا العدد الهائل من السفن بوساطة قلة من البحارة والمقاتلين الاغريق الشجعان الشديدي البأس .

اذا ذهبنا صوب القوات البرية الفارســـية فسنجد أنها تتألف من مائة وستين ألف جندي ، انحدرت من الشمال نحو أثينا ، والرقم المذكور قد يكون رقما مبالغاً فيه هو الآخر ، إلا اننا لو عرفنا أن معركة «ماراثون» التي تمت الاشارة اليها سابقا والتي خسرها الفرس كانت القوات الفارسية تقدر بثلث هذا الرقم ، يمكن أن تعد هذا الرقم مقاربا للحقيقة ، وذلك عبر الاستحضارات التي تكلمنا عنها والتي تعطي هذا الانطباع ، حيث كان على الفرس أن يكثفوا العدد والسلاح لحصولهم على نصر سريع تام .

الجانب الاغريقي في هذه المعركة كان يملك سفنا مجموعها (٣٣٣) سفينة، وهو رقم يمكن اعتماده ، لانـــه كان من المفروض أن يدافع عن قناتين بسعة (٢٠) كيلو مترا ، علاوة على الدفاع على مجانب المضيق ، علما بان كل سفينة من السفن المذكورة كانت محملة ببحارة يقدر عددهم بـ (٧٠) بحارا وهذا يعني أن المجموع العام للبحارة الاغريقيين هو بين (٥٥-٦٠) ألف بحار وهذا الرقم يشمل البحارة المقاتلون وبحارة الاسناد ، والخدمات الاخرى .

أما الدفاع عن أثينا فكان هناك مضيق جبلي وعر ، يؤدي اليها ويسهل الدفاع عنه بقطعات قليلة ، ولذلك ، فقد أفـــرز الاغريقيون جزءا قليلا من قطعاتهم للدفاع في هذا المضيق ، وقد كانت تقدر قوة الدفاع بين (٥٠٠٠-٧٠٠٠) مقاتل باختلاف المصادر ، وهي قوة تعد جد كافية للدفاع عن مضيق جبلي وعر ، مما تقدم اذا أردنا أن نجمع العدد الكلي للجانبين المتقابلين سنجد مايأتي :

القوات الفارسية

١٦٠ر٠٠٠ جندي في الرتل الارضي + ٨٠٠ سفينة مقاتلة بحرا .

القوات الاغريقية

٧٠٠٠ جندي في المضيق + ٣٣٣ سفينة مقاتلة .

الارقام السابقة تدل قاطعة أن القوات الفارسية كانت متفوقة على القوات الاغريقية (٣) فارس (١) اغريق ، وهنا علينا أن نشير الى أن القوات الفارسية كانت تتكون من قوميات متعددة منهم الايونيون .

كانت الخطة اليونانية تراعي عاملين مهمين هما : التفوق العددي البري والبحري الفارسي بالافراد وعدد القطع البحرية ، ولذلك كان لزاما عليهم أن يستخدموا مبادىء الحرب بشكل دقيـــق ، ومدروس باستيعاب كامل لكل المتيسرات الذي يمكن أن يطرأ عليها التبدل في المستقبل .

أول المبادىء كان هو مبدأ «التحشد» ، ومن ثم الاقتصاد بالقوة ، مع اقترانهما بالمباغتة التي عليها أن تنبثق اثر عملية مخادعة ، ولذلك ، وبغية ترجمة تلك الافكار الى وقائع عملية واخراجها من صيغة التجرد الى الحدث في مسرح العمليات بسلسلة من الاعمال القتالية ، فقد عمدوا الى اتخاذ مسلكين هما :

آ ـ الدفاع تجاه الرتل الارضي القادم من الشمال ، والذي يضم جحافل مشاة راجل ، وخيالة من الجيش الفارسي ، بوساطة قوة متوازنة تتمكن من

صد التقدم ، نحو أثينا من دون التفريط بالقوة ، أو الاكثار منها على خساب القوة التي عليها أن تدافع مع القوة البحرية بصورة مشتركة عن جزيرة سيلاميس والشواطيء الاغريقية الاخرى ، وهذا التفكير يجسد مبدأ الاقتصاد بالقوة ، ومن أجل انجاز هذا العمل بصورة متقنة فقد درسوا الممرات البرية المؤدية الى أثينا فوجدوا أن أفضل خانق طبيعي لتحقيق تلك الغاية هو دفاعهم في مضيق «ثيرموبيلي»(٤) البالغ الوعورة، وقد أفرزوا لذلك العمل سبعة آلاف مقاتل وكما أشرنا الى ذلك سابقا ، وهذ هالقوة ، تعد كافية من أجل انجاز المهمة الموكولة بها ، وقد عهدو بقيادة هذه القوة الى القائد «ليونيداس» ، علما أن هذه القوة ، كان الجزء الكبير منها من «الهوبلت» ، وهي مشاة اسبرطية ثقيلة ، اذ ان القائد «ليونيداس» كان هو الاخر اسبرطيا •

ب ـ الدفاع تجاه السفن الحربية الفارسية ، أمام المضائق المؤدية الى سيلاميس، وبذلك يضمنون جبهة ضيقة للدفاع الجبهوي في القناة الشرقية المؤدية الى المدينة ، أما المدخل الغربي ، فهو مدخل ضيق أيضا ويسهل الدفاع عنه بسفن قليلة ، ولذلك أفرزوا قوة قوامها الاسطول الكورنثي لصد أية هجمات قادمة من هذا المحور ، وبذلك قسموا قوتهم الاساسية على جزأين ، بغية صد أي محاولة تقدم فارسية على الخطوط الخارجية •

لقد اعتمد الاغريق على سفنهم الحربية التي كانت تتمتع بمقدمة حادة ، بحيث تتمكن من الاصطدام بالسفن الفارسية وتحطيمها أو شقها ، ومن ثم الصعود اليها ومحاربة بحارتها ، معتمدين بذلك على حسن لياقتهم البدنية ، وتدل الكتابات المتداولة حول هذه السفن انها كانت تحمل مائة وسبعين بحارا مقاتلا في كل سفينة ، فضلا عن ان هذه السفن الرشيقة كانت تمتلك امكانية عالية على المناورة ، وقد وضعوا معظم هذه القوة في منطقة المضائق الشرقية والغربية ، مع وجود قطعات أخرى أمـــام المضائق ، كما وأفرزوا قسما من القوات للدفاع عن أثينا وبالقرب منها وعلى محاور التقدم المحتملة ، كما يجب

أن نذكر أنهم حشدوا قوات مناسبة للدفاع عن مبناهم الحضاري العتيد «الاكروبوليس» ، الذي يعد مفخرة فنية في مضمار الهندسة المدنية ، والذي مازالت آثاره شامخة تتحدى الزمن حتى يومنا هذا ، هذا الصرح الذي يمتاز بالابداع الفكري للانسان ، والمهارة اليدوية في تلك العصور •

المخادعة اليونانية

ازاء هذا العدد الهائل من السفن البحرية الفارسية كان على الاغريق أن يضعوا خطة رصينة متكاملة من كافة الوجوه ، يتفادون بها الشر الذي يمكن أن يقع ، على أن تعتمد على التفكير العلمي الصحيح والاستنتاجات الصائبة ، وكان بامكانهم مثلا ، أن يقاتلوا أمام المضيق على طريقة الدفاع الموضعي المستكن ، ولكن هذا العمل يدل على أنه مواجهة حقيقية ولكن غير معروفة العواقب ، ولذلك حتمت عليهم الظروف اللجوء الى المخادعة بكل الوسائل ، وقد اعتمدوا في خطتهم من أجل تأمين ذلك النقاط الاتية :

١ ـ أن يروجوا ـ وهذه فكرة قائدهم «تيموستوكل» ـ بعد مناوشات بسيطة على أنهم على شفير الهاوية وفي حدود الانهيار ، وان النصر أصبح قاب قوسين للجيش الفارسي ، ولذلك فلا مناص لهم سوى الهرب عبر الاقنية الشرقية ، كما انهم ولزيادة في اقناع الفرس بالافكار المطروحة سابقا ، روجوا عن وجود خلافات بين الجيش الاغريقي ، الذي يتكون من القوات الاثنية والاسبرطية من جهة والاطراف الاخرى المتحالفة معه •• وهذا سيقود وحدته الى التفتيت ومن ثم الانكسار، وأخيرا القضاء عليه قضاء مبرما، ومن الطبيعي، وهذا شيء مؤكد ان فكرة عدم وجود الانسجام والوحدة الفكرية بين الاغريق وحلفائهم كانت موجودة فعلا ، ولذلك فان أمر انطلاء هذه النقطة على الفرس سيكون أمرا سهلا •

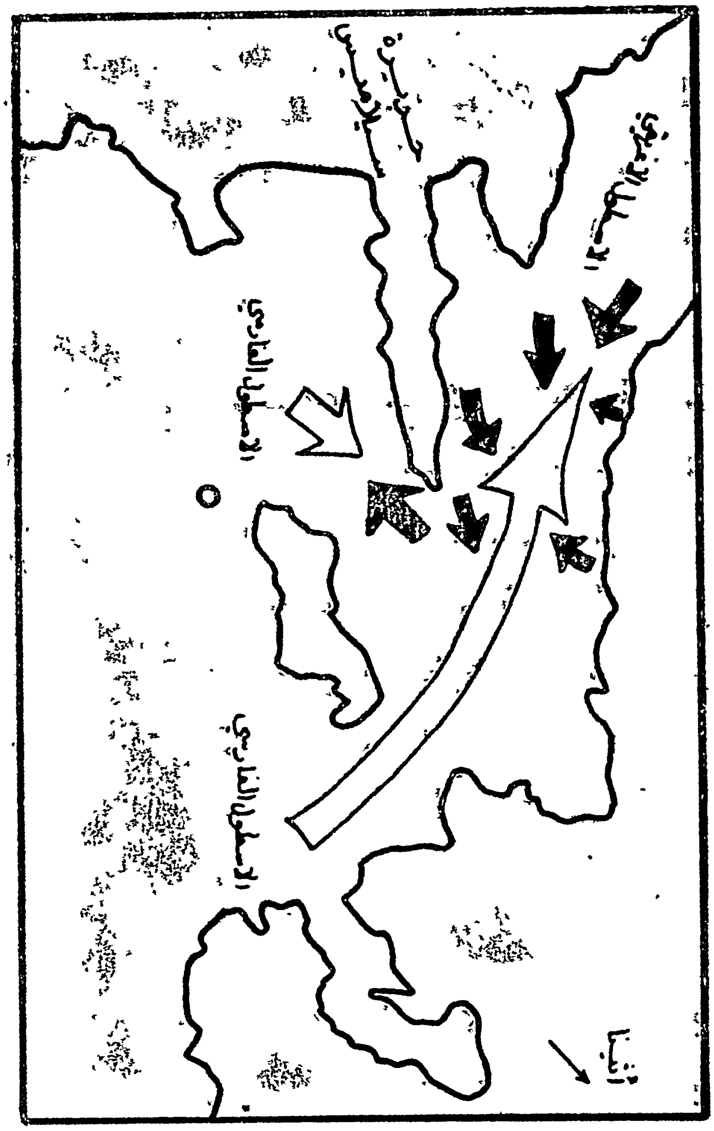
لقد خطط القائد الاغريقي عبر شواهد مقنعة لهذه المخادعة التي وقع الفرس براثنها ، وهذا يعد قمة في فن المخادعة ، إذ يمكن أن تستخدم تنفة من

المعلومات الحقيقية من أجل عملية مخادعة كاملة ، وعلى أساس ان المخادعة تمثل أمرا حقيقيا ، وليس وهما ملموسا .

فضلا عما ذكر أعلاه ولدعم النقطة المطروحة في المخادعة ، روج القائد الاغريقي ، أن حلفاءه من الممكن أن يكونوا محايدين ، وحتى من الممكن أن ينظموا الى صفوف الفرس ، وفي أية لحظة من اللحظات لاسيما اذا ما سقطت العاصمة أثينا .

معركة سيلاميس

مراحل الهجوم



الاستدراج اليوناني للاسطول الفارسي
واغراءه بالتقدم نحو المضائق
ومحاصرته بعد ان فقد المناورة

لقد ورد في بعض المصادر أن القائد الاغريقي «تيموستوكل» قد سرب رسالة سرية بهذا الشأن الى الفرس ، ولكن هـــذا العمل ماكان سينطلي على الفرس لاسيما وانه وارد من قائد معاد ، حيث أن مثل هذا القائد بدلا من أن يرسل رسالة كهذه يمكن أن يستسلم في أي لحظـــة ، ولهذا فان موضوع الرسالة المذكورة يعد مرفوضا حيث لم تدعمه الوقائع بعد نهاية المعركة •

٢ ـ بعد الترويج للفكرة أعلاه ، كان على الاسطول الاغريقي المتواجد في القنوات أن يفرز قوة أمام جزيرة « بسبتاليا » ، وهذه القوة ما عليها سوى المناوشات البسيطة ، ومن ثم الانسحاب بأسرع مايمكن نحو منطقة القنوات ، لكي تجر خلفها السفن الفارسية التي ستصبح لهـــا القناعة ، بأن ما روج له سابقا له جزء كبير من الحقيقة •

٣ ـ بعد دخول الاسطول الفارسي في منطقة القنوات والمضائق سيفقد امكانية المنـــاورة المطلوبة ، وعندئذ سيقوم الاسطول الاغريـــقي من طعن الاسطول الفارسي في خاصرته من قبل قـــوات مخصصة لهذا الواجب بينما سيقاتل هذا الاسطول الاغريق جبهويا ، وقد أفرز الاغريق سفنا خاصة لاعمال الصد ، وهذا العمل المخادع يمكن أن يقود ، وبأعلى درجات النجاح الظفر للاغريق والهزيمة للفرس ، لانهم فقدوا المناورة ، ولايمكن لهم أن يتراجعوا أمام الوخزات الاغريقية القادمة لهم من المجنبتين •

الخطة الفارسية

الخطة الفارسية ، كانت عموما تعتمد على القوة العددية ، وعلى رتلين هما الرتل الارضي والرتل البحري ، وكانت مهمة كل منهما مايأتي :

١ ـ الرتل الارضي يقوم بالتقدم ومن ثم عبور مضيق «الدردنيل» عبر جسر أو جسرين ينشئا لهذا الغرض ، لهما القابلية على عبور مائة وستين ألف جندي من الفرســـان والمشاة ، وقد عهدوا بهذه المهمة لأحـــد الخونة

المأجورين من اليونانيين أنفسهم ، وهو المهندس اليوناني «هربالوس» الذي كلف بانشاء هذا الجسر الخشبي ، الذي يتكون من سفن متقاربة متصلة بعضها بالبعض الاخر بواسطة ألواح خشبية ، وحديدية ، تؤمن الانتقال من جانب الى جانب آخر ، وتذكر بعض المصادر أن عدد السفن الذي استخدم في انجاز هذا العمل يربو على (٣٠٠) سفينة(٥) .

٢ ـ الانحدار بوساطة الرتل الارضي نحو أثينا ، وحصارها وتدميرها ، بعد ازالة جميع المقاومات الموجودة على محورهـــا القتالي ، بالاعتماد على قوتهم العددية ، وامكانية تحقيق المباغتة .

٣ ـ الانحدار نحو جزيرة «سيلاميس» لملاقاة الرتل البحري الذي عليه أن يؤمن الامور الادارية بما فيها قضايا الاعاشة ، حيث افرزت بعض السفن لانجاز هذا العمـــل ، حيث كان خط المواصلات الاداري من الدردنيل الى سيلاميس طويلا جدا ، ولايمكن أن يعول عليه بدرجة كبيرة .

٤ ـ قيام الاسطول الفارسي بحسم المعركة البحرية معتمدا على قوته العددية ، ومحاصرة الاسطول الاغريقي ، ومن ثم تدميره ، وبذلك ستؤمن الخطة الفارسية امساك مجد الانتصار من طرفيه ، حيث سيتمكنون من تدمير الاسطول الاغريقي ، والقوات البرية على حد سواء ، وبذلك ستنطفىء جذوة أثينا لمدة طويلة .

٥ ـ ستكون القوات البرية تحت قيادة الملك الفارسي «سيركسيوس» ، لانها تمثل الثقل القتالي الذي عليه أن يقوم بالتوغل عميقا في بلاد الاغريق ، وصولا الى أثينا المعقل الاغريقي المعول عليه ، وتاج مدن اليونان قديما وحديثا ، وهنا يمكن أن نورد أن الملـــك المذكور ربما كان خائفا من ركوب البحر .

سير المعركة الحقيقي

لقد تمكن الفرس بوساطة الجسور المنصوبة على مضيق الدردنيل من عبور المضيق بكل سهولة ، ولم تكن هنـــاك أية منغصات حقيقية يمكن أن تقف عندها مليا ، حيث جرى تجاوز الصعوبات الفنية والقتالية خلال هذه العملية •

أعطى هذا العبور السهل لمضيق الدردنيل رخاء فكريا ، وعزز المعنويات الفارسية التي كانت تعشعش فيها اسراب من وطاويط الشك ، نتيجة خسارتهم في معركتهم السابقة ، وهكذا انتعشت الامال بعد أن كانت تتكيء على عكاز الخيبة المريرة ،وانبهرت بهذا الانجاز الضئيل، الذي لايعدو أكثر من عبور مائي على قوائم الاستراحة •

انحدر الفرس بعد العبور بقيادة ملكهم «سيركسوس» في تخوم اليونان، قاطعين هذه الارض الخضراء الجميلة ، التي تتوزع بها الجبال بشكل اسطوري خلاب ، ولم تكن هناك أية مقاومات اغريقية تذكر ، وقد ساعد هذا في تأجيج الاحلام والخيالات الواهمة في رؤوس الجنود الفرس ، فتصوروا أن المعركة ستكون سهلة جدا ، وانها تقترب من حدود الترف القتالي ، الذي سينجم عنه مجدا مطرزا بخيوط قتالهم الاغريق ، يضيف الى كل جندي فيهم هالة وبريقا يمكن أن يتفاخر به حيا ، وتتناقله الاجيال ، بعد أن يكون قد نقش على مسلة الزمن بأحرف من نور ونار •

كان الفصل ربيعا في عام (٤٨٠) قبـــل الميلاد ، وكان منعشا ، فتهاوت الجحافل الفارسية الغازية بسهولة نحو أثينا لا يعكر صفو حياتها حر ولا برد، الى أن وصلت الى ممر جبلي وعر كائن بالقرب من «ثرموبيليا» ، وهو ممر يبعد عن أثينا مسافة (١٤٦) كيلومترا على وجه التحديد ، ويقع في جهة الشرق من جزيرة سيلاميس ، عنـــد ذلك اصطدمت القوات الفارسية مـــع المقاومات الاغريقية التي كانت تدافع عن المضيق والتي كانت باعداد تقدر بين خمسة

آلاف الى سبعة آلاف مقاتل ، والذي تم التطرق اليهم سابقا ، بقيادة القائد الإسبرطي «ليد نيداس» .

بعد التحام مباشر بين الجيشين ، لم يتمكن الفرس من ازاحة المقاومة الاغريقية وعبور المضيق المذكور ، سيما وأن الهوبلت الاغريقي ، أو ما يمكن أن ندعوه المشاة الثقيل قد قاتل قتالاً مستميتا ، ولم يخل المضيق مطلقا ، ومع ذلك فان أحد الخونة من الأغريق قد دل الفرس على طريق آخر يتمكنون بوساطته من تجاوز المضيق ، وتطويقه ، ومحاصرة القطعات المدافعة عنه ، ومن ثم الاندفاع جنوبا نحو أثينا .

لقد نفذ الفرس الخطة الثانية ، وسلكوا الطريق الاخر ، الا ان القائد الاغريقي المدافع عن المضيق سرعان ما أدرك الامر ، فأرسل معظم قوته جنوبا ، وأبقى معه عدداً من جنود المشاة تقدر قوتهم بين (٣٠٠-٥٠٠)(٦٦) مقاتل ، وكان هؤلاء من الهوبلت بغية الدفاع عن المضيق بقوة قليلة وعدم تركه بالمرة .

لقد تمكن الفرس من مشاغلة قوات المضيق ومن ثم سلوك الطريق الاخر والالتفاف حوله ، وهكذا أطبقوا على القوة الاغريقية المدافعة من الامام والخلف ، وأبادوها عن بكرة أبيها ومعها القائد الاسبرطي «ليد نيداس» ، ولا تزال حتى يومنا هذا قطعة حجر تاريخية منقوش عليها عبارات تجسد هذا العمل البطولي الرائع وفي المضيق نفسه .

خلال المسيرة الطويلة من الدردنيل نحو أثينا ، أخذ الجو يتبدل تدريجيا ، حيث مال كثيراً الى الصيف ، وبدأت درجات الحرارة بالإرتفاع تدريجيا ، ومع ذلك فكان الانتشاء الفارسي والمعنويات الفارسية في ذروتها ، بعد أن أزاحوا المقاومة الاغريقية المذكورة ، وتصوروا أن هذا العمل يمثل بداية النهاية الاغريقية ، لان وقعوا في خطأ جسيم متصورين أن القوات المقبلة ستكون أسهل من القوات الاغريقية المبادة في المضيق .

الاغريق بصورة عامة كان عليهم أن يقاتلوا قتالا تراجعيا نحو أثينا ، ولكن الوشاية التي مارسها أحد الخونة جعلت منهم جنودا شكوكين في امكانية النصر ، ولذلك تمكن الفرس من الانحدار جنوبا ، وبكل سهولة ، نحو أثينا لاحتلالها ، بيد أن سكان هذه المدينة العريقة ، لم يرق لهم الامر ، لأنهم لا يريدون الذل والهوان ، ولذلك هجروا المدينة ، وتوجهوا نحو جزيرة سيلاميس ، علهم يلاقون بها مكانا أمينا من بربرية الفرس ، بعد أن تركوا في المدينة المقاتلين منهم ، كما تركوا مقاتلين آخرين في صرح «الاكروبوليس» الذي ورد ذكره سابقا ، الا ان الفرس تمكنوا من الوصول اليه وابادة الحامية المكلفة بحمايته ، ونهبوا ما وجدوه من مخلفات في أثينا ، ثم أحرقوها •

بعد أن أحرق الفرس أثينا •• انحدروا جنوبا نحو سيلاميس من أجل الالتقاء مع الرتل البحري ، الا أن الامور لم تكن كما يشتهون ، فقد أرسل القائد الاغريقي الاعلى جزءا من قوته نحو المضيق البحري الغربي ، وتتكون هذه القوة من الاسطول «الكورنثي» ، الذي كان عليه أن يسد هذا المضيق بوجه أي قوة قادمة من هذا الاتجاه ، وقد نجحت القوة المذكورة بانجاز العمل المعهود لها ، وذلك لقصر جبهة الدفاع وللائمة القوة من ناحية الاداء والحجم في تحقيق الغاية •

في الجانب الشرقي للمضيق البحري المواجهة لجزيرة «بسيتاليا» نظم الفرس صفوفهم البحرية ، بثلاثة أرتال ، تمكنت من سد المضيق ، وترجل قسم من البحارة وأحتلوا الجزيرة المذكورة ، لتكون قاعدة لهم لاغراض الاسناد ، بينما أرسلوا القوات المصرية الحليفة نحو الجانب الغربي من جزيرة سيلاميس لاقتحام المضيق ، وهكذا ستضبح القوات الاغريقية في كماشة من الشرق والغرب •

القوة المصرية المكلفة بالاقتحام من الغرب فشلت في اداء مهمتها ، وربما يكون سبب اخفاقها ناجما عن عدم الموالاة التامة للفرس من قبل المصريين ،

ولذلك لم يأخذوا القضية بجدية تامة ، سيما ونحن نعلم ان هناك تمردا مصريا معاديا للفرس حدث بعد وفاة داريوس الفارسي مباشرة .

حدثت أثناء ذلك الوقت مناوشـــات متعددة بين الاسطولين ، الا أن أحدهما لم يتمكن من التغلب على الاخر .

أحس القائد الاغريقي بعد المناوشات أن عليه أن يقوم بالجزء الثاني من خطة المخادعة ، بعد أن جس نبض القوات الفارسية ، ولذلك قام باحكام هذه الخطة عبر انسحابه المنظم ببعض القطع البحرية باتجاه القنوات الضيقة ، مما جعل الفرس يثقون بالاخبار التي وصلت لهم سابقا ، والتي لم تكن سوى أخبار مخادعة اغريقية انطلت عليهم .

بعد أن انسحب الاغريق خداعا ، أمر الملك الفارسي قطعات اسطوله بالتحرك لمطاردة القطع الاغريقية المنسحبة ، بغيـــة محاصرتها وتدميرها ، أو أضعف الايمان ، استسلامها .

لقد تغلغلت القطع الفارسية في المضيق ، وهنا جاءت الحركة الاغريقية اللاحقة ، المتمثلة بمهاجمة الاسطول الفارسي من خاصرته «أي من مجنبتيه» ، وقد تم الهجوم فعلا ، وعندها ساد الاضطراب الجانب الفارسي ، وأخذت السفن بالتراجع ، الا أن الاغريق لم يتركوا هذه السفن ، وانما طوقوها ، وصعدوا اليها ، والتحموا مع بحارتها وتغلبوا عليهم ، ومن الطبيعي أن هذا ناتج عن حسن تدريبهم .

بعد أن فقد الاسطول الفارسي توازنــــه ، وأعطى خسائر كبيرة أخذ الاسطول المذكور التسلسل بكل وسيلة الى عرض البحر ، بعد أن أخلى جزيرة «بسيتاليا» ، التي سرعان ما قام البحارة الاغريق باحتلالها .

بعد أن تسللت السفن الفارسية الى عـــرض البحر ، أبحرت الى آسيا الصغرى ثانية ، ولم تتمكن من الالتقاء بالرتل الارضي الفارسي .

النتيجة النهائيـــة هي خسارة الفرس لمائتين من سفنهم الحربيـــة ، أما الاغريق فقد خسروا أربعين سفينة .

بعد أن أدرك الملك الفارسي بعدم امكانية الإستمرار في أثينا ، لانه يفتقر الى مواد الاعاشة والتموين ، ترك أثينا راحلا رحيلا مرا عنها ، بعد أن ترك جزءا صغيرا في جيشه في اليونان على أن يكون قاعدة له في المستقبل القريب لغزو قادم ، ولكن هذا لم يحدث مطلقا .

نهاية المعركة

أصبح الجيش الفارسي منهكا ، وأضحت الغيوم السود تطوف في مخيلة جنوده ، بعد أن أصبح اللقاء بالاسطول البحري أمرا مستحيلا ، هذا الاسطول الذي كان عليه أن يؤمن أموره المعاشية ، وهكذا دب فزع الجوع ومواجهة شتاء قارس ، هو الهم الوحيد لمنتسبيه ، ولذلك كان عليه أن يغذ السير نحو الدردنيل بخطى بائسة مترنحة ، عارفا أن الاغريق سوف لن يدعوه وشأنه .

لقد غذى الانتصار في سيلاميس الذاكرة الاغريقية وجعلها في حالة عالية من الانتشاء المعنوي الذي يبتغي الاخـــذ بالثأر لاحراق أثينا . وهكذا قرر جميع الاغريق على المقاومة والتصدي لهذا الغزو الجائر .

من المنطلق أعلاه فان الملـــك الفارسي لو بقي مع قواته في روما فانه سيتعرض الى هجوم الجيش النظامي القادم من سيلاميس ، وهجمات الشعب الثائر القادمة في كل مكان ، ولذلك كان قراره بالانسحاب صحيحا .

لقد أدرك الاغريق مغزى قوتهم ، فلم يتركوا الحبل على الغارب ، وانما جهزوا جيشا آخر بقيادة «بوزانياس» الاسبرطي لتدمير ما تبقى من الفرس ، واستئصال شوكتهم ، أينما وجدوا ، وقد حدثت معركة «بلاتا» أو « بلاط » في العام (٤٧٩) قبل الميلاد ، والتي تم بواسطتها تدمير الجيش الفارسي ، والتي

تزامنت مع معركة بحرية انتصر فيها الاغريق أيضاً على الفرس تدعى «ميسالي» ، وهكذا تمكن الاغريق ومن خلال هذه المعركة من درء الخطر الهجمات الفارسية لزمن طويل جدا ، ولحين ظهور القائد الكبير الاسكندر المقدوني الذي دخل هو الاخر بعد حقبة زمنية كبيرة معارك فاصلة ناجحة .

الهوامش :

(١) ب٠ هـ٠ ليدل هارت ــ الاستراتيجية وتأريخها في العالم ــ تقديم أكرم عزة ديري ترجمة الهيثم الايوبي ٠ منشورات دار الطليعة ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الاولى شباط ١٩٦٧ ص٤٩ ٠

(٢) الحرب في التاريخ مصدر سابق ص٨٢ ٠

(٣) المصدر أعلاه ص٧٨ ٠

(٤) الموسوعة العسكرية الرقم «٣» ٠ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ــ لبنان ٠ الطبعة الاولى ١٩٨٠ ٠ عدد من المؤلفين ــ ص٦٢٤ ٠

(٥) الحروب في التأريخ ــ مصدر سابق ــ ص٨٤ ٠

(٦) التاريخ العسكري مصدر سابق ص٣٧ ٠

معركة كانيا

المكر ، والخداع ــ والحيل التعبوية

عـــام

يقف المؤرخون العسكريون أمام معركة كانيا باجلال خاص ، لانها معركة تمثل الاستخدام الامثل لعقلية عبقرية فذة ، كانت مهيأة لقبول شتى أنواع المخاطر ، والمغامرات ، والتي اتضح بعد نهاية المعركة انها مغامرات محسوبة سلفا من قبل القائد الذي خاض المعركة .

المعركة وقعت بين كل من دولـــة قرطاجة التي كانت تتواجد في شمال أفريقيا ، وبالتحديد في تونس ، ودولة روما في ايطاليا الحالية في العام (٢١٦) قبل الميلاد ، وبها تمكن القرطاجيون من الوقوف على مسافة بسيطة من مدينة روما حاضرة الرومان من ذلك الدهر وحتى يومنا هذا .

ان معركة كانيا والحروب بين قرطاجـــة وروما من وجهة نظر الكاتب الفرنسي ميشال في كتابه «التاريخ الروماني» تعد صراعاً عنيفاً لا بين دولتين فحسب ، وانما بـــين جنسين من الاجناس البشرية ، همـــا الجنس السامي والجنس الآري ، ففي الجانب الآري يقف الرومان ، والجرمان ، وفروعهم بأوربا ، وفي الجانب الثاني الفنيقيون ، والقرطاجيون ، وهؤلاء بمجموعهم يمثلون العنصر السامي(١) .

القرطاجيون انحدروا من شواطيء لبنان ، واسطوطنوا شمال أفريقيا وبالتحديد في تونس ، الا أنهم سرعان ما قاموا بفتوحاتهم الشهيرة وصولا الى جبل طارق ، ومن ثم عبوره والاستيلاء على أسبانيا ، وعبور جبال البرنيس التي تفصل اسبانيا عن فرنسا ومن ثم الانحدار جنوبا نحو شمال ايطاليا ، والدخول في سلسلة من المعارك مع الرومان أهمها معركة بحيرة «ترانسمالين» التي انتصروا فيها على الرومان ، والانحدار نحو روما وصولا الى معركة كانيا التي نحن بصدد بين دور المخادعة فيها .

لقد كان «هملقار» ، وهو والد القائد القرطاجي العسكري العظيم «هانيبال» وأخوه «هستروبال» ، قد رضع الحقد على الدولة الرومانية ، وهذا أمر لا يؤاخذ عليه ، حيث أنه وكغيره من رجال عصره ، كانت تتنازعه أهواء وشهوات السيطرة على العالم ، ولذلك كان يعد العدة ، لكي يتمكن في يوم من الايام ، من تحقيق الحلم المنشود ، علما أن «هملقار» قد تأثر بسنيرة القائد الاغريقي الشهير فيليب ، وابنه الاسكندر المقدوني اللذين سبقاه قرنا من الزمن ، ولذلك كان يعد ولده «هانيبال» للقيام بدور مماثل لدور الاسكندر المقدوني ، لانه أصبح شيخا طاعنا ، وسرعان ما أدركته المنية .

وعى هانيبال الدور الذي يجب أن يلعبه في المستقبل ، الا ان الامور بين كل من الاسكندر وهانيبال عند المقارنة تبدو مختلفة ، حيث أن الاسكندر كان يستند الى قاعدة علمية ، وفلسفية ، وتدريبية مختلفة ، تخدم بدورها الاغراض العسكرية ، ولذلك كان الجندي المقدوني يختلف عن الجندي القرطاجي في بعض النواحي ، حيث أن الجيش القرطاجي كان يتكون لا من الفينيقيين فحسب ، وانما يضم بعض العناصر الاخرى من شمال أفريقيا فضلا عن الكثير من السود ، وهؤلاء عموما يتفاوتون في قواعدهم العلمية والفلسفية والتدريبية .

ان ما تنم عنه هذه المقارنة هو أن الرومان كانوا يتكونون من كتلة

متماسكة غير مجزأة ، بينما نجد أن الجانب القرطاجي يسوده عدم التجانس الذي يمكن أن ينجم عنه التفكك .

النقطة الاخرى التي يختلف بها الاسكندر المقدوني عن هانيبال ، هي أن الإسكندر كان يعد القائد المطلق للجيش ، بينما نجد أن القيادة في الجيش القرطاجي ، وان كانت معقودة رسميا لهانيبال ، الا انها كانت واقعيا مشتركة بينه وبين أخوه هستروبال ، ومن الطبيعي أن جذور هذا الامر مغروسة في أرض الواقع الذي أراده أبوهما «هملقار» ، ومن ثم العلاقة الوثيقة جدا بين الاخوين ، ولذلك نشاهد أن هانيبال قد قسم جيشه على قسمين يقود هو قسما منه تاركا أمر قيادة القسم الاخر الى أخيه .

دخل هانيبال معركة كانيا ، وقد تمرس في امور القيادة ، وارتفعت معنوياته ومعنويات جيشه ، فقد انتصر في «تيسينوس» ، وفي «ترابيا» و«ترانسيمالين» ، ولهذا فقد علم نقاط ضعف خصومه الرومان ، والتي من الممكن استغلالها الى أبعد الحدود في أي معركة مقبلة ستحدث معهم وصولا الى معقلهم الاخير المتمثل في العاصمة روما .

معركة كانيا ، ولعبقرية هانيبال العسكرية ، وتمرسه في فنون القتال كانت لصالح هانيبال ، الا ان النهاية في سلسلة المعارك لم تكن في صالحه مطلقا ، وهذا نابع من أن التخوم الايطالية استهوت هانيبال ، ولذلك لم يقم بمحاصرة روما ، كما لم يقم بأية محاولة للقضاء على الجيش الروماني ، بعد أن ربح معركته الاخيرة «كانيا» .

لقد بقى هانيبال مسترخيا في جنوب ايطاليا ، بما حصل عليه من مغانم ، وهذا ما حفز الرومان على الاعداد لحرب ضروس قادمة ، طويلة الامد ، ممكن أن يربحوها خلال معركة واحدة حاسمة .

بعد عشر سنين من عمليات التهيؤ تمكنوا من سحق هانيبال في عقر داره ، وكان قائدا هذه المعركة هما «كلوديوس نيرو» و «ليفيوس» .

المخادعـــة التي استخدمها هانيبال تختلف عن المخادعة المتداولـــة في الحروب السابقة ، والتي كانت تعتمد على ترويج معلومات عن خطط معينة كاذبة المحتوى يصدقها الجانب المقابل ، بينما يتصرف القائد المخادع خلافا لتلك الخطة المرسومة •

المخادعـــة الهانيبالية كانت مخادعة شخص واحد هو هانيبال ، وهي تصرفات تعبوية في ميدان المعركة عبر استخدامه للقطعات ، وتوزيعها بشكل مخادع ، مع اقتران هذا التوزيع بالمناورة ، التي تتسم بالمخادعة أيضا ، وهذا يعد قمة في الدهاء العسكري في تلك العصور •

لقد مزج هانيبال كل المعطيـــات المتسمة بالحيلـــة التعبوية ، مع قابلية الحركة التي كان عليـــه أن ينفذها خلال المعركة ، والتي تتطلبهـــا المناورة العملياتية والتعبوية والتي كانت تمتاز بالسرعة وخفة الحركة من أجل انجاز الغاية المطلوبة في أقصر وقت ممكن •

في ختام هذا المدخل العام للمعركة علينا أن نذكر أن الجيش القرطاجي ، كان جيشا أقل بكثير من الجيش الروماني ، كما وأن هذا الجيش قد أعطى بعض الخسائر في المعارك السابقة ، أما الجيش الروماني في هذه المعركة فان معظمه كان يتكون من جنود لم يصبهم التعب جـــراء المعارك ، لانهم عناصر نشطة جديدة ، ناهيك عن أن هذا الجيش كان يحارب فوق أرضه ، ولذلك فان فرص انتصاره والحالات المذكورة سابقاً ، أعلى من الجيش القرطاجي ، هذا ناهيك عن أن هذا الجيش كان أفضل تسليحا ، ومع ذلك كانت للعبقرية الهانيبالية العسكرية أدوارها في انجاز النصر ، وخلق الفرص المؤدية لـــه ، بالاساليب التعبوية والعملياتية •

التهيؤ للمعركة

كان هانيبال متهيئا نفسيا لتحطيم روما ، وكان قد حقن بمصل الحقد على روما من قبل أبيه هملقار ، من أجل انجاز هذه الغاية ، فقد كانت روما

بالنسبة اليه حلما مستمرا ، لما تتمتع به من قوة وازدهار ، كما وانها كانت تمثل المنافس الوحيد لدولته ، قرطاجة ، وبانتهاء روما ، سيكون القرطاجيون وعلى رأسهم قائدهم هانيبال أسياد العالم بدون منازع .

لقد أدرك هانيبال بكل فطنة ويقظة ، من ان الانتصار على روما لا يمكن أن يتم بسهولة ، وان عليه ، أن ينازلهم في عقر دارهم من أجل انجاز غايته ، وهذا يعد أمرا بالغ الصعوبة ، اذ ان المسالك المؤدية الى ايطاليا لم تكن وفيرة ، وانما تتمثل باثنين فقط هما : أولا التحرك بحرا من شمال أفريقيا والوصول الى جنوب ايطاليا والقيام بانزال في منطقة مختارة ، يؤسس بها قاعدة أمينة على الشاطيء ، يتحرك بعدها الى روما لمنازلة الخصوم ، وهذا المسلك يعد مسلكا محفوفاً بالمخاطر ، حيث ان عليه أن يؤمن سلامة الخطوط البحرية ، بغية الاستمرار في عمليات الادامة ، بالمواد التموينية الغذائية ، ولما كانت هذه المواد ضرورية جدا كلما بعد عن الشاطيء وتوغل شمالا ، وعليه فان ضمان تدفقها بصورة مستمرة يعد أمرا ملحا أيضا ، وعلى أية حال ، فان الظروف الموضوعية لا تتمكن في تلك المرحلة من ضمانها ، لان أي هجوم بحري على القاعدة القرطاجية لأعمال الادامة ، أو مهاجمة السفن الادارية سينجم عنه انقطاع هذه المواد ، وعليه فان التفكير في هذا المسلك كان يعد أمرا مميتا يؤدي الى ضياع قوة الانزال القرطاجية برمتها ، حيث يمكن أن تحاصر ، وتموت جوعا ، أو تبادر ، على أقل تقدير الى الاستسلام ، وهكذا استبعد هذا المسلك غير المضمون العواقب ، أما المسلك الاخر فيتمثل بالزحف برا من شمال أفريقيا باتجاه اسبانيا وعبور مضيق «جبل طارق» ، ومن ثم التوجه نحو روما ، ومن الجدير بالذكر ، أن القرطاجيين أسسوا مدينة على الشواطيء الجنوبية لاسبانيا أسموها «قرطاجة الجديدة» ، وعبر هذه المدينة تقدم هانيبال نحو الشمال بمحاذاة الشاطيء الاسباني ، وعبر جبال البرنيس الفاصلة بين كل من فرنسا واسبانيا ، في الوقت الحاضر ، ومن ثم الاستدارة شرقاً وعبور جبال «الالب» ،

التي تكلل هامتها الثلوج في معظم أيام السنة ، كما عبر بعض الانهر ، مثل نهر «ألبو» بغية الوصول الى روما ، وقد فعل كل ما تقدم هانيبال بنجاح تام ، وتخطى الصعاب التي صادفته .

ان سلوك هانيبال هذا المسلك الصعب ، قد قدم له أرباحا جمة أحدها وهو الاهم من جميعها ، انه وفي طريقه الى روما تمكن من تجنيد بعض المرتزقة معه ، ليضيف الى جيشه عناصر أخرى ، وكانت هذه العناصر المرتزقة شرسة الى أبعد الحدود لانها لا تفتش عن النصر بقدر ما تفتش عن الغنائم والاسلاب ، ولذلك فان خسارتهم معركة معينة لا يمكن أن تؤدي الى غايتهم المذكورة ، ولذلك فكانــوا يقاتلون بشراسة من أجل تأمين غايتهم بغيـــة الحصول على الاسلاب ، ومن الجدير بالذكر ، أن ننوه بأن معظم هؤلاء المرتزقة كانوا من بلاد «الغال» ، «فرنسا الحالية» ، والذين يكنون في صدورهم حقدا دفينا على روما .

لقد تعلم هانيبال منذ صغره فنون الحرب والقتال ، وتمرس فيهما من خلال بعض المعارك ، بيد أن أهم شيء في هذا الصدد والخاص بمعركة كانيا ، كان هو الشخصية القيادية لهانيبال نفسه ، اذ أنه شخصيته كانت تبهر جنوده ، وتقودهم الى طاعته طاعة عمياء ، وربما هـــذا ناجم من شدة بأسه وجبروته وبطشه ، حيث كان لا يتهاون مع أبسط الامور التي تخص العسكرية .

الفكرة التي كانت متجذرة في عقل هانيبال ، تتمثل بوجوب الاعتماد على المشاة الخفيف ، ذي اللياقة البدنية العالية ، مع الخيالة الخفيفة ، والسبب في هذا يعود الى طول خط التقدم ، أو بعبارة عسكرية دقيقة محور التقدم ، بين كل من قرطاجة الواقعة في تونس ، وروما التي تقع في شمال البحر الابيض المتوسط ، وما يحتوي هذا المحور «الخط» من عقبات وموانع وكوابح لا يتمكن الجيش الثقيل التجهيز من اجتيازها بسهولة ، وربما يمكن أن يقع الكثير من أفراد هذا الجيش ضحايا ، للتعب ، والبرد ، والمرض ، ولذلك فان

بنية الجيش القرطاجي صممت لملافاة الامور المذكورة أعلاه ، فضلا عن التجاذب النفسي بين القيادة والقطعات الهانيبالية ، التي سداها ولحمتها الثقة، والحماسة ، ونكران الذات .

اذا ما ذهبنا الى الجانب الروماني ، فسنجد أن الامر يختلف اختلافا جسيما ، وشاسعا من ناحية التهيؤ للمعركة وذلك لإختلاف النظام السياسي في روما عنه في قرطاجة ، حيث كان الحاكم القرطاجي حاكما مطلقا ، يقترب في حكمه من الدكتاتورية ، بينما نجد في روما أن مسألة الدمقراطية خاضعة للنقاش ، وقد فصلت روما الجيش في تلك المرحلة عن القيادة السياسية تقريبا، كما انها لم تؤمن بمبدأ القيادة العسكرية الواحدة ، اذ انها كانت تعطي القيادة القيادة العسكرية الى قائدين ، وذلك خوفا من مغبة قيام القائد الواحد بالاستيلاء على السلطة السياسية بالقوة .

ان المهم في الامر خلال مدة التهيؤ للمعركة ، هو أن الرومان كانوا يعدون جميع الذكور بين سن الرابعة عشرة ، والسادسة والاربعين من العمر ، خاضعين للخدمة العسكرية عندما تستدعي الظروف ذلك ، كما وأنهم كانوا يهيؤن الرجال بين سن السادسة والاربعين وصولا الى الستين ، كاحتياط عام ، ومن الجدير بالذكر أنهم فكروا في تلك الحقبة من الزمن «بالنفير» وكان النفير يجري عبر ميدان «مارس» وهو اله الحرب ، ويقع في أحد مناطق روما ، وذلك عندما يقوم مجلس الحرب بالاعلان عن ذلك .

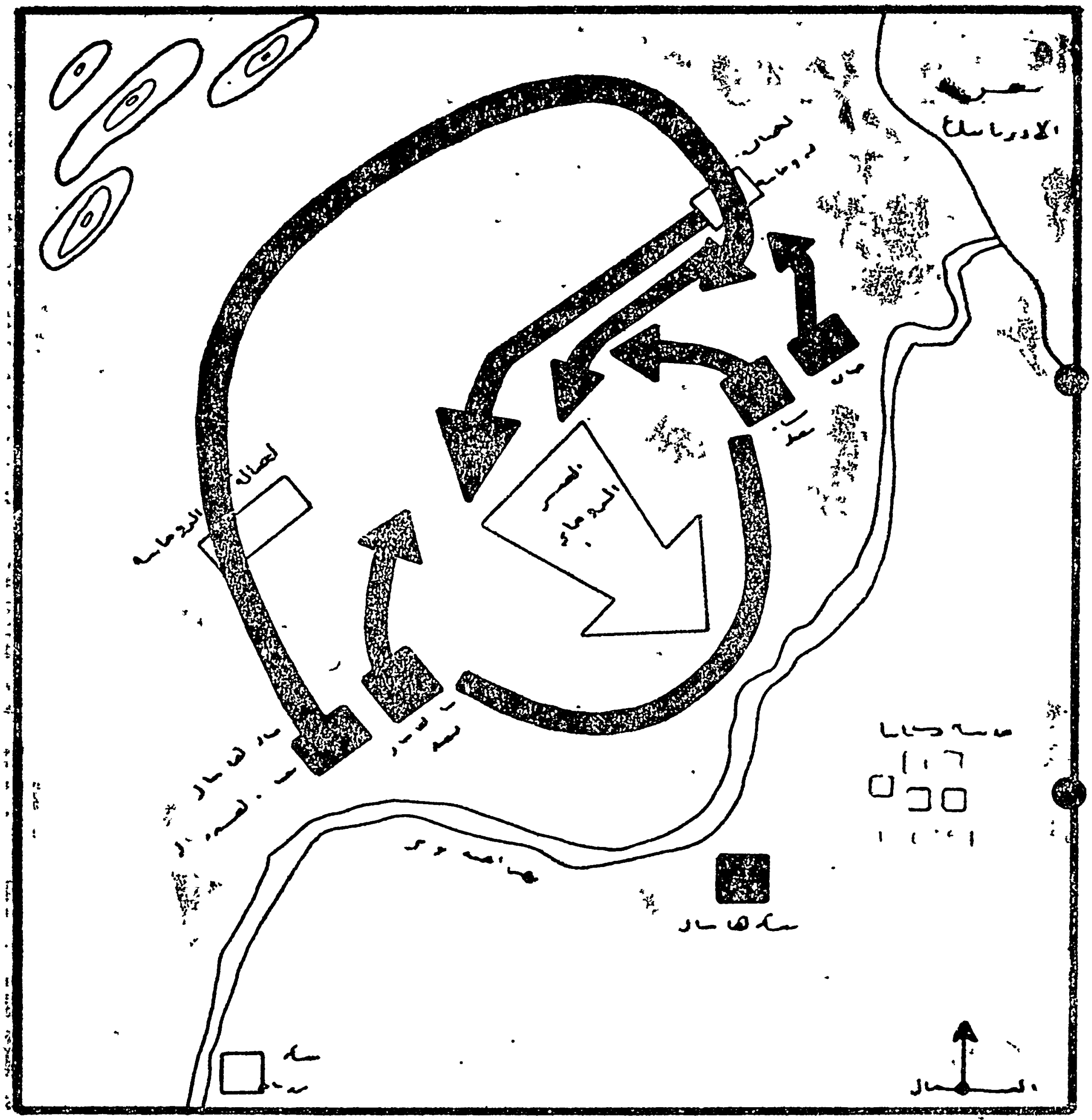
الحلقات المقاتلة في الجيش الروماني كانت تقسم على عدد من الاقسام تتمثل بالمشاة ، وهذا بدوره ينقسم على قسمين هما المشاة الثقيلة ، التي تتسلح بالدروع الواقية على الصدور ، والخوذة الحديدية في الرأس ، والمشابك الحديدية لدرء الخطر عن الايدي والارجل ، مع التسلح بالسيف والحربة أو أي سلاح آخر ، ومن الطبيعي أن مسألة التسليح تخضع للفرد نفسه ، وليس للدولة ، ولذلك نجد أن معظم من كان يقتني هذه الاردية هم من

الاغنياء ، أطلق عليهم اسم المشاة الثقيلة .

القسم الثاني من المشاة هم المشاة الخفيفة ، وهؤلاء لا يرتدون التجهيزات التي ذكرناها سابقا ، ومعظم المنتمين الى هذا الصنف من الفقراء التي لم تسمح لهم ظروفهم باقتناء هذه التجهيزات المكلفة ، وقد كان يطلق

معركة كانا - ٢ آب ٢١٦ ق الميلاد

المخادعة والاستدراج القرطاجي



الحصار التام للعسكر الروماني

عليهم تسمية «فيليت» النقطة الجديرة بالاهتمام ، التي يجب أن نذكرها في هذا الصدد ، هي أن الرومان قد آمنوا بأهمية القلاع ، والحصون ، والاسوار ، ولذلك كانوا يقومون بتحكيم منهم ، وتسويرها ، ولذلك كانت المدن الرومانية ومن ضمنها روما مدنا محصنة تجاه أي هجوم يمكن أن يقع عليها .

النقطة التالية في التهيؤ للمعركة كان يكمن في تشجيع السكان على المعركة علاوة على الواجب الوطني هو اعطاء الافراد الرواتب المجزية خلال المدة التي يقاتلون بها .

لقد خسر الرومان معارك متلاحقة قبل معركة «كانيا» ، ولذلك استنفروا الجميع ، وحشدوا قواتهم في منطقة «كانيا» ، وحصنوا روما الى أبعد الحدود خوفا من اقتحامها من قبل جحافل جيوش هانيبال .

هكذا كان التهيؤ للمعركة بالنسبة الى الجانبين .

جغرافية ميدان المعركة

المتتبع عموما لجغرافية ايطاليا ، سيجد أمورا كثيرة بارزة وواضحة ، من أهمها أن ايطاليا تشكل شبه جزيرة ، وهي كما أطلق عليها ونستون تشرشل «حذاء الجندي» للتشابه بين الاثنتين ، وتحتوي على المناطق الجبلية ، والانهار والسهول ، والشواطيء ، ولذلك فهي تعبر عن نكهة جغرافية لها خصوصيتها ، كما انها تشكل بمعنى آخر مستطيلا من الارض مغروزا في خاصرة البحر الابيض المتوسط ، بعمق كبير .

اذا ما أخذنا منطقة المعركة في كانيا سنجد أن المنطقة تقع في الجزء الشرقي من ايطاليا ، وهي بالتحديد تقع على البحر «الادرياتيكي» ، خلافا لروما التي تقع في الجزء الغربي من شبه الجزيرة الايطالية .

المنطقة عموما ساحلية ، وتقدر مساحتها بثلاثة الى أربعة كيلومترات من الارض المنبسطة ، بينما المناطق المحيطة بها تعد مناطق جبلية ، أو أراضي

مرتفعة وعرة ، ففي الشمال ، والشرق تقـع جبال «الابنين» ، أما في منطقة المعركة فيقع نهر «أوفيديوس» ، الذي يشكل بالقرب من كانيا قوساً يستدير بظهره الى البحر ، وهذا يعني أن الجانب الذي سيدافع أمامه ، عليه أن يجازف مجازفة محسوبـة ، وان من فوائد ذلك عدم امكانية تطويقـه من الخلف بسهولة ، أما الشيء الآخر ، وهو الاخطر ، فانه في هذا الوضع واذا ما اخترق بعد أن تضعف دفاعاته ، فانه سيكون عرضة للفرق وذلك لعدم وجود فسحة أرض للتراجع .

السهل الساحلي المذكور كان ضيقا ، ولا يزيد عرضه على أربعة كيلو مترات في الجبهة والعمق ، ومع ذلـك ، فقد كان كافيا لاستيعاب الجيوش الراكبة والراجلة لتلك المرحلة ، والتي ليست لها سياقات انفتاح كبيرة ، كما هي في الوقت الحاضر ، وهذا ناجـم عن الاسلحة البسيطة المستخدمة والتي كانت مكرسة بصورة عامة لمهمات الاشتباك القريب .

نهر «أفيديوس» بصورة عامة ، ينحدر من الشمال للجنوب ، ولكنه عند «كانيا» ينعطف نحو الغرب بصورة مفاجئة ، ليكون زاوية قائمة تتجه نحو الغرب .

قوات الطرفين

جميع المصادر تتقارب فيما بينها على حجم قوات الطرفين ، حيث تؤكد هذه المصادر ومنها موسوعة التاريخ البريطانية أن قوات الرومان كانت بين ثلاثة وسبعين ألفاً ، أو سبعين ألفاً ، وهذا الامر تؤكد عليه المصادر الاخرى ، وعلى أية حال ، فان روما ، كانت قد بسطت نفوذها على الكثير من المناطق في تلك المرحلة ، لذلك فان أمر التجنيد لديها لم يكن صعبا ، ومما تجدر الاشارة اليه ، أن روما ، قد تمكنت من أن تجمع هذا العدد من الجنود بعد أن خسرت ثلاث معارك سابقة مع هانيبال ، وهذا يعد من الامور التي لا يمكن اغفالها مطلقا لما لها من تأثير على المعركة المقبلة .

النقطة الاخرى في مادة قوات الطرفين التي تخص الجانب الروماني تتمثل ، من أن الرومان قد آمنو بالتنظيم الفرقي ، وكانوا يستخدمون هذه الفرق بالعمق ، أي فرق متواجدة بالجبهة وخلفها فرق أخرى ، وهذا الترتيب يؤمن قوة اضافية للقائد ، حيث ان الفرقة المتواجدة في الجبهة يمكن أن تسندها الفرق التي خلفها ، كما وان أمر اختراقها يعد أمراً صعباً في ذلك الزمن ، الذي كان عماد الخرق فيه هو الجندي الراجل ، والخيال الراكب .

الرومان فضلا عن امتلاكهم (٧٣٫٠٠٠) جندي راجل، كان لديهم حوالي سبعة آلاف أو أكثر من الفرسان ، وهذه تكون خمس عشرة فرقة ، علما بان فرقة المشاة لدى الرومان كانت تتكون من (٦٠٠٠) جندي فضلا عن (٣٠٠) من الفرسان ، وهذا يعطي دعما للمشاة ، كما وان بامكان الفرسان استغلال أية نقطة ضعف في الجانب المقابل للنفاذ منها .

فرق المشاة الرومانية خلال القتال تكون على شكل مربع ، وهكذا ، وعلى وفق هذا التنظيم كانت الجبهة عبارة عن مربعات من الكتل البشرية المقاتلة ، تعقبها من الخلف مربعات أخرى من الفرق ، وهذه الفرق يقودها قائد واحد فقط ، بخلاف الجيش الذي كان يخضع بقيادته لقائدين ، وهذا يعني أن الفرقة خلال القيادة الموحدة ستكون أكثر تماسكا عند الاشتباك الفعلي مع العدو .

اذا عرجنا على الجيش القرطاجي ، سنجد أن المصادر التاريخية تذكر انه قبل أن يدخل المعركة هذه والمعارك التي سبقتها يتكون من أربعين ألف مقاتل مع سبعة وثلاثين « فيلا » ، إلا ان المعارك الثلاث التي سبقت معركة كانيا ، استنزفت جزءا من هذه القوات ، ولذلك فيمكن تقدير قوة هانيبال قبل المعركة بأربعة وثلاثين ألف مقاتل أو يزيد عليها أو يقل عنها بأرقام يمكن أن تكون مهملة ، علما بأن من ضمن هذا الرقم كانت الخيالة تشكل ما مجموعه عشرة آلاف فارس ، وهذا يعد رقماً متفوقاً على رقم الخيالة الرومانية ، التي كانت لا تزيد على خمسة آلاف خيال .

الجيش القرطاجي ، عموما ، كان أصلب من الجيش الروماني ، وذلك للياقته البدنية العالية ، التي أصبح عليها نتيجة مسيرته الطويلة ، واجتيازه للمصاعب الجمة التي صادفته خلال المسيرة المذكورة •

هكذا كانت قوات الطرفين •

الخطة الرومانية

كانت الخطة الرومانية تعتمد على استدراج الجيش القرطاجي نحو جنوب ايطاليا ، مع أبعاده عن روما ، لذلك فقد انحدر الجيش الروماني نحو الجنوب بعد مسيرة محاذية للبحر الادرياتيكي حتى وصوله الى منطقة «كانيا» ، وهي كما أسلفنا منطقـة ضيقة ، علما بان الرومان قد وضعوا قواتهم أمـام نهر «أفيديوس» على النحو الاتي بقيادة «فارو» •

١ ـ ثلاثة خطوط متعاقبة من المشاة في الوسط ، وهؤلاء عبارة عن فرق تقوم بعملية الهجوم الجبهوي ، وقد أفـرز للهجوم قوة تقدر بـ (١١ر٠٠٠) جندي ، عليها أن تقوم بإبادة الوسط القرطاجي •

٢ ـ بعد نجاح الهجوم الجبهوي أعلاه ، وحصول الخرق ، وتزعزع المواقع القرطاجية يقوم بزج الخط الثاني والثالث بأسرع ما يمكن •

٣ ـ القوات التي تعقب الهجوم الاولي تقدر بـ (٦٠ر٠٠٠) جنـدي ، وهذه كافية لتدمير مشاة القرطاجيين المقدرة قوتهم بـ (٣٢ر٠٠٠) جنـدي ، أي أن قوات الرومانيين يمكن عدها ضعف قوات هانيبال •

٤ ـ توجد في الاجنحة الرومانيـة (٤٨٠٠ـ٥٠٠٠) خيال في الجانب الايسر ، و (٢٤٠٠) خيال آخر في الجانب الايمن ، وهذه عليها استغلال الموقف والقيام بعمليات تدمير الاجنحة الهانيبالية •

٥ ـ الخطة أعلاه عموما لم تراعي القوة المقدرة الهائلة للخيالة القرطاجية بل اعتمدت أصلها على تفوقها في المشاة الراجل •

٦ ـ المعسكر الروماني العام ، يقع في الجناح الايمن ، وعلى مسافة بسيطة منه المغرمة بالتحصينات ، والاسوار ، بغية قلب هجومهم الى دفاع قصير أو مما يؤمن امكانية الانسحاب اليـــه ، حيث كان الرومان من الشعوب المغرمة بالتحصينات والاسوار بغية قلب هجومهم الى دفاع قصـــير أو طويل الامد إذا ما فشل الهجوم المذكور ، وحسب متطلبات الموقــف العسكري وحالة توازن القوى .

الخطة القرطاجية

كان هانيبال ذكيا في الامور العسكرية الى درجـــة مدهشة ، حيث أنه عندما انحدر نحو كانيا ، لم يدر بخلده ، ما سيدور في تلك البقعة الايطالية ، وان جل تفكيره ، كان منصبا على تدمير الجيش الروماني ، وتحرير الايطاليين من سيطرة روما ، وهذا الرأي قد جاهر به مرارا وتكرارا .

لم يتصور هانيبال كيف سيكون شكل المعركة المقبلة ، الا انه عندما وصل الى كانيا ، وجد الامور ، وقد رتبها القائد الايطالي لتكون في مصلحته ، أي لمصـــلحة الجيش الايطالي ، لذلك بادر هانيبال الى دراسة خطـــة عدوه الواضحة بعناية فائقة ، من أجل التغلب عليها بخطة مقابلة ، بامكانها أن تتصدى لخطة العدو ثم افشالها ، لذلك خطط بذكاء لاجراءات تتكون تفصيلاتها مما يأتي :

١ ـ وضع خط من المشاة في الوسط ، بحيث يتوزع على شكل قوس بسيط ، مرن ، خفيف الحركة سريعها ، وهذا يعني أن امكانيته على التراجـــع ستكون سهلة ، وأفضـــل من الخط الكثيف والعميق ، لان مثل هذا الخط لن يتمكن من الانسحاب بسهولة ، وقد كانت تتكون قوة هذا الخط من الاسبان ، والغال .

٢ ـ وضع مجنبات لخط الوسط ، وهذه المجنبات كانت تتكون من عناصر أفريقية مختلطة ، العبيد ، البربر ، والقرطاجيين ، وقد أصر أن تكون

هذه المجنبات قوية ، وبامكانها أن تلقي الصدمة والثبات في أماكنها عند الاشتباك المسلح .

٣ ـ وضع الخيالة القوية ، بقيادة أخيه هستروبال في أقصى الجناح الايسر ، وأمام الخيالة الرومانية الضعيفة ، وكانت تتكون هذه القوة من(٨٠٠٠) خيال قرطاجي ، يقابلهم في هذه الجبهة (٢٥٠٠) خيال روماني . وهذا يعد محور التفوق في العملية ، حيث ستتمكن القوة القرطاجية الراكبة ، أي الخيالة من كسر جناح الرومان الايمن بسهولة نسبية ، ومن ثم القيام باستغلال هذا الوضع وتطويره الى عملية تطويق .

٤ ـ وضع خيالة متوازنة في أقصى الجناح الايمن ، تتمكن من موازنة خيالة الرومان ، ومن ثم التغلب عليها ، وقد وضع (٢٠٠٠ خيال قرطاجي ازاء (٤٨٠٠) فارس روماني .

٥ ـ كانت الخطة القرطاجية تتضمن الانسحاب المنظم التدريجي من منطقة الوسط ، واتاحة الفرصة للرومان للتقدم من هذه المنطقة نحو النهر ، وبهذا العمل سوف ينقلب وضع القوس المحدب في الوسط الى وضع مقعر ، بغية اعطاء المجال للقوات الرومانية بالتدفق .

٦ ـ في الوقت نفسه يقوم هستروبال بالهجوم على الجناح الايمن الروماني بخيالته ، ومن ثم تطوير هذا الهجوم الى عملية تطويق ، بعد أن يكون الرومان قد نفذوا في القوس ، حسب المدى المرسوم .

٧ ـ تقوم القوات الافريقية باستغلال الوضع ، أيضا ، والقيام بعملية التطويق بالاشتراك مع الفرسان بحركة مشتركة .

٨ ـ قيام فرسان الجناح الايمن القرطاجي بالمعاونة في اكمال عمليات التطويق بعد طرد الفرسان الرومان .

٩ - اكمال الطوق من كل الجهات وابادة القـــوة الرومانية المتواجدة داخل الطوق المذكور .

المخادعة القرطاجية

تعد المخادعة التي صممها هانيبـــال أول مخادعة عسكرية تعتمد على الأسس التعبوية ، ساحتها الاساسية ، هو ميدان المعركة ، كمنفذ حقيقي من أجل بلورتها وتجسيدها ، خلافـــا للخداع الذي كان ينادي به الفيلسوف الصيني «سانتسو» ، وغيره من المفكرين العسكريين ، والذي كان يعتمد على معلومات تسبق المعركة وأخرى تروج خلال المعركة .

المخادعة الهانيبالية أساسا جاءت ، على وفق تصور هندسي لقطعات ، وحوادث متلاحقة ، فالوسط الخفيف المقدس الى الخارج لم يكن أمرا مألوفا وشائعا ، أو حدثا فكر به أحد من قبل ، كما أن ترصين هذا الوسط بمجنبات قوية جدا لم يكن هو الاخر أمرا متغارفا عليه ، ولذلك فان التوزيع الهنيبالي وضمن التطور العام للخطة يمكن عـــده هندسيا الى أبعد الحدود ، مجمل العملية الهندسية أن يصبح القوس دائرة من البشر تطبق على الخصوم .

النقطة الاخرى الجديرة بالملاحظة هي أن هانيبال قد وضع الخيالة في أخصى المجنبات وبشكل تتمكن فيه من ازاحة الخيالة الرومانية ، وهو بهذا العمل كان يضمر أشد ما في الحرب من مخادعة ، حيث أن الخيالة كانت ستقوم بمناوشة الرومان وتثبيتهم لمدة محـــدودة ، بينما سيسمح للرومان التقدم في الوسط بكل طاقاتهم ، وعند ذلـــك ستقوم الخيالة الهانيبالية بسحق الخيالة الرومانية ، وتطويق مجمل القوة الرومانية من الخلف وابادتها .

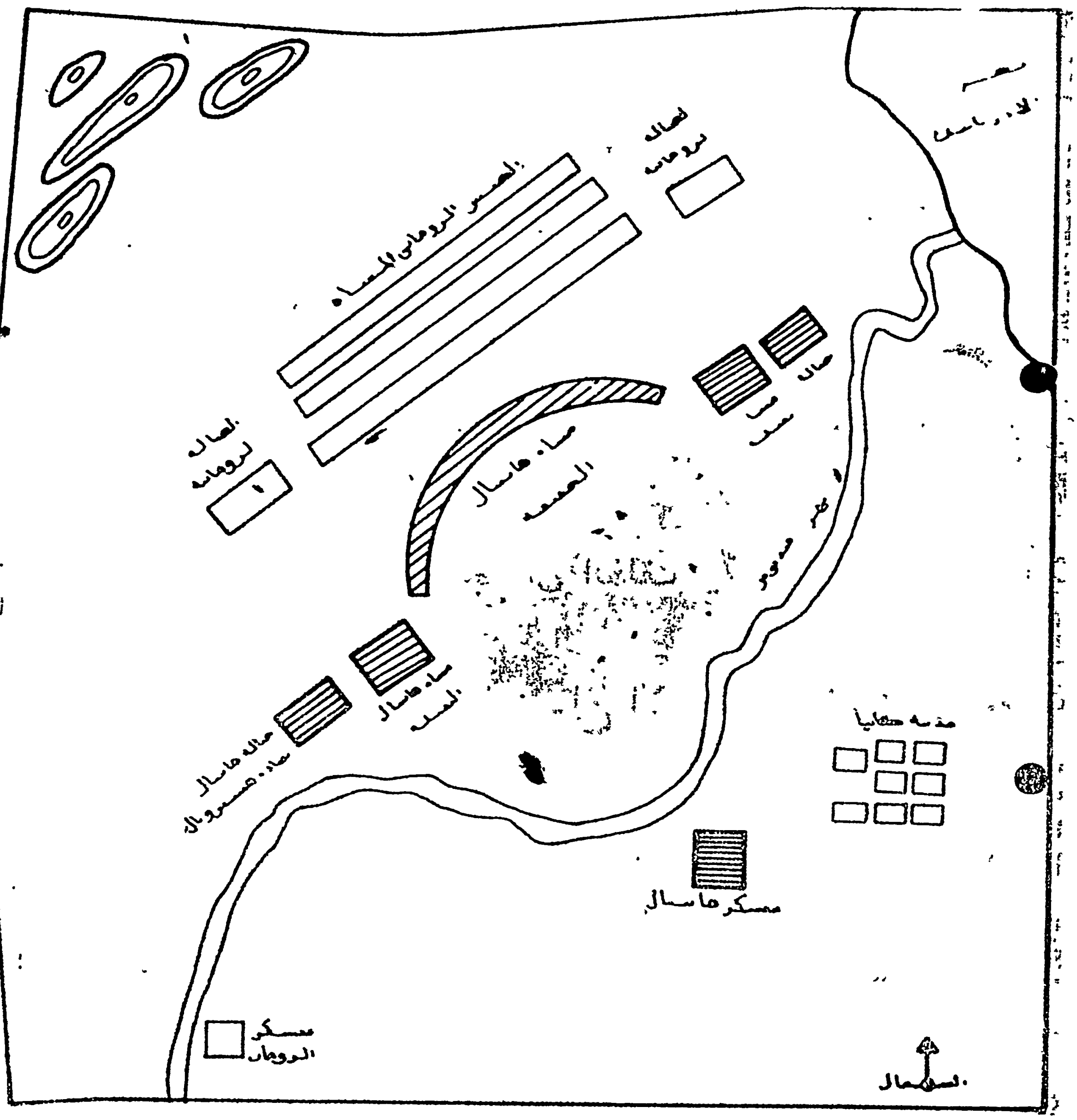
النقطة الثانية في نهج المخادعـــة الهانيبالية ، والتي علينا أن نقف عندها كليا ، تكمن في أن منطقة المعركة صـــغيرة جدا ، ولذلك يصعب على الجانب المحاصر ، من المناورة ، والافلات من الطوق بعـــد كسره ، كما وان المنطقة

ستفيد بصورة عكسية هانيبال الذي سيتمكن بقوة صغيرة من تطويق قوة كبيرة ، وهذا نابع عن محيط الدائرة الصغير للجانب المدافع ، والتي لا تساعد منطقة المعركة من توسيعه •

الجانب المهم في خطة المخادعة هـــو أن هانيبال درس جغرافية ميدان المعركة بصورة جيدة جدا ، اذ لو كانت المنطقة واسعة ، وفتح الرومان جيشهم البالغ عدده خمسة وسبعين ألفا من المشـــاة ، علاوة على الفرسان ، لما تمكن هانيبال من استدراجه بهذا الشكل ، وكان يمكن ، في أقل تقدير ، أن يتمكن الجيش الروماني من الافلات من قبضة التطويق ، وتخليص معظم القوة •

مما تقدم يمكن أن نستنتج استنتاجا مهما ، وهو أن المخادعة العسكرية في ميدان المعركة عليها أن لا تغفل مطلقا الوضع الجغرافي ، علاوة على الاوضاع والعوامل المتحكمة الاخرى ، كالقوات المعادية ، وتسليحها ، وانفتاحها ، وحتى تفكيرها الاجتماعي ، ومستوى تدريبها ، لان كل هذه العوامل تعد مفردة قابلة للاستغلال في عملية المخادعة المتقنة ، وهنا علينا أن نذكر قول الكاتب

(١١)
معركة كاناي ٢ آب ٢١٦ قبل الميلاد



معركة كاناي - نفذ فيها هانيبال بواسطة المخادعة التمويهية
وهي أول نوع من أنواع المخادعة التي تنفذ في
ميدان المعركة

العسكري «أريك موريز» حول المخادعة الهانيبالية الذي ينص على ما يأتي:
«كان الوصول الى لحظة الحدث التي يضطرب بها تشكيل العدو ،

ويغدو في موقف حرج ، يتم بالمشــاغلة ، أو بنصب فخ كبير ، وهكذا خلق هانيبال نوعا من الخداع يستدعي الانتباه»(٢).

سير المعركة الحقيقي

يمكن أن نعد المعطيات الحقيقية التي جاءت في معركة كانيا ، كانت تعبر عن الخطة الهانيبالية ، وتجسدها من الفكر الى حدود العمل الواقعي المتقن والمبدع في آن واحد ، كما أن مفردات المعركة لم تخرج عن الاطر التي رسمها في ذهنه هانيبال •

لقد أفتتحت المعــركة بمناوشات بسيطة من قبل الفرســان في أقصى الاجنحة ، وذلك من باب جس النبض ، لكل الطرفين ، الا ان الجناح الايسر القرطاجي ، بقيادة هستروبال سرعان ما شعر بوهن الخيالة الرومانية ، ولذلك كثف الضغط عليها مما جعلها تتراجع الى الخلف ليطاردها ويمعن فيها قتلا وأسرا ، حتى تمكن في نهاية المطاف من ازالتها كليا من ساحة المعركة ، ثم تابع عملية التطويق باحاطة واسعة نحو الجنــاح الأيسر الروماني ، حيث كانت الخيالــة القرطاجية في هذا الجناح تتكون من رقم عددي أقــل من الخيالة الرومانية بكثــير ، وبهذا العمل فانه قام بدعمها مما شــجعها على الصمود والقتال •

ان الخيالة الرومان المتواجدين في هذا الجناح بوغتوا بتواجد خيالة قرطاجية خلفهم ، وهذا ما سبب لهم الخوف أولا ، ومن ثم الهلع الكبير ، الذي جعل أداءهم القتالي محدودا ، وبالاخير فرارهــم الى الخلف وترك مجنبات المشاة الرومانية بدون حماية •

أما في منطقة الوسط فقد هاجم الرومان ، المشاة القرطاجية الخفيفة ، فارتدت الاخيرة الى الخلف وشكلت جيبا تدفقت به المشاة الرومانية ، بيد أن الرومان لم يتمكنوا من خرق هذا الجيب ، ومع كل هذا فقد استبشر الرومان

بهذا النصر المرحلي ، معتقدين ، أنهم بعد هذا الهجوم الناجح ، أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من النصر في هـذه المعركة ، ولذلك زج قائدهـم القوات المتواجدين في الخطين الثاني والثالث في المعركة .

في هذه اللحظة ، أرسل هانيبال مشاته الثقيلة المتواجدة على مجنبات الوسط ، والمتكونة من الافريقيين والقرطاجيين للقيام بعملية تطويق القوات الرومانية التي توغلت في الجيب القرطاجي المذكور ، وقد نجحت هذه القوات في مسعاها الى أبعد الحدود ، وهنا جاء دور الخيالة بقيادة هستروبال ، الذي ساعد المشاة الثقيلة ، وأحكم الطـوق على القوات الرومانية ، التي انقلبت صيحات فرحها الى نداءات استغاثة مريرة ، حيث أصبح أمر قتلهم أو أسرهم أمرا محققا بعد أن فقدوا أدنى فرصة للافلات من الطوق الناجح المطروق حولهم .

لقد قدرت المصادر المختلفة الخسائر الرومانية برقم يقع بين (٦٠-٧٠) ألف قتيل وأسير ، ونعتقد أننا لا يمكـن أن نجزم حول رقم يحمل الحقيقة لمعركة وقعت منذ وقت طويل جـدا ، ولكن اتفاق المصادر حول هذا الرقم يجعلنا مقتنعين باعتماده لاسيما إذا ماقمنا بدراسة الكثافة السكانية في تلك المرحلة ، والتي تبين لنا ، أن روما بعد أن قامت بتوحيد الولايات الايطالية تمكنت من أن تؤمن جيشا يربـو على (١٠٠ر٠٠٠) جندي ، كما أن اعتماد هانيبال على الاسبان والقلة من الغالين جعلته يؤمن جيشا بحدود (٥٠ر٠٠٠) مقاتل .

النقطة الجديرة بالدراسة هي أننا نوهنا الى وجود «الفيلة» في الجيش القرطاجي ، ولكننا لم نتمكن من العثور على مصدر واحد يؤكد وجود هذه الفيلة في المعركة ، التي نحن بصددها ، وهذا يعني أن الفيلة ، اما أن تكون قد نفقت خلال الرحلة الطويلة من تونس حتى ايطاليا ، أو لم يجر استخدامها مطلقا ، كما يمكن أن نقول ، وهذا مجرد رأي ، من أن الفيلة عهد اليها واجب حراسة المعسكر القرطاجي مع عدد قليل من الجنود .

كانت قطعات قرطاجية منفتحة انفتاحا جيدا ، ولذلك تمكنت أن تمتص زخم هجوم «الليجونات» الكراديس الرومانية ، وهكذا تمكن جيش تعداده أقل من نصف تعداد جيش معاد ، من التغلب عليه وتدميره ، وذلك عبر خطة ذكية متقنة ، كان حجر الزاوية فيها هو العمل المخادع في شكله التعبوي •

الخطأ الذي اقترنه القائد الروماني في هذه المعركة هو الهجوم الجهدي، والذي استنفذ فيه زخم المشاة ، من دون الاعتماد على المناورة •

لقد كانت «كانيا» حقا معركة تمثل مجزرة بشرية لم ينج فيها من الرومان الا القليل ، حيث ابتلعت سيوف قرطاج أرواح الرومان •

نهاية المعركة

بعد أن انتهت المعركة ، بقي هانيبال قابعا في جنوب ايطاليا ، من دون أن يهاجم روما ، وقد لامه الكثير من المفكرين العسكريين على هذا السلوك ، الا أن الثابت ، هو أن هانيبال ، كان لايريد سوى اذلال روما ، وذلك بوساطة تأليب المدن الايطالية عليها ، كما كان يبغي أن يقيم نوعا من المعاهدات التي تؤمن مصالح الرومان ، ومصالحه في الوقت نفسه ، وبعبارة أخرى أن هانيبال توصل الى فكرة اقتسام العالم في تلك الحقبة من الزمن مع روما •

كان هانيبال قائدا عملياتيا وتعبويا محنكا ، ولكنه كان يفتقد النظرة السوقية «الاستراتيجية» ، ولذلك مثلا نشاهده يترك عاصمته في «قرطاجة» في تونس في شمال أفريقيا ، ويؤسس مـــع أخيه هستروبال قرطاج أخرى في اسبانيا ، علاوة على بقاءه ولمدة عشر سنين متوالية على رأس جيشه في ايطاليا ، ولم يتحرك منها الا بعد أن وصلت اليه اخبار تشير الى ابحار قوة رومانية نحو عاصمته في شمال أفريقيا •

ان النقد الموجه الى هذا القائد هو أن القائد الذي يجمع في يديه السلطتين العسكرية والسياسية ، كان من المفروض أن يبقي أحد قادته الموثوق بهم في

ايطاليا على رأس الجيش ، ويعود هو الى بلاطه في قرطاج لتعزيز الحملة بعناصر جديدة من الجنود والامدادات لتمتين حالة الجيش الرابض هناك ، وكان ، من الممكن وعلى أقل تقدير أن يترك أخوه هستروبال للقيام بهذا الواجب .

لقد كان روما تعرف أن الوقت ان جرى ، فانما يجري لصالحها ، حيث ستتمكن من أن تجمع شبتات جيشها مرة أخرى بغية تنفيذ عمل عسكري مقبل، وهي تعرف انها محصنة الى أبعد الحدود ولا يمكن اقتحامها بسهولة وبسرعة، الا بعد أن يخطط لهذا العمل بشكل جيد ، ومكثف ، وهذا يعني ، وزيادة بالتأكيد ، ان على هانيبال الرجوع الى قرطاجة من أجل التهيئة المفصلة لهذا الاقتحام الصعب .

ان ما حدث بعد ذلك هو ان روما جهزت حملة هدفها قرطاج نفسها ، وأبحرت هذه الحملة نحو شمال أفريقيا ، فلحقها هانيبال ، وقد وقعت معركة هناك كان النصر فيهـــا من نصيب القائد الروماني «ســـيبون» ، الذي دحر هانيبال في معركة تدعى معركة «زاما» ، والتي تعد فاتحة العهد بازالة الحكم الفينيقي من شمال أفريقيا ،ومن الجدير بالذكر أن شقيق هانيبال «هستروبال» قد قتل قبل هانيبال في أحد المعارك التي سبقت أفول قرطاجة .

المراجـــع

(١) حنا خباز ـ المعارك الفاصلة في التاريخ ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ـ لبنان ومكتبة النهضة • المعركة فيهـــا بعض التفاصيل في الكتاب المذكور كشمل جوانب أخرى منها •

(٢) ايزيك موريز ـ مدخل الى التيار العسكري ـ تعريب : أكرم ديري ، والمقدم الهيثم الايوبي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ لبنان • الطبعة الثانية ١٩٧٩ ص٣١١ •

(٣) كانت الفيلة في العهود المنصرمة تشكل جزءا من القوة وخصوصا في مناطق الشرق وشمال أفريقيا لانها توجد في هذه المناطق : أما في أوربا فلم نجد أية اشارة حولها لانها بعيدة عن أماكن تواجدها المتسمة بالحرارة ، وربما تكون الفيلة المذكورة لم تلائمها درجات الحرارة هناك أو المناخ ، ومع ذلك فان تأريخ وقوع المعركة يشير الى أن الطقس كان حارا حيث وقعت المعركة في شهر آب ، ولذلك فيمكن أن يكون هناك سبب غير الحرارة جعل هذه الفيلة لا تشترك في القتال •

معركة القادسية الاولى
المخادعة النفسية العربية
المميتـــة
التي جسدت الفكر العسكري العربي
في أبهى صوره

عــــام

مهما كتب عن معركة القادسية الاولى ، فانها تبقى معركة متشعبة الابعاد عظيمة المعاني ، رائعة العطاء ، لانها لا تحتوي على دروس عسكرية جمة لايمكن أن تأخذ جميع أبعادها بصورة كاملة ، لان بعض التفاصيل الصغيرة دفنت مع من أستشهد من العرب المسلمين ، أو مع من قتل من الفرس ، والتي كانت ستضيف الى المعركة أبعادا أخرى تكمل الأبعاد التي وصلت الينا .

إن معركة القادسية معركة طويلة وكبيرة استمرت ثلاثة أيام ، ولذلك لن نذكر جميع التفاصيل المتعلقة بهــــا عدا ما يتصل بموضوع الكتاب وهو المخادعة .

معركة القادسية الاولى معركة من طراز خاص ، حيث يمكن عدها أول معركة « كتل قتالية » يخوضها العرب ضد خصومهم ، فلم يكن للعرب عهد بالقتال الكتلوي المتمثل بالكثافة البشرية بهذا الشكل ، فضلا عن مواجهة أسلحة جديدة في الحرب ، متمثلة بالفيلة ، والعربات ، والتي كانت تمثل أبعادا

لم يكن العرب قد ألفوها ، فهم لا يعرفون سابقا كيف يقاتلون الفيلة ، فالفيلة ، وان كانت قريبة من أسماع العرب في الجزيرة الا انهم لم يعرفوا كيف يجابهونها في ساحة المعركة ، ولذلك شكلت خلال هذه المعركة ومنذ ساعاتها الاولى ، مغطلة كان عليهم حلها بأسرع ما يمكن للحصول على النصر في المعركة .

ان القتال ضد الفرس ، كان قديما ، ولم تكن القادسية الاولى هي المعركة الافتتاحية بين العرب والفرس ، حيث كان القتال سجالا بينهما منذ أقدم العصور ، الا ان القادسية الاولى كانت معركة ذات نكهة خاصة ، فهي ليست معركة بين العرب المسلمين ، والفرس المجوس ، وانما بين العرب حملة الرسالة الانسانية ، والفرس المتسلطين على رقاب العرب في العراق .

لقد كانت هناك جملة من المعارك سبقت معركة القادسية في تلك الحقبة الزمنية ، وأهمها معركة «ذي‌قار» ، التي انتصف بها العرب من الفرس[١] ، والتي بينت وبما لا يقبل الشك الاصرار العربي عندما يريد أن يحقق ذاته ، وعندما توجد القيادة الواعية التي بامكانها ان تنظم هذا الاصرار وتحيله الى زخم قتالي عارم موجه باتجاه أعداء الامة العربية ، لأن العربي شغوف بحريته ، ولا يريد أن يكون عليه أوصياء غرباء مهما كانت جنسياتهم ، ومهما أوتوا من قوة .

الملوك الذين حكموا العراق قبل المعركة كانوا من المناذرة ، وكانوا لايألون جهدا في سبيل التخلص من الحكم الفارسي ، الذي كان يهيمن على العراق بشكل أو بآخر ، غير أن أهم هؤلاء الملوك المناذرة كان النعمان الثالث ، والذي كان يلقب « بأبي قابوس » ، والذي تميز عهده بالرخاء ، والاشعاع الفكري ، حيث أنه كان من المفكرين الذين الذين لديهم بعض المؤلفات القيمة[٢] ، والذي امتدت مناطق حكمه لتشمل بقاعا كثيرة وصلت الى شرقي نهر دجلة .

ان هذا الملك العربي قد جاهر بعدائه للفرس ، ولذلك سرعان ما قتل على يد الملك الفارسي «كسرى أوبروزير» عبر مؤمراة فارسية قذرة ، استخدمت أخاه وبعض الشخصيات الاخرى •

لقد بلغ من صلف الفرس أن طلبوا من النعمان الثالث أن يتزوج كسرى وولده من بعض عياله ، وكان هذا أمرا لا يمكن أن يسكت عليه الملك العربي، حيث كان العرب يستنكفون أن يتـــزوج الاعاجم من بناتهم ، لذلك ذهب النعمان الى هاني بن مسعود الشـيباني ، وأودع عياله عنده ومن ثم امتطى راحلته قاصدا المدائن الذي يتربع كسرى كملك في ايوانها •

عندما وصل النعمان الثالث المدائن ، قام كسرى بسجنه ، ومن ثم قتله ، ناقضا العهد الذي أعطاه لبعض العرب من أنه لن يقاضيه ، وهكذا كان الغدر الفارسي متأصلا في قرارة هذا الملك •

اذا ما قمنا بمتابعة الحكاية ، سنجد ان الملك الفارسي كسرى طالب بعد قليل من هاني بن مسعود الشيباني أن يسلمه الودائع النعمانية التي لديه ، وقد رفض مسعود تسليم الامانة ، ولهذا فقد تهيأ كسرى لتنفيذ مآربه بالقوة، التي جابهها العرب بالقوة أيضا بعد استعدادات مكثفة ، وكان نهايتها انتصار عربي عملاق على الجيش الفارسي ، وهنا لابد أن نذكر ان العرب خلال هذه المعركة لم تكن صفوفهم موحدة ، حيث كان يوالي قسم منهم الفرس ، ومع ذلك فمعظم المصادر تؤكد على أن معظم العرب قد آزر ابن مسعود عندما حدث القتال الفعلي ، وبذلك برهنوا على أن الدم العربي الصحيح لا يمكن أن يتفرق عند الشدائد •

لقد سقنا نتفا من هذه المعركة لانهـــا تعد فاتحة عهد لمعركة القادسية الاولى ، حيث انها أعطت للعرب ثقة عالية بالنفس ، افتقدوها لسنين طويلة في قراعهم مـــع الروس والفرس ، كما علمتهم أن العرب عندما تتحـــد سيوفهم وكلمتهم لا يمكن لاي قوة أن تنتصر عليهم ، هذا فضلا عن انها علمتهم «طول

«التقس» ، حيث استمرت هذه المعركة أربعة أيام دارت فيها المعارك الاتية ، الجبايات ، وخنو وذي قار ، وقراقر ، صبت كلها في ينبوع النصر العربي .

لقد مهدت هــــذه المعركة لحركات الجيش العربي الاســلامي لتحرير العراق لاحقا من ربقة الفرس ، وبتشجيع من المثنى بن حارثة الشيباني ، الذي تمكن من جمع ثمانية آلاف فارس من «شيبان» و «بكر» للاغارة على مواقع الفرس ، لاجلائهم عن بعض المناطق في العراق .

عندما تقدم القائد العربي الكبير خالد بن الوليد نحو العراق لتحريره ، كان أول من انضم اليه هو القائد العربي الغيور المثنى بن حارثة الشيباني ، وقد وقعت معارك انتصر بها العرب ، ومهدت بصورة لا تقبل الشك للانتصار بالقادسية الاولى ، وأهم هذه المعارك هي : «المزار ، والولجة ، والانبار ، وعين التمر ، ودمة الجندل ، وحصير ، والمضيخ ، والفراض»[1] ، وهنا علينا عدم انكار أن العرب بعد أن غادر خالد بن الوليد نحو الشام بأمر من الخليفة قد انكسروا في معركة «الجسر» ، الا أنهـــم تمكنوا من أن يثأروا ويردوا اعتبارهم ثانية في معركة «البويب» ، والتي انتهت ناهية حياة جندي عربي عظيم هو المثنى بن حارث الشيباني نفسه ، حيث جرح خلال المعركة المذكورة ، واستشهد بعدهـــا ، وكنتيجة لسهم مسموم ، انغرز في خاصرته ولـــم يمهله طويلا .

ان المعارك الافتتاحية المذكورة كانت معارك قد أعطت للعرب تصورا معقولا عن الاساليب الفارسية في القتال ، ولذلك فهم عندما سيتقدمون من أجل تحقيق العراق لن يكون العدو أمامهم غامضا من وجهة النظر العسكرية .

التهيؤ للمعركة

أدرك الخليفة أبو بكر الصديق «رض» أن الارض العربية التي رزحت تحت حكم البيزنطيين والفرس لمدة طويلة ، لابد من تحريرها ، لكي يقف العربي شامخا على أرضه ، تحت ظل مفاهيم انسانية عميقة جاء بها الاسلام ،

ولذلك فقد جردت الحملات العسكرية الكفيلة بانجاز واجب التحرير المذكور في كل من العراق وسوريا أولا .

كما نما يخص العراق هو الامر الذي أعطاه الخليفة أبوبكر الصديق «رض» الى القائد خالد بن الوليد ، وهو التوجه نحو العراق ، حيث كان في ذلك الحين في مدينة اليمامة(٤) ، هذا علما أن هناك بعض الروايات تشير الى أن القائد خالد بن الوليد قد عاد الى المدينة من اليمامة ، ولم يتوجه مباشرة الى العراق بعد الرسالة التي وصلت اليه من الخليفة(٥) ، وانه دخل العراق بعد مشاورات جرت في المدينة ، ومهمـــا يكن من أمر ، فان خالد بن الوليد هو القائد العربي الذي خاض المعارك التمهيدية ضد الفرس في العراق ، بالاشتراك مع المثنى بن حارثة الشيباني ، إلا أن خالد سرعان ما ترك القيادة في العراق وتوجه الى الشام لمساعدة الجيوش الاسلامية التي خاضت معركة اليرموك وانتصرت فيها بقيادته والتي جاءت لتعزز المعنويات العربية .

بعد الانتصار في اليرموك ، أراد الخليفة «عمر بن الخطاب» (رض) أن يعزز من جبهة العراق ، وليدخل مع الفرس معركة طاحنة تكون بعدها أبواب العراق العربي مشرعة أمام الاسلام ، ولذلك كاتب أهل الجزيرة عبر أوليائهم على ارسال من كان من قبيلة «بجيلة» للسير الى العراق ، وكانت هذه القبيلة من القبائل المحاربة ، وقد كان من نتيجة هذا العمل خروج ما يربو على (١٥٠٠ ــ ١٧٠٠) مقاتل بقيادة جرير بن عبدالله البجيلي للقتال ، وكان جرير صحابيا ، مقاتلا ورعا ، وكانت هذه العشيرة بحق هي النواة الاولى للحملة على العراق بغية تحريره ، علاوة على ما موجود من المقاتلين الاخرين الموجودين في العراق نفسه .

الخطوة اللاحقة التي جاءت من الخليفة هي رسالة أرسلها الى اثنين من عماله يقول فيها «لاتدعا أحدا له سلاح أو فرس ، أو نجدة ، أو رأي ، الا أنتخبتموه ثم وجهتموه لي ، والعجل ، العجل»(٦) .

ابتدأت بعد ذلك تتدفق على المدينة جموع المقاتلين ، وهكذا أخذ الجيش الذي سيحرر العراق بالنمو والازدياد •

بعد هذه الزيادة ، كان على الخليفة أن يختار قائداً لهذا الجيش ، وبعد مداولات استشارية عديدة مع الصحابة ، استقر الرأي على القائد العربي الفذ «سعد بن أبي وقاص» ، والذي وصفه عبدالرحمن بن عوف على : «أن الاسد في براثنه» •

تجمع المصادر على أن الجيش الذي قاده سعد بن أبي وقاص في البداية كان بحدود أربعة آلاف مقاتل ، الا أن هـــذا الجيش قد عزز بأربعة آلاف مقاتل ، كما كان جيش المثنى بن حارثة الشيباني في العراق بحدود ثمانية آلاف مقاتل •

لقد تعاقب المقاتلون على هذا الجيش حتى يوم المعركة الاول ، والتي سنعطي الاعداد التفصيلة عنهم في مادة قوات الطرفين •

أما اذا عدنا الى الجانب الفارسي لتبيان الامور التي طرأت عنده ، فسنجد أن التهيؤ للمعركة كان يختلف اختلافا كبيرا عن الجانب العربي ، حيث كان للفرس خلافات عميقة في المستوى القيادي ، اذ ان «الفيروزان» ، وهو أحد قادتهم العسكريين كان ذا مطامع كبيرة ، وكان من المنافسين للقائد العسكري الاخر «رستم» ، ومع ذلك كان عليهما أن يوحدا الكلمة أمام الزحف العربي الاسلامي الهادر ، كما ان عليهما أن يوحدا الجهود ، لذلك اتفقا أن ينصبا أحد سلالة الاكاسرة على العرش الفارسي ، وهكذا وبعد محادثات ، اتفق القائدان العسكريان على تنصيب «يزدجرد» بن «شهريار» على العرش الفارسي ، لان الملكة الحاكمة «بوران» قد توفيت في وقت سابق ولابد للعرش من أن يشغل •

مع كل ما مر من أحداث في الجانب الفارسي ، اتفق القائدان العسكريان على ارسال قائد عسكري اخر يدعى «مهران الهمذاني» لايقاف زحف الجيش العربي ، وقد سار القائد المذكور بعد تكليفه بالمهمة ، وعبر الفرات ، واشتبك مع العرب بمعركة ضاربة هي معركة «البويب» حيث انتصر فيها العرب ، وكان

من نتيجتها أن قتل القائد المذكور ، وأبيد أكثر من ثلثي جيشه ، وهنا كان لابد للفرس من وقفة تفكير مجددة ، لايجاد الوسيلة الكفيلة بالانتصار على العرب ، الذين بدأوا يهددون العراق بشكل جدي ، ولذلك فقد استنفروا الفرس من كل حدب وصوب ، ليكونوا جيشا كبيرا ينطلق من المدائن باتجاه الجيش العربي ، بغية ايقاف زحفه الناجح نحو عاصمتهم المهددة •

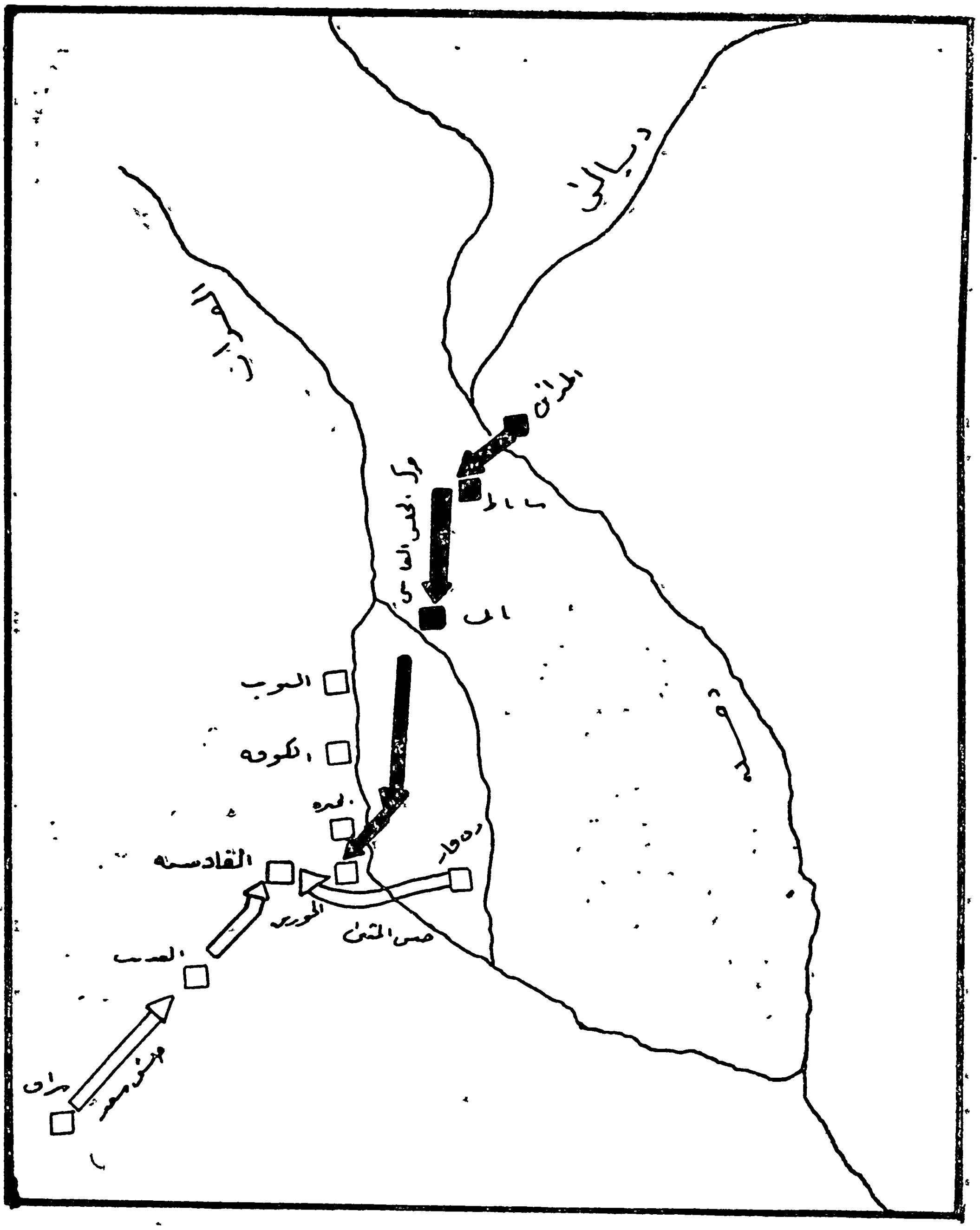
لقد عرف المثنى بن حارثة الشيباني اثر هذه المعركة ، ان النفير الفارسي سوف يجعل من الفرس قوة متفوقة عدديا لا طاقة له بها ، ولهذا فانه بدا يتراجع عن مواقعه باتجاه ذي‌قار ، وربما كان سيتراجع الى حدود الصحراء ، لو تقدم الجيش الفارسي أكثر نحو القوات العربية ، الا انه لم يتقدم ، حيث كانت هنالك فكرة تسيطر على ذهنيته العسكرية ، وهي أن الدفاع عن «المدائن» أفضل من مطاردة العرب في الصحراء ، وفي مواقع متفرقة تنتهي باستخدام العرب هذه الصحراء كموقع أخير للنجاة فيما لو تمكن الجيش الفارسي من التغلب عليهم ، وهذه النظرة للصحراء كموقع أخير للنجاة بالنسبة للعرب أفقدت الفرس مزايا الهجوم ، وجعلتهم يفقدون مرونة الحركة ، كما وجعلتهم يفقدون أحد مبادىء الحرب ، وهو المبادأة ، ويعزي هذا السلوك الفارسي الى الروح التشاؤمية التي كانت تنخر في عقل قائدهم «رستم» •

اذا عدنا مرة ثانية صوب الجيش العربي ، فسنجد أن حكمة الخليفة عمر بن الخطاب ، جعلته يفكر بدعم هذا الجيش بعناصر معنوية كبيرة ، ولذلك فقد ضم اليه الكثير من الصحابة ، ومن الذين شهدوا بدرا ، أو ممن شهدوا فتح مكة ، وكان وجود هؤلاء الصحابة يلهب الحماس العربي الاسلامي في النفوس ، لانهم يمثلون الصفوة المختارة التي يتشرف بالاقتداء بها جميع الاسلام ، لانها نفوس جبلت على النضال ، والفداء في سبيل المثل الانسانية والاخلاق السامية ، وهكذا الجيش العربي الاسلامي ، وان كان قليل العدد ، الا أنه كان يمثل عناصر متفاعلة مكتملة ، بامكانها تحقيق النصر عبر الفداء ، والقيادة الجيدة ، والمعنويات العالية ، والتي تولد الشكيمة الصامدة القوية •

معركة القادسية

محرم ٥ هجرية

شباط ٦٣٦ ميلادية



حركة الجيش العربي الاسلامي والقادة مع الجيش العربي في العراق في القادسية وحركة الجيش الفارسي وعبوره الفرات ووصوله الى القادسية

المعروف أن المناطق التي تحيط بكل من نهري دجلة والفرات ، هي مناطق تتبعثر فيها القرى ، والارياف ، وتكثر فيها البساتين الغناء التي يكللها النخيل بهامته العملاقة بالدرجة الاولى ، لذلك فهي مناطق تساعد الجيوش على القتال لعدم الحاجة الى الذيل الاداري الكبير المتمثل بالاثقال التي تحتوي على المواد الغذائية ، والماء ، اذ ان الماء في هذه الاراضي الفيحاء يمكن أن يأتي ، وبكل سهولة من الانهار والترع ، أما المواد الغذائية فتأتي من المواشي ، والاثمار الوفيرة في تلك المناطق ، ولذلك نجد أن جيش سعد بن أبي وقاص لم يحتج الى أن يكون له ذيلا اداريا طويلا ، وانـــه كان يحصل على معظم المواد من القرى المجاورة عندما كان في طريقه الى القادسية بعد أن عسكر لمدة في مدينة «العذيب»(٧) .

ينحدر نهر الفرات من الشمال الى الجنوب ، وان أهم المدن الموجودة في المنطقة والتي لا يمكن للجيش العربي ، والفارسي أيضا من تحاشيها هي مدينة «شراف» التي تقع في أقصى الغرب بصـــورة موازية للبادية ، ومن ثم مدينة «الغريب» ، ومن ثم «خفاف» و «الس» ، وصولا الى القادسية التي تقترب كثيرا من نهر الفرات .

الجانب الايراني على وفق المعطيات الجغرافية كان على جيشه أن ينحدر من المدائن ، ويعبر نهر دجلة الى «ساباط» ومن ثم الى «البرس» وتعبر الفرات بالقرب من الحيرة وصولا الى القادسية ، أو أن تعبر البويب وتنحدر جنوبا الى القادسية .

المنطقة عموما ، حتى في حالة انســحاب الفرس الى المدائن مرة أخرى تساعدهم على تأمين غاياتهم ومتطلباتهم الادارية ، أما العرب فان انسحابهم يعني عودتهم ثانية الى قلب الصحراء ، وما للصحراء من معاضل ، أهمها معضلة

شحة المياه ، ولذلك كان عليهم أن يضاعفوا من عزائمهم بغية عدم الوقوع في هذا المطب العسكري المهلك •

منطقة المعركة بالذات كانت تقع بين ترعة تنحدر من الفرات بالقرب من الحيرة ، وباتجاه الجنوب ، وفي هذه الترعة توجد معابر عدة ، كما توجد في هذه الترعة بعض المخاضات التي تؤدي الى الطرف الاخر دون سباحة ، ومنها «الخضوض»[٨] •

في أقصى كان نهر الفرات ، والذي تصر المصادر على تسميته «بفرات بادقلي» ، أما في الغرب فكان هناك خندقا ينحدر من الشمال الى الجنوب يدعى خندق « سابور » ، وقد حفره سابور لدرء الهجمات الخطرة من قبل عرب البادية على العراق ، أما بين كل من خندق «سابور» وترعة «الخضوض» فكان هناك أرضا ملحية ، أقرب الى المستنقعات منها الاهوار ، وهذه تقع في الجنوب الشرقي من القادسية ، وقد كانت مفيدة للجيش العربي الاسلامي اذ أنه أسد الشرقي من القادسية ، وقد كانت مفيدة للجيش العربي الاسلامي اذ أنه أسند اليها جناحه الايمن •

فضلا عن مدينة القادسية كان هنالك قصر يدعى قصر «قديس» وقد اتخذه القائد العربي سعد بن أبي وقاص مقرا له ، وقد انتشر الجيش العربي الاسلامي حول هذا القصر وعسكر محيطا به ، وقد كان هذا القصر بمثابة مرصد يتمكن بوساطته سعد بن أبي وقاص من مراقبة المعركة عبر الشرفات الموجودة به ، ومن ثم ليعطي أوامره الخاصة بالمعركة •

ان جغرافية ميدان المعركة الذي ذكرناه سابقا ، يعد ميدانا مثاليا لحركة الجيشين ، وذلك لانفتاح الارض ، ومساعدتها على المناورة ، كما أن ترعة «الخضوض» ، وخندق سابور ما كانتا لتعرقلا أي جهد عسكري لعبورهما •

ان دراسة جغرافية ميدان المعركة ، كان من الامور التي اهتم بها العرب الى درجة كبيرة ، لكي تساعد العوامل الجغرافية ، العوامل العسكرية للوصول

الى كل مقومات النجاح ، ومن ثم الى الظفر في المعركة وفيما يأتي مقتطف من رسالة للخليفة عمر بن الخطاب «رض» الى قائده العظيم سعد بن أبي وقاص حول موضوع المخادعة والارض :

«اجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المنازلة ، مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ، وتعرف الارض كلها كمعرفة أهلها بها» .

الوصية المذكورة من قبل الخليفة الى قائده تحمل وتعرف حقيقة الذهن العربي العسكري المتوقد ، الذي يحسب لكل أمر حسابا ، حيث أن الارض ومن دون معرفة تفاصيلها الكلية يمكن أن تقودنا الى طريق لا مخرج منه ، وهذه ستكون الطامة الكبرى التي بامكانها أن تقلب عوامل النجاح الى الفشل ، وذلك لعدم المامنا بالسالك المتاحة والضرورية للمناورة سلفا .

لقد سار سعد بن أبي وقاص بكل سرعة حتى وصل القادسية ، الا أن رستم كان بطيئا في سيره ، حيث قطع المسافة بين المدائن والقادسية بوقت يربو على أربعة شهور ، وهذا يعني فقدان عنصر التشوق للقتال ، والاصرار عليه ، وهذا نابع من ضعف عام في معنويات الفرس الذين كانت تشغلهم الفتن والدسائس .

المنطق العسكري العلمي ، والعوامل الجغرافية كانت بجانب الفرس ، كما أن القوة العددية كانت بجانبهم أيضا ، وكان يمكن للفرس وفق العوامل كما أن القوة العددية كانت بجانبهم أيضا ، وكان يمكن للفرس وقف العوامل الجغرافية أن يسلكوا مسلكين ناجحين هما : الانحدار بكل قواهم وبسرعة خاطفة نحو جيش المثنى في ذيقار وتحطيمه ، ومن ثم الالتفات نحو جيش سعد والتحام معه على التوالي ، وهنا ستتجزأ القوة العربية الاسلامية ، أما المسلك الآخر فكان يكمن في السير نحو جيش سعد وهو في طريقه الى القادسية ، ومنازلته في منطقة «شراف» أو «العذيب» ، وبقوة جسيمة ، لان

جيش سعد والحالة هذه سيكون واهنا لانه لمايزل في حالة تكامل ، غير أن أي مسلك من هذه المسالك لم يجر تناوله ، وهذا إن دل على شيء فانما يدل على عدم قناعة القائد الفارسي «رستم» بكفاءة جيشه ، كما كان يقدر ويثمن قوة العرب القتالية المتنامية بعد أن برهن العرب على اصالة في المعارك السابقة التي جرت بقيادة القائد خالد بن الوليد ، والتي ذكرنا اسماءها سابقا ، وقبل أن يذهب الى الشام لقيادة معركة اليرموك ضد البيزنطيين .

قوات الطرفين

الحديث عن قوات الطرفين في هـــذه المعركة الخالدة يعد أمرا شائكا ويحتاج الى تقديرات دقيقة ، فاذا أخذنا مثلاً القوة المقاتلة ، التي كانت بأمرة المثنى ابن حارثة الشيباني سنجدها تتأرجح بين أرقام متعددة يتكون منها رقما نهائيا يشير الى ثمانية آلاف مقاتل ، وهم أربعة آلاف جندي ممن تبقوا من معركة «الجسر» يضاف اليهم ألفان وخمسمائة مقاتـــل من قوات الصحابي «جرير بن عبدالله البجلي» فضلا عن ألفي مقاتل من طي وقضاعة ، وهكذا يكون العدد التي تتفق عليه معظم المصادر بحدود ثمانية آلاف جندي ، أو بزيادة قليلة على هذا الرقم .

الجدير بالملاحظة في الجيش العربي الاسلامي ، هو انه جاء من جميع أرجاء الوطن العـــربي ، فقسم جاء من اليمن ، والقسم الاخـــر من الجزيرة العربية ، والقسم الاخر من العراق ، وسنجد ان قسما آخر جاء من الشام .

لقد جاءت فضلا عن قوات المثنى بن حارثة الشيباني قوات بقيادة سعد بن أبي وقاص القائد العام للجيش العربي الاسلامي تقدر بأربعة آلاف جندي من الجزيرة العربية ، وكان خلال حركته الطويلة نحو العراق تلتحق به قوى أخرى ، حتى أصبحت القوة التي بامرته عند وصوله القادسية ما بين أربعة عشر ألفا وخمسة عشر ألف جندي ، هـــذا واذا ماقمنا باضافة جيش المثنى

العراقي فسنجد أن الرقم يصبح بحدود اثنين وعشرين ألفا وثلاثة وعشرين ألف جندي ، أما القوة المرسلة من الشام لاغـــراض دعم هذا الجيش فكان تعدادها ستة آلاف جندي ، بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي .

مما تقدم فإن الجيش العربي الاسلامي كان حسب كل التقديرات لايزيد على ثلاثين ألف مقاتل ، وقد قسمت هذه القوات كما يأتي(٩) :

المقدمة : قائدها زهرة بن عبد .

القلب : قائدها طلحة بن خويلد الاسدي .

الميمنة : قائدها عبدالله بن المعتم ، وتذكر مصادر أخرى عمرو بن معدي كرب الزبيدي .

الميسرة : شرحبيل بن البسمط ، وتذكر مصادر أخرى ابراهيم بن جارثة الشيباني .

الجيش العربي الإسلامي كان يحوي على بعض الصحابة الذين شهدوا بدرا ، أو ممن شهدوا تحرير مكة ، كما كان هذا الجيش يضم أولاد بعض الصحابة ، وكان هؤلاء هم البؤرة الحقيقية التي تستقطب حولها المسلمين ممن جاء اسلامهم بعد فتح مكة ، وذلك لبذلها وعطائها وقيمها العادلة ، ولذلك وعبر ذلك يمكن أن نعد البناء العقائدي للجيش العربي الاسلامي متكاملا لأنه يمثل صوت الانسانية العادل ، فضلا عن أن قائده سعد بن أبي وقاص كان ممن يشار اليه بالبنان في الورع والتقوى ، ناهيك عن شجاعته الفائقة ، هذا ولو ألقينا نظرة حول حياة هذا القائد العظيم ، سنجد أنه بدأ حياته في مكة المكرمة ، وكانت صناعته «بري الهـــام» ، وقد اسلم وعمره سبععشرة أو ستة ، وبعدما أسلم شهد جميع حروب الاسلام ، كما ان له دورا مشهورا في معركة أحد ، حيث أنه زاد عن حياض الرسول «صلم» ، عندما اختل توازن المسلمين بوساطة سهامه التي كانت لا تطيش أبدا ، وهو فضلا عن ذلك من

العشرة المبشرين بالجنة ، كما كان هـــذا القائد الذي عركته الحروب اداريا حازما وانسانا رقيقا متواضعا محبوبا من قبل الجميع •

اذا تحركنا صوب الجيش الفارسي لمعرفة مكوناته ، فسنجده يتكون من مائة ألف جندي ، وتذكر مصادر أخرى عـــدا أكبر هو مائة وعشرون ألف جندي ، وعلى أية حال ، فان الجميع متفق على ان التفوق العددي كان ساحقا لصالح الجانب الفارسي ، هذا ناهيـــك عن العشرات من الفيلة المدربة على القتال •

الفيلة كانت تحمل فوق ظهورها دكات خشبية ، وهذه الدكات ، كانت قابلة لاستيعاب عشرة جنود يقومون باستخدام النبال ، أو الرماح لمعالجة خصومهم ، ولذلك كانوا دائما مسيطرين ، وفي مأمن من القتل ، اذا ما عرفنا أن الفرسان الذين يمتطون صهوة جيادهم لا يمكن ان يصلوا الى ارتفاع الفيلة لمعالجة مستخدميها ، ولهذا الامر فقد كانت تشكل خطراً واضحاً على الجيش العربي معالجته بكل الوسائل ، وسنأتي على اسلوب معالجتها عندما نتكلم عن سير المعركة وتفاصيل حوادثها •

الجيش الفارسي كان تحت قيادة قائده الاعلى «رستم» ، وثلاثة قواد فرعيين هم : «الجالينوس» و «الهرمزان» و «مهران» •

الخطة الفارسية

لم تكن لدى رستم خطة فارسية واضحة المعالم ، ومتكاملة ، وكل ما في ذهنه ، انه كان يتوخى اطالة امد المفاوضات ، بينه ، وبين القائد العربي ، لكي يكسب الوقت الذي يتمكن بوساطته من حل القضية من دون قتال ، وهو بهذا المنطق كان ذو تفكير عميق ، فرغم ان جيشه كان أكثر من الجيش العربي الاسلامي عددا ، فانه كان يعتقد ان الاحقـــاد الفارسية تلتهم معنويات هذا الجيش المفكك القيادة ، على عكس الجيش العربي الاسلامي الموحد القيادة ، والذي كان يبدو وحدة معنوية راسخة في النفوس •

لقد وصلت الى رستم الاخبار عن مدى قوة شكيمة العرب في معركة اليرموك ، ومدى اقتدارهم القتـــالي ، والتي أسفرت فيها النتائج عن فوز الجيش العربي الاسلامي على الجيش البيزنطي العريق •

ان رستم كان يحاول كسب الوقت لتصفية المشاكل الداخلية لجيشه ، ومع كل ذلك لم يكن يائسا الى درجة نهائية في امكانية ربحه للمعركة ، وهذا ما سنجده في الصفحات القادمة ، حيث أنه عندما طلب من سعد العبور اليه ، ورفض سعد العبور اليه ، نجده يبادر هو الى العبور ، ولم يتلكأ في عمل ذلك أبدا ، ليكون بالمواجهة التامة مع الجيش العربي الاسلامي وفي ضفة واحدة هي الضفة الغربية من النهر ، ومع هذا لم تذكر المصادر وجود خطة فارسية مسبقة تنفذ من زمان ومكان معينين ، أساسها المناورة العملياتية التي يمكن أن تفضي الى النصر •

ان كل ما فعله رستم هو توزيع قواته الى ميمنة ، وميسرة ، وقلب ، مع تهيئة عناصر المبارزة ، والتي كانت عادة راســـخة تعد الصفحة الافتتاحية في المعركة •

الخطة العربية الاسلامية

كانت الخطة العربية الاسلامية هي الاخرى لا تعتمد في مراحلها الاولى على المنـــاورة ، والحركة ، كأساس لربح المعركة ، ولكنها اعتمـــدت العامل النفسي ، فقد استصحب قسم من أفراد الجيش العربي الاسلامي عوائلهم معهم الى العراق ، وهذا أن أي اخفاق في المعـــركة سيجعل من هذه العوائل سبايا لجنود الفرس ، كما أن اختيار سعد لميـــدان المعركة الذي تحده الصحراء ، والترع ، وخندق سابور ، قد جعل الحركة الفارسية محدودة على رقعة ضيقة من الارض ، التي كانت لا تستوعب الجموع الفارسية التي يربو عددها على مائة ألف مقاتل مع فيلتهم ، وخيولهم ، ومع ذلك فان خطة سعد كانت تعتمد

أساسا على المعطيات الآنية لميدان المعركة واتخاذ رد الفعل السريع تجاهها ، بعد أن يرصد الظواهر القتالية المستجدة ، ولهذا فانه اتخذ قصر «قديس» مقراً له ليشرف منه على ميدان المعركة ويرصد كل صغيرة وكبيرة تحدث فيه ، ومن ثم القيام باستغلال أي بارقة نصر بسيطة ، وتطويرها الى نصر حاسم •

النقطة الاخرى في خطة القائد العـــربي الفذ سعد بن أبي وقاص هي الغارات القوية التي كان يشنها الجنود العرب على معسكرات الفرس ، وأخذ أسير من هذا المعسكر أو ذاك ، وهذا يعزز ما ذهبنا اليه سابقا ، وهو أن سعد أراد أن يعزز من معنويات جيشه ، ومحاولا وبشتى الاساليب والطرق اضعاف معنويات الجيش الفارسي ، وهذا العمل العسكري الجريء قد جعل جنود العدو يرهبون جنود الجيش العربي الاسلامي قبل منازلتهم الحقيقة •

النقطة التالية في خطة القائد العربي سعد بن أبي وقاص هي نقطة نفسية أيضا ، وتتمثل بقطع المفاوضات مع الفرس ، مع اعطائهم مهلة قدرها ثلاثة أيام ليقرروا على أي شرط من شروط المسلمين قـــد ارتضوه لأنفسهم ، وشروط المسلمين هي : «الجزية ، أو الدخـــول بالاسلام ، أو القتال» ، وقد اختار الفرس في نهاية المطاف القتال •

ان اعطاء المسلمين فرصة للفرس قدرها ثلاثة أيام لها مردودات نفسية أيضا ، حيث أعطت انطباعا للفرس من أن الجانب العربي الاسلامي ، قوي ، ولذلك لا يمكن أن يتنازل عن أي شرط من الشروط ، ولو كان ضعيفا لما كان يفاوض بهذه القوة والعزيمة ، وقد كانت هذه الشروط هي الشروط الاساسية في تعاملهم مع جميع الشعوب ، وليس الفـــرس وحدهم ، ولذلك فقد أدرك رستم ومن ثم من حوله من الجنود بعمـــق القوة الكامنة في الجيش العربي الاسلامي ، وماذا يمكن أن يحققه هذا الجيش الفتي ،خلال الصراع المسلح المقبل •

المخادعة العربية الاسلامية

[illegible]

لم تكن المخادعة العربية الاسلامية معـــدة سلفا من قبل القائد العربي سعد بن أبي وقاص ، ولكنها جاءت، من قبل قائد آخر ، جاء لتعزيز الجيش العربي الاسلامي بقيادة هاشم بن عقبة بن أبي وقاص ، الذي جاء من الشام الى العراق على رأس قوة عسكرية ، وكانت المخادعة التي لجأ اليها هذا القائد هي مخادعة نفسية ، عززت الاجراءات النفسية السابقة التي نفذها سعد بن أبي وقاص قبل الدخول الى المعركة ، والتي أشرنا اليها سابقا •

قدم هاشـــم بن عتبة من الشام على رأس ستة آلاف أو ســـبعة آلاف فارس ، حسبما تقدره معظم المصادر ، ولكن المهم في الامر ، أن دخول هؤلاء الفرسان لم يتم بصورة كلية ، حيث قسمت القوة الى قوى صغيرة تتكون كل منها من (١٠٠) مئة فارس ، تدخل معسكر المسلمين بالتتابع ، وبفاصلة قدرها «مدى النظر» ، وهذا يعني بالتحديد ، وصول ستين قوة قدر كل منها مائة فارس ، وما لهذا الامر من انطباع نفسي على الفرس الذين كانوا لا يمكن أن يقدروا عدد القوة القادمة لانها كانت تحمل المشاعل في أرض غبراء اثار نقيعها سنابك الخل الفذة في أرض العراق •

ان هذه الموجات بثت الهلع في نفوس الفرس لانهم قدروها أكثر مما هي عليه في الواقع •

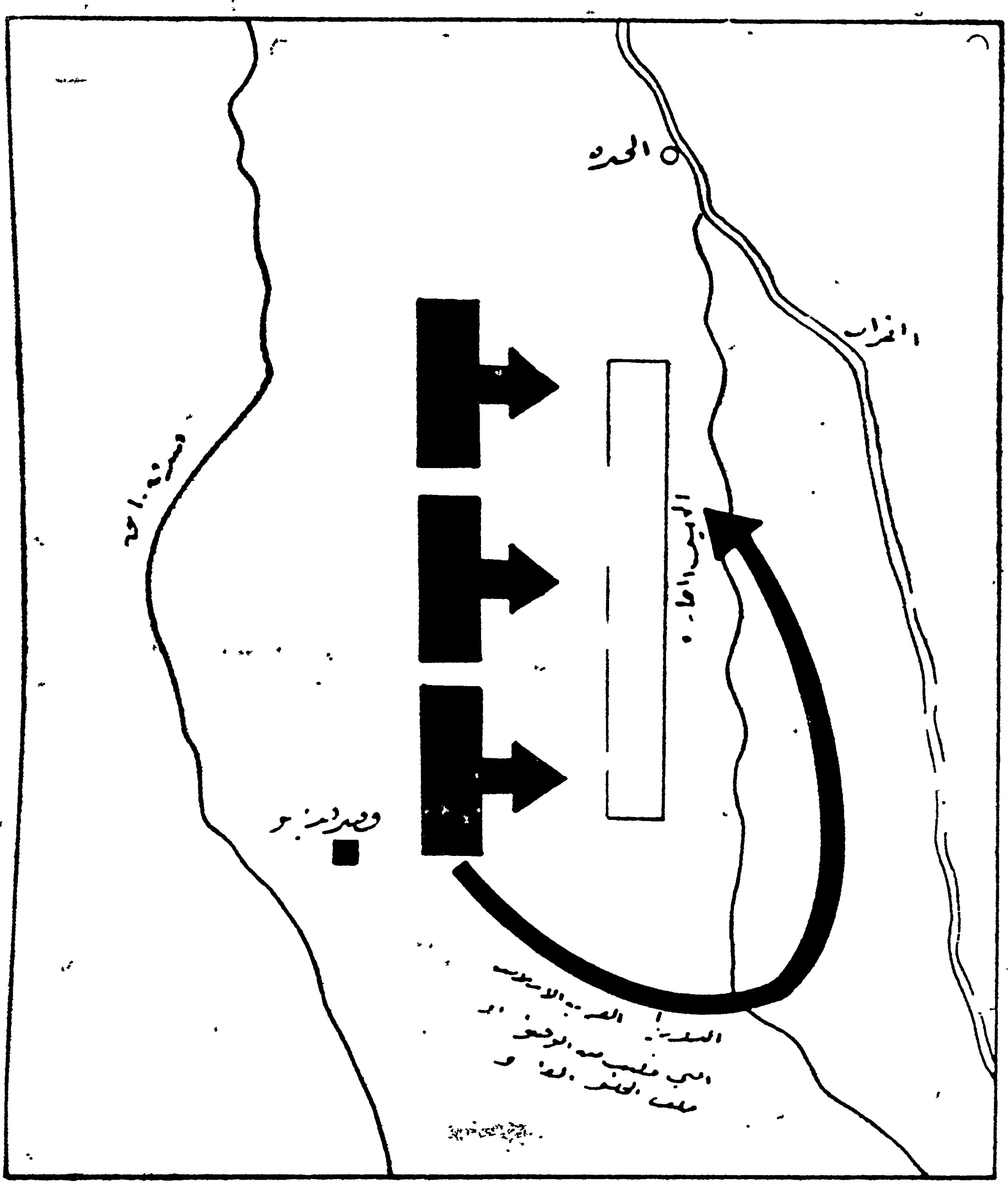
الموجـــات التي سنطلق عليها اسم «الموجات المئـــوية» أعطت انطباعا للفرس بعـــد قتال اليوم الاول «يوم أرماث» من أنها ستســـتمر ، وستقلب الموازين لصالح العرب بدرجة ملحوظة ، لان اليوم الاول من القتال شهد حالة من التعادل ، وعليه وكاستنتاج ، فان قدومهـــا في اليوم الثاني واشتراكها سيجعل كفة العرب هي الراجحة في القتال ، وعلى أساس أنها عناصر نشطة لم تمارس القتال في اليوم الاول حيث يمكن أن تكون تعبة قليلا في اليوم الثاني ،

وهذا الموضوع ، بحد ذاته قد ولّد انكسارا نفسيا للفرس ، هذا فضلا عن أن هذه الخديعة قد جعلت القادة الفرس يعـــدلون تقديرهم للموقف على ضوء المستجدات المذكورة ، هذا من ناحية أما من الناحية الثانية ، فان هذا العمل أعطى دعما للجندي العربي المســـلم ، حيث استبشر بهذه الموجات ، ولذلك ارتفعت معنوياته الى درجة كبيرة جدا في اليوم الثاني من القتال ، وتشير معظم المصادر أن اليوم الثاني من القتال كانت كفته راجحة للعرب ، ومن الطبيعي ان جزءا من هذا الاداء كان مدينا لفضل المخادعة العسكرية المذكورة •

ان الجدير بالذكر هو أن هذه التعزيزات لم تكن تتوقف ، وانما استمرت حتى اليوم الثالث ، وهذه حيلة لجأ اليها القعقاع بن عمرو التميمي الذي كان على رأس ألف مقاتل من قادمين من الشام ، والتي كانت قيادتها الكلية كما ذكرنا تحت امرة القائد هاشم بن عتبة ، فقد أمر القعقاع جنوده بالذهاب الى منطقة لا تبعد كثيرا عن ميدان المعركة بطريقة متسللة ، هادئة ، سرية ، ثم تأتي الى ميدان المعركة صباحا ، وبطريقة التتابع المذكورة سابقا وبشكل زمر تتكون من مائة مقاتل ، وبهذه الطريقة وحتى في اليوم الثالث عزز القعقاع من معنويات الجنود المسلمين وهشم وأحبط معنويات الفرس •

سير المعركة الحقيقي :

معركة القادسية التي حدثت بين الجيشين
العربي الإسلامي والجيش الفارسي في منطقة القادسية بالعراق



الشكل النهائي للحركات في اليوم الأخير والتي
بانت به تباشير الانتصار العربي الإسلامي

سير المعركة الحقيقي

بعد فشل المفاوضات بين الجانب العربي الاسلامي ، والقيادة الفارسية ، كان لابد من أن تنشب المعركة التي حاول القائد الفارسي رستم تأجيلها الى أبعد مدة ممكنة .

لقد قرر القائد العربي العظيم سعد بن أبي وقاص ، أن لا مجال للتفاوض مطلقا ، ولهذا فقد اتخذ مواقعه بين نهر «العتيق» ، وخندق «سابور» لتكون أرض للمعركة يتمكن أن يشرف عليها من قصر «قديس» .

ان بداية المعركة جاءت بعد أن خير القائد الفارسي رستم القائد العربي سعد خيارا تعبويا فطنا ، وهذا الخيار ، اما أن يعبر الجيش العربي الاسلامي ترعة العتيق ، لتنشب المعركة شرق هذه الترعة ، أو أن يعبر الجيش الفارسي الترعة فتنشب المعركة في غربها ، بيد أن سعد بن أبي وقاص كان قد قرر سلفا على مـــكان المعركة ، فما كان منه الا أن يرفض الامــر ، ويطلب من الفرس العبور ، بغية ملاقاة الجيش العربي المسلم .

ان ما ذكرناه سابقا يعد جزءا من شخصية القائد الحقيقية ، وهي أن على القائد عندما يقرر مسلك عمل سلف عليه أن يحاول تطبيقه في المراحل اللاحقة ، وأن لا ينصاع الى أفكار عدوه .

هكذا حاول الفرس العبور من القنطرة التي سيطر عليها العرب ، غير أن سعد منعهم من ذلك ، فما كان من الفرس سوى العبور من منطقة أخرى .

لقد أصاب المرض سعد بن أبي وقاص عند بداية المعركة ، فتولى القيادة خالد بن عرفطة ، وكانت الصفوف العربية الاسلامية تتكون من ثلاثة خطوط ، الاولى تتكون من الخيالة ، والثانية من المشاة المسلحين بالسيوف والرماح ، أما الصف الاخير فكان يتكون من راشقي النبال ، وهكذا تكون قوة الصدمة وذاك ، فان المعركة بدأت بصيغة تقليديـــة ، وذلك في ٦ محرم من عام (١٦)

هجرية المصادف ١٩ شباط ٦٣٧ ميلادية ، من خلال المبارزة الافتتاحية ، ومن الاساسية متمثلة بالفرسان •

الجيش الفارسي كان يعتمد على زخم الهجوم الناجم من الفيلة ، ومع هذا بعدها الالتحام •

كانت الكلمة الرمزية لبدأ المعركة هي التكبير من قبل القائد العربي سعد بن أبي وقاص أربع مرات ، والتي على المسلمين عند سماعها القيام بالهجوم العام ، وقد كلف ، القائد سعد بن أبي وقاص ، البعض لايصال تكبيرته الى المسلمين •

بدأ الالتحام وأخذ الجيش الفارسي بالضغط على الجيش العربي الاسلامي من اليمين ، مع تقدم الفيلة جبهويا ، الا أن سعد قد شاهد ذلك فما كان منه سوى زج الاحتياط في الميمنة لتدعم الصمود في هذه الجبهة •

كان القتال في اليوم الاول ضروسا ، وقد لاقى العرب الويلات من الفيلة التي لم يألفوا قتالها ، ومع ذلك فقد لجأوا الى قطع بطانات الفيلة المصنوعة من «السيور» أو الحبال ، الا انهم لم يصيبوا غير نجاح قليل • استمر القتال سجالا بين الجيشين حتى الليل ، ولم يكن لأحدهما نصر على الآخر ، لذلك عادا الى معسكريهما من أجل معاودة القتال يوم غد ، وقد دعي اليوم الاول للمعركة بيوم «أرماث» •

في اليوم التالي والذي دعي يوم «أغواث» تمثلت المخادعة العربية بقدوم الموجات العربية من الشام لدعم الجيش العربي في العراق ، وكانت مجزأة كما أسلفنا ، غير أن الامر الذي يجب أن نذكره هو أن طليعة هذه النجدات كانت بقيادة القعقاع الذي نزل الى ميدان المعركة طالبا المبارزة ، فتقدم اليه القائد الفارسي «بهمن جاذويه» ، وبعد اشتباك قصير تمكن القعقاع من ارداء «بهمن جاذويه» قتيلا ، فكان هذا عاملا مضافا في زعزعة معنويات الفرس ، علاوة على النجدات المتتابعة المجزأة التي كانت تأتي الى ميدان المعركة تباعا ، ولذلك كان

القتال في هذا اليوم لصالح العرب المسلمين ، حيث كان الضغط العام لهم يتمثل بالهجمات الجبهوية من قلب الجيش ، وتذكر بعض المصادر الفيلة لم يكن لها دور بارز في هذا اليوم ، لان العرب ، قد عمدوا الى استخدام الابل بعد أن برقعوها تجاه خيل الفرس ، التي كانت تهاب شكلها الجديد •

ان تباشير نصر لامع في هذا اليوم لم تحدد معالمه لصالح العرب المسلمين ، ولذلك انسحب الجيشان الى مواقعها ، من أجل الاستعداد لجولة أخرى من القتال ، وهنا ، وخلال ظلام الليل أمعن الجيش العربي بالمخادعة ، فقد كانت تصل التعزيزات المجزأة ، وهي تحمل المشاعل لتلقي الرعب في نفوس الجنود الفرس ، وترفع من معنويات الجنود العرب •

في اليوم الثالث الذي دعي يوم «أعماس» ، بدأ القتال عندما تكاملت قوة القعقاع التي أرسلها لمعسكر خاص ليلا لأغراض المخادعة ، حيث قام بعدها بهجوم على قلب جيش الفرس ، وصل ذروته عندما وصل الى النهر ولكن كان عليه أن يقوم بمعالجة الفيلة كي يتمكن الجيش العربي الاسلامي من تحقيق النصر النهائي ، لذلك أفرزت قوة خاصة واجبها معالجة تلك الفيلة ، وقد نجحت هذه القوة في مسعاها ، حيث كانت تهاجم بقوة من المشاة والخيالة الفيلة ، حيث يقوم المشاة بقطع خراطيم الفيلة ، والخيالة بفقء أعينها بوساطة الرماح أو السهام •

ان الحادث الحري بالذكر في هذا المضمار وخلال المعركة ، وخلافا ليوميها الاول والثاني هو استمرار المعركة ليلا ، وبغية عدم استغلال الظلام من قبل الفرس وقيامهم بمناورة لتطويق الجيش العربي الاسلامي من جناحه الايمن ، فقد أرسل القائد سعد بن أبي وقاص ، طلحة بن خويلد الاسدي على رأس قوة عربية لحماية الجناح الايمن ، على أن تكون عند المخاضة لتمنع أي عبور قادم ، وقد نفذ طلحة الامر ، وذهب حتى وصل المخاضة ، بيد أنه عندما وصلها لم يشاهد أي أثر للجيش الفارسي فحاول استغلال الموقف بالاتجاه شمالا وتطوير

حركته الى مناورة تطويق وقد نجح بالوصول الى مؤخرة الجيش الفارسي ، وأعلن هذا الوصول بتكبيرات ســـمعها الجيش الفارسي الذي كان يقاتل في الامام ، فساد الصفوف الخلفية الفارسية الارتباك ، ومع هذا قام البعض من الصفوف الخلفية بالحركة نحو قوة طلحة لملاقاتها ، الا أن طلحة عمد مرة أخرى الى الخديعة حيث انسحب نحو العتيق ، فما كان من مؤخرة الجيش الفارسي سوى تعقيبه ، وهذا أعطى انطباعا الى الجنود في القدمات الفارسية الامامية ، أن جيشهم بعد هذا التطويق بدأ يتراجع مما حدى بهذه الصفوف بالانسحاب أيضا .

القتال المتواصل جعل اليوم الرابع يتصل باليوم الثالث ، وقد دعي اليوم الرابع ، بيوم «الهرير» ، والذي بلغ به الجيشان المتحاربان ذروة التعب ، مع نصر نسبي للعرب .

بقي النصر النهائي معقودا ، لمن يصبر ، ويجالد ، وهنا كثف العرب هجماتهم على الاجنحة مع صمود نسبي في القلب ، ومع ذلك ، واصل العرب هجماتهم على الاجنحة ، ومن القلب أيضا وبصورة أشد يأسا حتى تمكنوا من اختراق الجيش الفارسي ، والوصول الى مقر قائده الاعلى رستم حيث تم قتله على يد «هلال بن علقمة» .

تابع الجيش العربي الاسلامي هجمـــاته المكثفة الشرسة حتى وصل الى الراية الفارسية ، والاستيلاء عليها من قبل «ضرار بن الخطاب» .

أصبح النصر عبر الحوادث المتتابعة بجانب العرب بصورة تامة ، وما عليهم الا أن يستثمروا هذا الزخم في عمليـــــة مطاردة لا تتيح للفرس اعادة تنظيم صفوفهم والقيام بهجوم مقابل على الجيش العربي الاسلامي ، علما أن جميع مناطق العبور الى الجهة الاخرى من النهر قد حطموها من أجل تضييع الفرصة على الجيش العربي الاسلامي باستغلال حالة الوهن الفارسي ، والقيام برد فعل

سريع ، ومع هذا ، فقد قسمت القوة المقاتلة العربية على ثلاثة أقسام كل قسم تحت لواء قائد عربي •

كان على الاقسام المذكورة تعقيب الجيش الفارسي الذي انحدر جنوبا ، والذي كان معظمه يمثل الميسرة الفارسية ، والقسم الذي صعد شمالا من الجيش الفارسي كان يمثل الميمنة الفارسية ، أن القسم الذي توغل غربا من الجيش الفارسي كان يمثل القلب ، ومع ذلك ، فقد تمكن الجيش العربي الاسلامي من اللحاق بفلول الجيش الفارسي وقتل أحد قادته وهو «الجالينوس» الذي تولى القيادة بعد مقتل «رستم» ، وهكذا فقد الجيش الفارسي القيادة كليا بعد أن قتل جميع قادته الكبار •

بمقتل الجالينوس ، تعد معركة القادسية منتهية ، النصر فيها أصبح معقودا للعرب المسلمين الذي كان عليهم التهيؤ لصفحة أخرى من القتال ، بغية تحرير كامل التراب العراقي من الفرس •

نهاية المعركة

كانت نهاية المعركة تمثل حسما ميدانيا للعرب الذين تفوقوا في أفكارهم العسكرية على الفرس ، على الرغم من تفوق الفرس العددي على العرب ، وقد كان هذا التفوق يشمل جميع المفردات العسكرية ، بما فيها المفردات التعبوية البسيطة ، وصولا الى المفردات السوقية «الستراتيجية» الكبرى •

نهاية المعركة وان كانت مكللة بالنصر للعرب المسلمين ، الا انها كانت غير حاسمة ، لذلك كان لزاما على العرب أن يجهزوا أنفسهم لتحرير المدائن الذي يقع فيها البلاط الكسروي ، ومن ثم تحرير بقية أجزاء العراق من نير الفرس •

هناك حلقة حربية يجب أن نلتفت اليها ، وهذه تتعلق بالخسائر لدى الطرفين ، حيث تشير هذه الحلقة الى أن خسائر الفرس كانت خمسة أضعاف

خسائر العرب ، حيث بلغت أربعين ألف قتيل ، أما خسائر العرب المسلمين ، فكانت تقدر بثمانية آلاف شهيد ، وهذا يعني أن القوة العددية وحدها غير كافية لتحقيق النصر ، مالم تقترن بالعزيمة ، وتسخير الفنون العسكرية ، واستخدام مباديء الحرب الاستخدام الامثل يقود الى الظفر في المعركة والقضاء على الخصوم مهما كانت درجة تفوقهم العددي •

بعد معركة القادسية الاولى تم تحرير المدائن ، بعد أن هرب الملك الفارسي «يزدجر» منها ، وقد جاء تحرير المدائن بعد شهرين من وقوع معركة القادسية الاولى ، حيث كان على القائد العربي القدير سعد بن أبي وقاص أن يعيد تنظيم قواته خلال هذه المرحلة ، ومن ثم مهاجمة المدينة ، وقد تمكن هذا القائد المبدع من انجاز ذلك بكل براعة ، انسحبت على أثره جميع القوات الفارسية التي كانت في المنطقة ، والتي كان عليها أن تقوم بقتالات تراجعية لاغراض التعويق ، غير أن القوات العربية الاسلامية لم تدع لها فرصة العمل المذكور ، ولذلك طاردتها حتى «حلوان» بعد أن خاضت معركة حصار مع الفرس في «جلولاء» في العراق ، وهكذا تم تحرير العراق من الفرس •

هناك أمر يجب أن لا نغفله مطلقا ، وهو يتعلق بالاوامر الصادرة من قبل الخليفة عمر والتي نصت على عدم التوغل داخل الحدود الايرانية ، وهكذا تم تحرر العراق من أيدي الفرس عبر أعظم معركة فاصلة من معارك التاريخ ، وعلى أيدي قادة أفذاذ ، متمثلين أولا بالخليفة أبي بكر الصديق (رض) ، والخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، والقائد العربي الملهم سعد بن أبي وقاص ، علما أن هذه المعركة وخلال صفحات التهيؤ كانت من مسؤولية الخليفة أبي بكر الصديق (رض) ، ولكن المنية عاجلته فأكمل المسيرة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) •

وبذلك طويت صفحة قاتمة من حياة العراق وبدأت صفحة أخرى مشرقة مازالت تتلألأ في جبين الزمن •

المراجع والهوامش

(١) القول المذكور للنبي محمد «صلعم» ، والقول مشهورا جدا ونصه الكامل هو: «هذا أول يوم أنتصف به العرب من العجم وبي نصروا» ٠

(٢) صبحي عبدالحميد ــ معارك العرب الحاسمة ــ الدار العربية للموسوعات ، بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٦ ص٦٧ ٠

(٣) للتفاصيل يراجع الطبري ــ تاريخ الامــم والملوك ، طبعة ١٩٣٩ ، ج٢ ، صفحة «٥٥٧ــ٥٨٥» ٠

(٤) البلاذري ــ فتوح البلدان «٣٣٧» كما يذهب الطبري في ذلك الى نفس الرأي «تاريخ الطبري» «٣/٣٤٣» ٠

(٥) الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي ، مركز البحوث والمعلومات ، بغداد ــ العراق ، دراسة خاصة حول معركة القادسية ص٢٨ ٠

(٦) تأريخ الطبري ٠ مصدر سابق ٣/٤٧٨ ٠

(٧) صبحي عبدالحميد ، معارك العرب الحاسمة ، مصدر سابق ص٩٥ ٠

(٨) في الرسالة التي ارسلها القائد سعد الى الخليفة تشير الى تسمية أخرى لهذه الترعة وهي العتيق والرسالة في جزء منها يتضمن مايلي :
«ان القادسية ، بين الخندق والعتيــق ، وان عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح الى الحيرة بين طريقين ، أما أحدهما فعلى الظهرة ، وأما الاخر فعلى شاطىء نهر يدعى «الخضوض» يطلع بمن يسلكه بين الخورنق ، والحيرة ، وان عن يسار القادسية الولجة» ٠

(٩) د٠ نزار الحديثي ، معركة القادسية ، مصدر سابق ص٥٦ ٠

الدولة الاموية
وفتح القسطنطنية
الدهاء البيزنطي والعفوية القيادية الاموية
الدولة العثمانية
وفتح القسطنطنية
المخادعة التعبوية النادرة
التي
حسمت موقفا سوقيا

مسح أولي عام

لا يمكن للمرء الا أن يقف منذهلا ، ومندهشا ، أمام اكتساح الجيوش الاسلامية للدولة البيزنطية ، ووصولهم الى مشارف مدينة القسطنطينية «استنبول» حاليا ، التي كانت ومازالت من المدن السوقية المهمة ، بل تمثل عقدة من أهم العقد في العالم ، وقد فطن الى هذه العقدة البالغة الاهمية الكثير من المفكرين العسكريين، والقادة العظام، ومنهم القائد والامبراطور الفرنساوي «نابليون بونابيرت» والذي قال عنها :

«لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها»(١) .

لقد أدرك نابليون بسعة أفقه العسكري الاهمية السوقية «الستراتيجية» لهذه المدينة ، ولذلك نجده ، وحتى في كتاباته ومراسلاته عندما كان في منفاه

في جزيرة «سانت هيلانة» يركز على هذه الاهمية ، فقد كتب في مذكراته انه حاول ، عدة مرات الاتفاق مع روســــيا القيصرية على اقتسام الامبراطورية العثمانية ، الا ان مدينة القسطنطينية كانت تقف دائما حائلا دون هذا الاتفاق، فقد كانت روسيا تلح على امتلاكها ، بينمـــا يصر نابليون هو الاخر على هذا الامر[٢] .

ان نظرة نابليون وغـــيره من المفكرين العسكريين لم تنبثق من موقف تعبوي فقط ، وانما انبثقت من تقييم جاد لدور هذه العقدة في أي صراع مسلح يقع بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، لذلك فانها تمثل في نظر جميع العسكريين في ذلك الوقت نقطة الارتـــكاز السوقي في النصف الشمالي من الكرة الارضية ، وتحديدا للقارات الثلاث : آسيا ، وأوربا ، وأفريقيا .

ان الاهمية المذكورة قد فطن لها البيزنطيون ، لذلك كانوا وباستمرار يقومون بتحصين هذه المدينة ، ويبنون حولها القلاع والمتاريس ، والحصون ، ويحفرون الخنادق ، لكي يتمكنوا أن يدرأوا الخطر عنها ، وسنناقش الامر بصورة مفصلة في الفقرة الجغرافية .

الحصون التي بناها البيزنطيون ، كانت على الدوام عاملا مساعدا في ردع من يحاولها اقتحامها عنوة ، ومع ذلك ، فان محاولات جادة لاقتحامها ، خلال التأريخ تعد كثيرة ، وكان من بين هذه المحاولات محاولات عربية اسلامية ، جاءت نتيجة تشجيع الرسول محمـــد (صلعم) خلال حديث له بهذا الصدد للقيام بالمحاولة ، وان نص الحديث هو :

«لتفتـــحن القسطنطينية ، فلنعم الامير أميرها ، ولنعـــم الجيش ذلك الجيش» .

من القول أعلاه حاول أول من حـــاول فتحها الخليفة عثمان بن عفان (رض) ، وعندما كان معاوية بن أبي سفيان واليا على الشام ، وذلك في العام (٣٣) هجرية الموافق (٦٥٣) ميلادية ، حيث تمكن العرب من اكتساح معظم

اسيا الصغرى ، بقيادة معاوية بن أبي سفيان نفسه ، والوصول الى ضفاف مضيق البسفور ، بجيش عربي اسلامي لجب ، وكانت الخطة تعتمد على التعاون الوثيق بين القوات البرية ، والقوات البحرية التي أبحرت باتجاه القسطنطينية .

القوات البحرية التي كانت تحت قيادة أمير البحر «بسر بن أرطاه» والتي أبحرت من ميناء طرابلس في الشام ، التحمت مع القطع البحرية البيزنطية ، قبل وصول القوات البرية العربية الى مشارف المدينة ، ومع كل ما تقدم ، فان المعركة البحرية كانت لصالح الاسطول العربي ، وان النصر النهائي عقد لهم ، وقد فر البيزنطيون بعد أن تكبدوا خسائر تقدر بقرابة عشرين ألف جندي بحار ، وعودة القطع البحرية التي كتب لها النجاح الى القسطنطينية(٣) .

لم يتمكن الاسطول العربي على الرغم من انتصاره من مواصلة الابحار نحو القسطنطينية ، اذ انه هو الآخر تكبد خسائر تذكر ، ولذلك فانه كان بحاجة الى اعادة تنظيم صفوفه من أجل الدخول في معركة اقتحام قاسية لمدينة محكمة ومحصنة جدا هي القسطنطينية .

كانت هذه المحاولة هي المحاولة العربية الاولى .. ومع ذلك لم يكف معاوية بن أبي سفيان عن هذا الحلم ، الذي كان يعد حلما مقدسا لانه جاء من قول رسول كريم .

عندما قامت الدولة الاموية في الشام ، وتولي معاوية الحكم ، نجده يسارع مرة أخرى بارسال رتلين عسكريين لفتح القسطنطينية ، أولهما الرتل الارضي ، بقيادة عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، والذي وصل الى مقربة من المدينة ، والرتل البحري بقيادة «بسر بن أرطاة» الذي وصل بحر مرمرة ، وعلى أية حال ، فقد كتب على هذه المحاولة الفشل أيضاً ، إذ لم يتمكن العرب المسلمون من اقتحام المدينة بعد أن داهمهم برد الشتاء ، ومع ذلك ، لم يصب معاوية بن أبي سفيان بالخيبة ، والملل واليأس ، بل عبأ في محاولته القادمة ، وهي الثالثة الجيوش الجرارة وخيرة فتيان العرب ، وقادته ، وقد سار على رأس هذا الجيش

«فضالة بن عبيد الأنصاري» ، حيث اجتاز هضبة «الاناضول» فاتحا الحصون الرومية ، حصناً اثر حصن .

لقد عقب الجيش الاول جيش ثان ، بقيادة «سفيان بن عوف الازدي» ، وقد وصل الجيشان الى مشــارف القسطنطينية ، في الوقت الذي تحرك فيه الاسطول العربي بقيادة أمير البحر «بسر بن أرطاه» ، والذي وصل الى مضيق «الدردنيل» دون مقاومة تذكر ، ولمــا كانت مدينة القسطنطينية تقع في قارة أوربا ، فقــد أعان أمير البحر بسر بن أرطاه القائد العربي ســفيان بن عوف الازدي على عبــور الجيش العربي الاسلامي من البر الاســيوي ، الى البر الاوربي بغية حصار القسطنطينية من كل الجوانب ، برا وبحرا .

هذا الحصار حدث في أوائل عام (٥٠) هجري ، الموافق (٦٧٠) ميلادي ، ومع كل الاستعدادات فقد كتب على هذا الحصار الفشل أيضا ، لأن أسوار مدينة القسطنطينية كانت منيعة جدا ، كما كان للنار الاغريقية التي ترمى من الحصون تأثير مباشر في الاسطول العربي الاسلامي ، حيث كانت هذه النار تلتهم أية قطعة بحرية تحاول الصولة على أسوار المدينة .

النار الاغريقية كانت لا تبالي بمياه البحر ، اذ كانت خصائص هذه النار هو عدم تأثرها بالماء .

لقد أصاب الوهن القوة البرية العربية المكلفة بالحصار بعد أشهر عديدة منه ، وذلك من جراء المعارك اليوميــة للاستيلاء على أسوار المدينة وخلال فصلي الربيع والصيف ، وصولا الى الشتاء ، وعند ذلك انسحب الجيش العربي الاسلامي نحو جزيرة «كيزكوس» التي تبعد قرابة مائة وخمسين كيلو مترا عن المدينة على أقل تخمين ، وذلك لتحسين حالتهم الادارية ، واصلاح سفنهم ، واعادة تنظيم صفوفهم عسكريا ، ثم معاودة القتال ، والتطويق عند حلول الصيف القادم ، غير أن هذه المحاولة هي الاخرى لم يكللها النجاح ، ولذلك

عادت القوة العربية الاسلامية الى قواعدها بعد أن فقدت ثلاثين ألفا من خيرة الرجال ومنهم الصحابي الجليل «أبو أيوب الانصاري» .

بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان جرت محاولة أخرى في خلافة سليمان بن عبدالملك ، وكان البعض من الفقهاء قد أخبر سليمان بن عبدالملك أن من يفتح القسطنطينية يحمل اسم أحد الانبياء ، ولذلك كان سليما أكثر حماسا وأكثر اصرارا وحزما على فتح هذه المدينة لاسيما وان المؤامرات داخل المدينة المذكورة كانت على قـدم وساق ، وتحاك من أجل الاستئثار بالحكم من قبـل بعض الطامعين به ، ناهيك أن المدينة قد أنهكتها الغارات القادمة من الشمال ، والتي كان يقوم بها البلغار والسولاف .

قام سليمان بن عبدالملك باختيار أخيه مسلمة لقيادة الجيش الذي سيذهب لفتح القسطنطينية ، وذلك في عام (٩٨) هجرية الموافق (٧١٦) ميلادية .

سار الجيش الاموي حتى وصل مدينـة «عمورية» ، ففتحها ، وكان حاكمها في انذاك «ليون» ، وهو قائد بيزنطي مغامر وطامع في العرش البيزنطي، وقد قام بالتفاوض مع القائد العربي مسلمة بن عبدالملك ، حسب شروط معينة، ما زال التاريخ يسدل عليها حجاباً كثيفاً ، ولكن الواضح في الموضوع، هو أن القائد البيزنطي «ليون» قد أرشد القائد العربي على بعض المفاتيح التي تتيح له امكانية فتح المدينة ، ومع ذلك ، فان هذه الارشادات ، كانت تصاحبها عملية مخادعة كبرى .. تجعل من الصعب فتحهـا ، وهنا تختلف المصادر العربية والبيزنطية تذكـر أن ارشادات «ليون» كانت صائبة الهدف منهـا اضعاف القوات البيزنطية في مدينة القسطنطينية من أجل اضعافها ، مما يمهد فرصا أكبر للقائد ليون الطامع بها في الوثوب الى عرشها والاستيلاء عليه ، وعلى أية حال ، ومهما كانت الامور فان من الثابت أن «ليون» قد نادى بنفسه امبراطورا وسار الى القسطنطينية ، وتوج فيها امبراطورا ، وهكذا أصبح هذا المتفاوض المهزوم خصما للقائد الاموي مسلمة ، بعد أن كان مرشدا له .

وصل الاسطول الاموي ، بقيادة القائد البحري سلمان بن معاذ لمحاصرة المدينة ، وبلغ في هذه الحالة مجموع القوات الاموية مائة وثمانين ألف ألف ، عبرت مضيق الدردنيل ، وهكذا احكم الحصار برا وبحرا ، وذلك في شهر آب من عام (٧١٧) ميلادي •

كانت المخادعة هو الترياق الذي استنشقه القائد الاموي مسلمة ، والذي خلص هذه المدينة من الفتح ، وسنأتي على ذكـــره بالتفصيل في مادة المخادعة القادمة التي سنكشف عليها الضوء من خـــلال سردنا للمعركة المقبلة بصورة تفصيلية عبر حوادثها المتتابعة •

المحاولات العربية الاسلامية ، بعد هذا الحصار لم تكن جادة مطلقا ، فالأمويون تخلوا عن هذا الحلم المقـــدس ، والعباسيون لم تكن لديهم هذه الاحلام ، علما بان هارون الرشيد ، وخلال مدة خلافة المهدي ، فتح الاناضول ، ووصل الى ضفاف البسفور ، ولكن لم تكن لديه النية في اقتحام القسطنطينية ، وقد قبل بالجزية التي دفعتها الملكة «ايرثي» اليـــه ، والملكة المذكورة كانت وصية على العرش البيزنطي •

حدثت محاولة أخرى في أيام الدولة العباسية من قبل الخليفة «المعتصم» ، الذي فتح مدينة «عمورية» ، وسار بعدها نحو القسطنطينية ، ولكنه لم يفتحها لاسباب عديدة ، منها المؤامرة التي كان يحوكها ضـــده بعض القادة ، والتي تقضي باغتياله ، وتنصيب ابن أخيه «العبـــاس بن المأمون» على العرش بدلا منه ، وهكذا بقيت هذه المدينة عصية على الدولة العباسية أيضا ، الا أن جاءت الدولة العثمانية ، التي حاولت فتحها ، ولكنها لم تفلح في هذا الموضوع الا على يد السلطان محمد ، الذي لقب بمحمد الفاتح لفتحه المدينة المذكورة ، علما بأن أول من حاول فتحها من سلاطين بني عثمان هو السلطان «بايزيد» في العام (١٣٩٦) ميلادية ومراد الثاني في عام (١٤٢٢) ميلادية أيضا •

ان فتح القسطنطينية لم يكن عملا عسكريا سهلا يعتمد على القوة العددية في البر والبحر ، بقدر ما كان يعتمد على الحسابات العسكرية المعقدة والاساليب المبتكرة التي على القائد العسكري أن يقوم باستنباطها ومن ثم الوصول الى نتيجة ومسلك عمل يفضي به الى النجاح .

ان اقتحام مدينة محاطة بالمياه والاسوار المحصنة مثل مدينة القسطنطينية ليس بالأمر اليسير مالم توظف له كل سبل المعرفة المعتمدة على العلم ، فضلا عن الاستخدام والتطبيق الامثل لبعض مبادىء الحرب أو جميعها ، هذا ناهيك عن أن المخادعة يجب أن تستخدم استخداما ذكيا لانها تعد القاسم المشترك الاعظم لأي عمل عسكري من هذا القبيل .

كانت معركة فتح القسطنطينية ، معركة مستمرة ، فمن الشمال كان هناك طامعون أوربيون ، ولكنهم لم يكونوا بالقوة التي تتمكن من الفتح ، أما الفتح العربي فقد كان من القوة بمكان ، ولكنه لم يكن منظما تنظيما يمكنه من اجتياح أسوار المدينة القلعة ، كما أن القيادة ، وخصوصا قيادة مسلمة بن عبدالملك لم تكن بالمستوى الذي يؤهلها الى انجاز هذا العمل العسكري الكبير لاسيما اذا ما عرفنا أن هناك بلبلة في تلك المرحلة في البلاط الاموي(٤) ، وهذه البلبلة قد أثرت بصورة ، أو باخرى على مجمل الوضع ، هذا فضلا عن المخادعة التي لعبت دورا كبيرا والتي تمرس بها الحاكم «ليون» ، والتي انطلت على القائد الاموي مسلمة بسهولة كبيرة ، لا يمكن أن تصدق .

اذا عرجنا على حوادث فتح القسطنطينية من قبل محمد الفاتح المتواصلة ، سنجد ان محمد الفاتح كان يملك زمام المبادرة من جميع النواحي الحربية ، ومنها المخادعة التي برع بها هذا السلطان الى أبعد الحدود ، والتي أدت الى سقوط المدينة الحصينة ، هذا فضلا عن أن شخصية الفاتح كانت تتميز بجميع المواصفات العسكرية ، والفكرية ، والعلمية ، خلافا لشخصية حاكم المدينة وامبراطورها «قسطنطين» الذي كان يعتمد اعتمادا كليا على قائده العسكري

«جوستنيان» ، وهكذا سنجد أن «جوستنيان» عندما جرح في المعركة كيف أن التراخي قد ساد المعسكر البيزنطي المحاصر ، والذي أعقبه الانهيار .

ختاما لهذه المقدمة علينا أن نقول أن هذه المدينة التي فتحها «اللاتين» عام (١٢٠٤) ميلادية واقتحمها محمد الفاتح سنة (١٤٥٣) ميلادية كانت ترصف وترمم أسوارها كل عام ، لذلك كانت أسوارها حصينة جدا ووليدة عدة قرون من الاعمار المستمر ، ومهما كانت الاسوار فان العزيمة والارادة ، وقوة الشكيمة ، والتفكير العلمي والمنطقي ، واستخدام الاساليب الصحيحة يمكن أن توصل الى غاية القائد ، لأن أسوار المدينة لا تصنعها الحجارة ، بل زنود الرجال .

المراجع والهوامش

(١) الدكتور سالم الرشيدي · محمد الفاتح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ـ عام ١٩٦٩ ص٥٤ ·

(٢) المصدر أعلاه ص٥٤

(٣) الدكتور صالح الأشتر ، الدكتور عمر الدقاق ، الاستاذ محمد الانطاكي ـ معركة فتح القسطنطينية ـ دار الشرق العربي ـ لم تذكر سنة الطبع ـ بيروت ـ لبنان ص١٤ ·

(٤) المصدر أعلاه ص٣٢ ·

(٥) العلامة أبي محمد بن أعثم الكوفي ـ كتاب الفتوح ـ المجلد السابع ـ دار الندوة الجديدة ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الاولى ـ الصفحات ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ·

المعركة العربية الإسلامية

التهيؤ للمعركة

بعد أن استقرت الخلافة الاموية في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان ، نشط الامويون ، في قضايا الفتح لنشر الدعوة الاسلامية ، ومنها ما جاء بشأن الخليفة سليمان بن عبدالملك نجل الخليفة عبدالملك بن مروان الذي جرى ذكره مقدما .

كان سليمان بن عبدالملك لايفتأ يفكر في موضوع فتح القسطنطينية ، ولذلك حشد الرجال من كل صوب في معسكر يدعى «دابق» ، وهو معسكر بالقرب من مدينة «حلب» الحالية في بلاد الشام ، وذلك بغية انطلاقهم نحو المدينة المذكورة ، وقد ولى امارة هذا الجيش وقيادته الى أخيه مسلمة بن عبدالملك ، وكان جيشا جرارا لجبا بالنسبة الى تلك العصور ، ومن الجدير بالذكر أن الخليفة أقسم أن لا يغادر المدينة وهذا المعسكر ، الا بعد أن تأتيه البشائر من أخيه بفتح المدينة ، ولكي يعطي الخليفة الى الجيش المذكور مهابة أكثر ، فقد طعم هذا الجيش بالكثير من الوجوه الشامية البارزة .

القوة العددية ضمن صفحة التهيؤ للمعركة كانت كبيرة جدا ، وقد تقاطروا على الجيش من كل حدب وصوب ، وعلى أية حال ، فان ما تجمع من الرجال في هذه المرحلة كان يقدر عدده بمائة وثمانين ألف رجل منهم من كان

محمولا على ظهر السفن ، ومنهم من كان في البر ، وكانت المواد التموينية قد جمعت من أجل اسناد الحملة ، والتي تمكن المقاتلين من اداء مهمتهم من دون الالتفات صوب المؤخرة للتفتيش عن مواد الاعاشة ، وهذا يساعد على تشديد الحصار على المدينة صيفا وشتاء ، أما اذا عدنا الى السفن الاموية فسنجد أن عددها كان يناهز ألفا وثمانمائة سفينة بقيادة سلمان بن معاذ الانطاكي ، ومع كل هذه الامور فان مسلمة عندما وصل الى أسوار القسطنطينية أمر الجند بالزراعة وعدم اللجوء الى المؤن الكثيرة التي بحوزتهم(١) ، لتساعدهم هذه العملية على اطالة أمد الحصار ، لو تطلب الامر ذلك ، هذا علاوة على الغارات التي كانوا يقومون بها من أجل الحصول على مزيد من المؤن ، أما من ناحية السكن ، فقد أمر القائد الاموي مسلمة ببناء بيوت خشبية(٢) تقيهم برد الشتاء القارص في تلك الاصقاع النائية عن بلادهم •

أعد مسلمة بن عبدالملك العدة لحصار طويل المدى ، وهذا يعني بالمفردات العسكرية البسيطة انه لم يحاول أن يكون التعرض هو الاساس لسقوط المدينة عبر اقتحامه لأسوارها عنوة بعملية اقتحامية جسورة ، بل فضل سلوك استراتيجية الحرب الطويلة الامد ، التي تعتمد على انهاك المدافعين بصورة تدريجية ، والوصول بهم في النهاية الى حافات القحط الغذائي ، وعند ذلك سيستسلمون من دون اراقة دماء بأمر من الجوع •

المسلك التي اتبعه مسلمة بن عبدالملك كان مسلكا محفوفا بالمخاطر ، اذ أن الحصار مهما كان نوعه يمكن أن يطول ، أو يقصر ، وذلك يعتمد على تماسك المدافعين ، وخصوصا من ناحية الارادة في تداول مواد الاعاشة •

ان الحصار كلما يطول يمكن أن يؤدي الى مردود عكسي بالنسبة للمهاجم ، حيث يمكن أن يدب الضجر الى نفسه ، وبذلك سيقلل من ادائه القتالي ، هذا ناهيك عن امكانية اصابة المهاجم بالامراض والأوبئة خلال مدة الحصار •

مهما كانت الأمور ، التهيؤ للمعركة من قبل الامويين كان جيداً من الناحية التخطيطية ، الا انه يعد مبتورا من الناحية القيادة ، وكما سنلمس هذا في الصفحات المقبلة .

جغرافية ميدان المعركة

تقع مدينة القسطنطينية في حافة أوربا الجنوبية المطلة على مضيق البسفور ، وتحيط بها المياه من ثلاث جهات ، فمن الشرق يحدها خليج «القرن الذهبي» ، الذي يعد من أهم الخلجان في العالم في تلك المدة ، لانه كان يحمي القسطنطينية بكل يسر وسهولة من الشرق ، بوجه الطامعين الكثر في المدينة ، لانه كان من الممكن أن يقفل بوجه السفن بوساطة السلاسل الحديدية المخصصة بذلك ، أما في الجنوب فكان هناك مضيق «البسفور» وبحر مرمرة ، ومن الغرب والشمال الغربي كان البر الاوربي .

المدينة بوجه عام مثلثة الشكل ، ومخاطة بالاسوار من جميع جهاتها ، سواء الجهات البحرية ، أو البرية ، الا أن الاسوار البحرية كانت أقل متانة من الاسوار الارضية ، وذلك لوجود البحر كمانع مائي عصي أمامها ، وهذا يعني امكانية تسهيل مهمة الدفاع عنها باستخدام الاسوار استخداما عسكريا سليما في الاتجاهات البحرية .

الاسوار في الجانب الارضي كانت أكثر متانة ، وكانت تتألف من سورين منفصلين ، طول كل منهما أربعة أميال يمتدان مابين بحر «مرمرة» وخليج «القرن الذهبي» ، وكانت هذه الابواب تحوي على عدد من الابواب ، وهي ، باب «أدرنة» في اليسار من خليج القرن الذهبي ، وباب القديس «رومانوس» الذي أخذ بعد ذلك اسم باب المدفع «طوب قبو» ، وهذه الباب تقع في وسط السور البري المذكور ، أما الباب الثالثة فكانت تقع بالقرب من بحر «مرمرة» في اليمين وتدعى بالباب الذهبي ، أما الباب الرابعة فكانت تدعى

«باب الميناء» لأنها تقع على ميناء خليج القرن الذهبي .

السور الداخلي كان على ارتفاع أربعين قدما ، ويحوي عددا من الابراج، والمسافة بين برج وآخر مائة وثمانون قدما(٣) .

السور الخارجي كان أوطأ من السور الداخلي ، اذ يبلغ ارتفاعه خمسا وعشرين قدما .

المسافة بين السور الخارجي والداخلي كانت تبلغ ستين قدما ، وأمام السور الخارجي كان هناك سور آخر ، ليس له أهمية تعبوية كبيرة ، لانه لا يصلح للدفاع الطويل الامد ، وحتى لو كانت تشغله قطعات مدافعة فان أمر اقتحامه من قبل قوة مقاتلة عزومة يعد أمرا سهلا .

فضلا عن الاسوار كان هناك خندق واسع يبلغ عرضه ستين قدما يقع أمام السور الداخلي .

مما تقدم يمكن أن نلمس وبما لا يقبل النكران أن الخطوط الدفاعية المتعاقبة عن المدينة والمتمثلة بالاسوار والخنادق يمكن أن تنهك أية قوة مهاجمة وتوقع بها خسائر جمة في الأفراد والمعدات .

الامور الجغرافية الاخرى المتعلقة في ميدان المعركة كانت تتمثل بالطقس الجيد ، في تلك المرحلة ، والذي يساعد على القتال ، علاوة على امكانية استغلال الارض من قبل المهاجم اذا اراد الحصار لزمن طويل ، وذلك باستغلالها للامور الاقتصادية والرصد ، وغيرها من الامور العسكرية .

الموقع الجغرافي للمدينة ، يحتم على المهاجم أن يتخذ مسلكين هما المسلك البحري ، والمسلك البري بصورة مجتمعة .

المسلك البري صعب جدا ، لأن على المهاجم عندما يريد اقتحام المدينة عليه أن يهاجم أسوارها جبهويا ، وبذلك يفقد المناورة ، وبهذه الحالة ، ستكون

جميع حركاته مرصودة من قبل الابراج الموجودة داخل الاسوار ، وبذلك سيتغطي خسائر كبيرة جدا .

المدينة فضلا عن ذلك شيدت على سبعة تلال ، بنيت عليها القصور الشامخة ، من قبل الملوك المتعاقبين على حكمها والامراء الاثرياء ، أو أولائك الناس الذين يتنعمون بنعمة الثراء الواسع ، وهكذا أصبحت هذه المدينة لا قلعة عسكرية بالنسبة للبيزنطيين ، وإنما تمثل تحفة فنية رائعة في ذلك العصر .

قوات الطرفين ـ العرب ـ البيزنطيون

كان الخليفة سليمان بن عبدالملك ، كما ذكرنا ، متحمسا لفتح المدينة ، ولذلك كان يحاول جاهدا أن يرسل جيشا متفوقا في العدة والعدد ، على خصومه البيزنطيون ، ولذلك هيأ ألفا وثمانمائة سفينة مختلفة ، منها السفن الحربية المقاتلة ، ومنها السفن الادارية التي تحمل مواد الاعاشة ، وهذه السفن تعد متفوقة عدديا على السفن البيزنطية ، وبامكانها سد مضيق القرن الذهبي ، الذي يمكن أن يسد بواسطة السلاسل بكل بساطة ، ومع ذلك فان امكانية هذه القوة على اجراء الهجمات المستمرة يمكن أن يؤدي الى زعزعة الدفاعات البيزنطية ، كما يمكن أن تؤدي الى حالة من الاستنزاف للاسطول المعادي .

القوات الاموية فضلا عن تفوقها العددي ، كانت متفوقة أيضا من الناحية المعنوية ، لان البلاط البيزنطي كان في حالة نفسية مفتتة ، بحيث استطاع «ليون» ، وهو حاكم أحد المدن البيزنطية من الاستيلاء على المدينة ، واخضاعها لسلطانه ، ومع ذلك ، لم يعتمد «ليون» في دفاعه على الرجال حسب بل كان يؤمن بان القوة الهائلة الاضافية تكمن في الاسوار .

القوة الاخرى المتممة للقتال الشرس في الجانب البيزنطي كانت تأتي من داخل المدينة ، وعلى شكل محفزات ، ومحرضات على القتال ، وهذه القوة

تتمثل بالاطفال والزوجات ، والشيوخ ، الذي على المدافعين الذود عنهم حتى آخر قطرة من الدماء السائرة في العـــروق ، وبذلك فقد اكتمل لدى المقاتل البيزنطي الثالوث المعرض على القتال والمتمثل : «العرض ، المال ، الوطن» ، وهذا ما يجعله لا مقاتلا اعتياديا فقط وانما مقاتلا عنيدا باسلا شرسا .

الخطة الاموية

كانت الخطة الاسلامية العربية الاموية التي وضعها مسلمة بن عبدالملك تعتمد على ستراتيجية «سوق» الحرب الطويلة الامد ، والنفس القتالي الطويل، وهذه يتناسب بها النصر تناسبا طرديا مع الوقت ، حيث سيكون النصر على حساب الزمن ، وهذه الستراتيجية تتوخى أول ما تتوخى الاستنزاف الطويل الامد ، أي امكانية الحصول على النصر من دون قتال يذكر ، والحصول على النصر بأقل ما يمكن من الخسائر ، ولهذا نجد أن القائد الاموي قد أمر بزراعة الارض الخصبة المحيطة بالمدينة ، وعدم المساس بالمواد الغذائية التي جلبت من الشام لاسناد الحملة اداريا .

الامر أعلاه يبدو معقولا بالنسبة للقوات الارضية ، لان الاستقرار على سطح الارض ، والقيام بدوريات قتاليـــة بسيطة لايتعب كثيرا ، ولن يكون مكلفا كذلك ، بيد أن الحصار من وجهة النظر البحرية في تلك المرحلة وبسفن خشبية بسيطة ، كان أمرا صعبا ، ومنهكا في الوقت نفسه ، حيث كان يتطلب من هذه السفن مراقبة جبهتين أو ثلاث جبهات في آن واحد ، بدلا من مراقبة جبهة واحدة .

النقطة الاخرى المتعبة بالنسبة للقـــوات البحرية ، هو وجوب يقظتها المستمرة ليل نهار ، خوفا من التسلل البحري ، وذلك لمنع أي تسرب ممكن للمواد الغذائية الى مدينة القسطنطينية عبـــر البحر والخليج الفسيح ، وهذا يعني أن على الكثير من البحارة العرب البقاء في حالة تأهب قصوى ، ليل نهار ،

ومما يزيد الطين بلة ، والاوضاع صعوبة هو تعرض هذه إلى هياج البحر ، والعواصف ، والريح ، والامواج ، ولمدة طويلة ، وهذا يعد أمرا بالغ الصعوبة مسبوك بالمشقة البدنية •

الخطة الاموية فضلا عما ذكر أعلاه تعد في بعض نواحيها خطة طموحة ، على المستوى الاستراتيجي «السوقي» ، الا انها غير طموحة على المستوى العملياتي والتعبوي •

الاسلحة المستخدمة في ذلك العصر ، لا يمكن أن تحسم الامور القتالية بسهولة ، حيث لم يكن هناك البارود ، ولا المعدات الهندسية التي تساعد على الاقتحام ، وكل ما كان متداولا لا يتعدى الحبال ، والتروس البسيطة ، والسلالم لاغراض تسلق جدران الاسوار ، وهذه المعدات لم يكن العرب يألفونها أو قد تدربوا عليها لمدد طويلة وبصورة متقنة •• اذ أن الجزيرة العربية ، وقتال العرب قبل الاسلام ضد أعدائهم كان لا يعدو كونه أكثر من «الكر ، والفر» ، الا أن جاءت المعارك الاسلامية العملاقة كالقادسية واليرموك والجاهلية كذي‌قار ، ومع ذلك فان هذه المعارك هي الاخرى لم تكن معارك اقتحام لاسوار مدن حصينة ، ومع ذلك أن لا ننكر مطلقا الالمام البسيط للعرب بخواص محاصرة المدن قبل هذه المعركة والتي جرت بالتعاقب في خلافة عثمان (رض) ، ومعاوية ، والاساليب التي يمكن اتباعها من أجل الضغط الفاعل على المدن من أجل اسقاطها ، أو استلامها طوعاً •

في المضمار الذي كنا بصدده علينا أن لا نغفل حقيقة ناصعة واحدة ، تتمثل بأحد مبادىء الحرب ، والذي ينص على أن العمل التعرضي المستمر هو الاساس في التقدم خطوات متوازنة نحو النصر ، لان التعرض المستمر يعد ضربات مطرقة متوالية على صخرة صلدة أو هشة بغية تحطيمها ، وهذا يعتمد على النفس الطويل ودراسة القوة ومتطلباتها بحيث بامكانها أن تؤمن استمرارية الطرق المستمر بدون كلل •

خطة ليون البيزنطية

لم تكن لدى الحاكم البيزنطي خطة معينة خاصة تختلف عن الخطط المتبعة في الدفاع عن المدن باستخدام أسوارها ، فالخطة عموما كانت تعتمد على المراقبة المستمرة للساحة التي تطل عليها الاسوار ، ورصد أية تحركات خارجها وابلاغ القيادة العليا أولا بأول ، أو معالجتها اذا كانت تحركات خاطفة ، وبالقوات المتيسرة ، بعد أن يكون الراصد قد قدر محور الهجوم الرئيسي .

النقطة الجوهرية في الدفاع ، في هذا الشكل من القتال ، هو مداولة القوات المدافعة بشكل ذكي سليم ، بحيث يمكن أن تنتقل من موقع الى موقع آخر بكل سهولة ، مع عدم تجاوز مبادىء الحرب خلال تلك الحركة[٤] .

ان الخطط عموما ، حتى وان كانت مدار بحث من قبل القادة الفرعيين ، الا أن القرار النهائي ، والاول والاخير يكون من حق القائد الاعلى ، لذلك كانت الخطة البيزنطية من نتاج الحاكم «ليون» وان اشترك البعض الاخر في مناقشتها .

لقد عرف عن «ليون» انه ميال للمراوغة والمخادعة ، وعليه وكاستنتاج يولد من المعطيات أعلاه ، فان الخطة البيزنطية اعتمدت على المخادعة كحجر زاوية تستند اليه في العمليات القتالية القادمة والتي تعد بيت القصيد في موضوع بحثنا هذا ، وفي عموم الكتاب .

لقد ركز ليون على المخادعة بصورة خاصة منذ الايام الاولى من الحصار ، وحتى قبل الايام الاولى منه ، عندما كان حاكما لمدينة «عمورية» .

خلال الحصار كان خطته تؤدي في كل مفاصلها الى التحادي في عمليات المخادعة ، لانه قام بدراسة عميقة لنفسية القائد العربي الاموي مسلمة بن عبدالملك ، والذي وجد فيها أرضا هشة لتقبل بذور المخادعة المطلوبة ، لما

تنطوي عليه هذه النفسية من سذاجة في مجال الفن والفكر العسكري ، اللذين يتفاعلان وينتجان مسالك عمل واقعية ، وصحيحة ، تؤدي الى النصر في المعارك .

الخطة البيزنطية ، فضلا عن كل المفردات أعلاه كانت تبدو متفوقة من الناحية البحرية ، فلدى البيزنطيين النار الاغريقية التي مثلت سلاحا فتاكا تجاه البحرية العربية الاموية ، حتى بدت أية عمليات صولة بحرية باتجاه الاسوار البحرية للمدينة عملا خائبا ، لان النار الاغريقية المذكورة لا يمكن أن تخمد حتى عند وقوعها في الماء ، هذا اذا ما علمنا أن معظم المراكب العربية الاموية كانت معمولة من الخشب الذي يمكن أن تلتهمه هذه النار بكل سهولة ، مما ينجم عنه الخسائر في الارواح والمعدات .

مع كل ما ذكرنا ، فان الحاكم البيزنطي «ليون» قد حسب حسابات أخري أكثر دقة ، حيث لم يعتمد على النار الاغريقية كليا في كسر شوكة الاسطول العربي الاسلامي الاموي ، لان مدى هذه النار عند اطلاقها كان لا يتعدى مئات الامتار ، وهي المسافة التي كانت «الراجمات» تصل اليها في تلك العهود ، وعليه وكاستنتاج ان النار الاغريقية كان يتمكن الاسطول العربي الاسلامي من تحاشيها ، وذلك بابتعاده عن الاسوار مسافة معقولة ، الا اذا أراد الصولة والاقتحام .

مخادعة ليون البيزنطية

لقد كان ليون حاكم مدينة القسطنطينية بالمخادعة كثيرا ، وعلى أساس انها تعبر عن عمل فاعل مجد لاسناد الخطة العامة ، تحمل في ثناياها الحيوية كامنة يمكن أن تفتح الطريق الى الانتصار اذا ما خطط لها بطريقة ذكية ، معقولة ممزوجة بالدهاء .

لقد أجمعت كل المصادر على دهاء «ليون» ، وحنكته السياسية ، والعسكرية ، على حد سواء ، فهو من جهة ، فاوض القائد العربي مسلمة بن عبدالملك على شروط معينة ، عندما وصل القائد العربي الى مدينة «عمورية» ، كما وانه قد جهز نفسه للانقضاض على الحكم في القسطنطينية ، ومن ثم تسلمه لهذا الحكم ، والاستفراد به بشكل دكتاتوري سافر .

الخديعة الاولى ، كما يذكر الطبري والمؤرخون الآخرون جاءت أولا من خلال اعطاء «ليون» معلومات متشابكة الى القائد العربي الاموي مسلمة ، حيث كان قسم منها صحيحا والقسم الاخر مخطوءا ، وبذلك ضرب هذا القائد العسكري والسياسي عصفورين بحجر واحد ، وأصاب منها مقتلها ، فهو على سبيل المثال لا الحصر شجع مسلمة على حصار واقتحام القسطنطينية باعطائه بعض نقاط الوهن فيها ، بينما نجده في الوجه الاخر قد سار هو لتنفيذ عملية الاستيلاء عليها ، وعلى أية حال ، فانه كل ما كان يريد هو فرصة زمنية تتيح له تنفيذ مآربه الشخصية ، والمتمثلة باستئصال جذور الحكم في المدينة والتربع على عرشها .

المخادعة البيزنطية كانت تعتمد أساسا على التسويف واختلاق المواقف الكاذبة التي من شأنها أن تستدر العطف العربي ، وطبيعة القائد العربي المقتربة الى السذاجة منها الى الدهاء ، والتي استغلها ليون الى أبعد الحدود .
كان «ليون» يقظا ، مقتنصا الفرص اقتناصا من أجل ايقاع أكبر الخسائر في الجيش العربي .

لقد كان «ليون» يكيد كيدا ، يبدو في ظاهره عملا مشروعا ، وفي باطنه سما زعافا يأتي على الحرث والنسل ، ويهدم كل الاسس التي بنى عليها القائد الاموي «مسلمة» عملية اقتحام المدينة ، لانه درس القائد الاموي وعرف خبايا تفكيره ومكونات نفسيته .

ان مسألة المخادعة البيزنطية كجوهر وكحقيقة لم تكتب عنها المراجع الا ما ظهر منها ، أما الخفايا التي جعلت القائد الاموي يقبل المخادعة بصدر رحب فمازالت حوادث دفنت في ذاكرة الزمن فقط ، علما بان الامويين مشهورون بالدهاء السياسي والعسكري ، وان أخبار تحريرهم الشرق الاقصى وأفريقيا واسبانيا تتزاوج فيه عوامل الذكاء السياسي ، مع الحنكة العسكرية ، ومع كل هذا وذاك ، فلا ضير أن يكون بين ظهرانيهم قائد عسكري «كمسلمة» ، يمكن أن تنظلي عليه الأعيب المخادعة البيزنطية بكل سهولة .

سير المعركة في المعركة الاموية البيزنطية

لم تكن هناك معركة حقيقية بين قوات الامويين بقيادة مسلمة بن عبدالملك ، والقوات البيزنطية بقيادة ليون ، فالمعركة هي معركة حصار لاغير ، وعليه فان كل الحوادث كانت لاتتعدى الغارات البسيطة بين الجانبين ، علما بان هذه الغارات لم تؤد الغاية النهائية المطلوبة والمتمثلة بفتح القسطنطينية .

بدأ الحصار العربي في العام (٧١٧م) ، وبالتحديد في شهر آب من العام المذكور ، أي في فصل الصيف ، ومن الطبيعي أن فصل الصيف في تلك البقعة من العالم لم يكن سوى صيف منعش لطيف ، وعليه وكاستنتاج في هذا المضمار فان البداية كانت تقع ضمن فصل لا يقيد الاداء القتالي .

البداية كانت جيدة ، فالمعنويات العربية الاسلامية عالية ، والمواد التموينية جيدة ، والاسكان مريح ، ولذلك كان الحصار جيدا لاسيما وانه يتجسد عبر جنود لهم المعنويات المذكورة والعوامل المساعدة على ادائها .

فان الحصار العربي الاسلامي شديدا على المدينة ، مما جعل الحاكم «ليون» يفكر في مسالك عمل مركبة ، بغية دفع الخطر عن مدينته ، ولذلك ، أرسل الوفود لمفاوضة القائد الاموي ، ضمن شروط معينة منها وجوب احراق

الاطعمة الموجودة لدى الجيش العربي الاسلامي ، وذلك لاعطاء مثال يبرر من خلاله حسن نية العرب المسلمين تجاه المدينة ، وقد وقع القائد الاموي في هذه الخديعة ، وقام بحرق قسم كبير من الاطعمة ، وهذا ما جعل الجيش العربي في حالة تشبه الكفاف في هذا المجال ، ومن الطبيعي أن هذا العمل شبه الانتحاري أعطى أملا الى المدافعين وراء الاسوار من أن الجيش العربي الاسلامي ستقصر المدة المقررة له للحصار وسيقفل عائدا قبل المدة التي خطط لها سلفا •

الخديعة الاخرى التي أراد بها ليون أن يقصر الحصار العربي الاسلامي لمدينته ومن ثم عودة الجيش العربي الى قواعده ، هي طلبه بالسماح لكل فرد من أفراد المدينة أن يحصل على طعام يوم واحد ، لكي يبرهن القائد الاموي على حسن نواياه تجاه أهل المدينة ، حيث برز هذا الشرط على أنه شرط يمثل عند تطبيقه على حسن نوايا القائد الامـــوي تجاه سكان المدينة ورأفته بهم أيضا ، وعدم اضمار الشر لهم •

لقد عززت اجراءات المخادعة البيزنطية المواقع البيزنطية ، بينما وبصورة متقاطعة أضعفت البنيان العسكري العـــربي ، ومن الطبيعي أن نتائج هذه الاعمال المخادعة كانت تصب في ترعة القوة الملموسة للحاكم البيزنطي «ليون» •

كان «ليون» يعمل بصورة متوازية ، اذ انه كان مزدوج التفكير ، حيث كان يفاوض بنفسية معينة ، ويعطي الوعود باسلوب معين ، ويقاطعها باسلوب آخر ، كان «ليون» يمني القائد العربي الاموي بتسليمه المدينة وما تحتوي من كنائس ، من دون قتال ، وبذلك كان يكسب وقتاً في صالح البيزنطيين وليس في صالح العرب الإسلام ، حيث كان يرض استحكاماته خلال هذه المرحلة •

من الامور الجوهرية والثابتة في موضوع الحصار هو التصديق الكامل للوعود التي يعطيها ليون ، من قبل القائد العربي مسلمة ، حيث كان يصدق كل ما يصدر من «ليون» ، وانه في الاخير سيحكم المدينة باسم خليفة المسلمين ،

وانه سيكون هو الفاتح اذا ما أخذ الامور بعين العقل والتروي ، وليس بحد السيف .

النهاية المأساوية لمحاولة الفتح العربية الاسلامية ، كانت تتجسد في عودة الجيش العربي الى بلاده ، بعد أن داهمه الشتاء ، وغطت الثلوج الارض ، وبدأ الشتاء ينقر بصقيعه الاكواخ الخشبية الضعيفة ، ولم تتمكن من صد لسعات البرد عن أجسام منتسبي الجيش العربي ، الذي شح غذاؤه الى درجة القحط ، والذي وصل الى حافة المجاعة .

كل العوامل المارة الذكر بالاضافة الى موت سليمان بن عبدالملك كانت وراء اخفاق الجيش العربي في فتح القسطنطينية ، ومن الجدير بالذكر أن موت الخليفة سليمان كان في معسكر «دابق» ، وقد تحولت الخلافة اثر ذلك الى الخليفة عمر بن عبدالعزيز .

كان الخليفة الجديد عمر بن عبدالعزيز ورعا طاهرا نزيها ، وقد أمر بعد توليه الخلافة بعودة الجيش العربي الاموي الى بلاد الشام ، والسبب في ذلك أن هذا الخليفة قد وازن جميع الامور ودرسها دراسة مستفيضة ، كما درس العوامل الممكنة الى النصر ، فوجدها في غير صالح الجيش القابع على أبواب القسطنطينية ، فادامة الحصار تحتاج الى كميات اضافية من المواد التموينية ، فضلا عن تعويض الخسائر بالقوة البشرية ، هذا ناهيك عن وجوب رفع الحالة المعنوية للجند .

لقد أمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز باعادة جيش اسامة بن عبدالملك الى بلاد الشام ، وقد كان هذا قرارا صائبا من بعض الوجوه لان جيشا منهكا كهذا الجيش ، وقيادة كقيادة مسلمة لا يمكن أن تحصل على النصر ، وتخبرنا المصادر أن عمر بن عبدالعزيز كان لا يثق كثيرا بقيادة مسلمة بن عبدالملك التي كانت معتدة بنفسها كثيراً ، وتقترب كثيراً من حدود الغرور(٥) .

الاحداث المتلاحقة توضح نفسها بنفسها ، فسيرها كان عموما يجري لصالح البيزنطيين ، عبر تكريسهم للمخادعة المتأنية من دهاء عظيم فضلا عن الاسوار الحصينة المنيعة ، زائدا المناخ والاقامـــة ، والتأثيرات الاخرى على الصحة العامة ، التي كانت تعج بالامـــراض الشتائية ، والتي كان من جملة ضحاياها هو القائد البحري العربي سليمان الانطاكي •

لقد كان شتاء قاسيا على العرب المسلمين القابعين أمام أسوار القسطنطينية ، بينما كان شتاء دافئا على البيزنطيين الذين ينعمون بنعمة الحرارة في قصورهم وبيوتهم داخل أسوار المدينة المحاصرة •

بعد هذا الحصار أبحرت السفن العربية باتجاه بلاد الشام تلعق جراحها النازفة فشلا ويأسا •

الانكى من كل هذا أن الطامعين في السلب والنهب في الجزر اليونانية المترامية في البحر كانوا يتربصون الفرصة بشكل مستمر للانقضاض على بقايا الاسطول العربي الاسلامي ، وبالفعل ، فقد بعض سفنه بكل ضراوة ، كما هاجمت الانواء الجوية القاسية القوارب البحرية الواهنة ، وبهذه الاعمال التعرضية المعادية ، لم يعد من الاسطول البحري العربي الى بلاد الشام الا عدد قليل من قطعه البحرية اليائسة •

نهاية المعركة العربية ـ البيزنطية

مما تقدم يمكن أن تتصور النهايـــة الحزينة لهذه المعركة ، فقد لعبت المخادعة البيزنطية دورها الهدام في تفتيت العقلية القيادية للقائد العربي مسلمة بن عبدالملك» ، فضلا عن عدم وجود خطة عربية أموية متقنة ، يمكن تنفيذها حسب جدول زمني مبرمج ، وان كل ما في الامر كان لايتعدى حدود المشاعر والاصرار الفطري ، والعواطف الملتهبة ، التي تحلم بالنصر وفتح المدينة •

ان الجيش العربي الاموي المسلم لم تكن بين صفوفه عقول نيرة عملاقة يمكن أن تعطي المشورة القتالية الصحيحة الى قائدها ، بل كان الاعتماد الأكثر يتكيء على الشجاعة ، وهي طرف واحد من المعادلة القتالية التي تعتمد على العقل والشجاعة في آن واحد .

ان أية محاولة عربية لم تجر بعد هـــذا الانكسار الذريع من أجل فتح مدينة القسطنطينية ، وانما جرت محاولات كثيرة في العصر العباسي لاكتساح آسيا الصغرى ، الا ان أيا منها لم يكن جادا في اقتحام المدينة ، وان جل ماكانت تبتغيه تلك الحملات ، هو تركيع الحكـــم البيزنطي ، ومن ثم الحصول على الجزية منه .

الهوامش والمراجع

(١) أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ـ تاريخ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ الجزء السادس ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ مصر ـ الطبعة الرابعة ص٥٣٠ ٠

(٢) دكتور عبدالسلام عبدالعزيز فهمي ـ فتح القسطنطينية ـ الهيئة العامة للتأليف والنشر ـ دار الكاتب العربي عام ١٩٦٩ ـ ص٤٩ ٠

(٤) مبادىء الحرب الاساسية المعتمدة كلياهي عشر مبادىء ، وهي : المباداة ، التعرض ، المعنويات ، الشؤون الادارية ، المباغتة ، التحشد ، الاقتصاد بالجهد ، المرونة ، قابلية الحركة ، التعاون ٠

(٥) تذكر الروايات أن مسلمة عندما جاء من القسطنطينية دخل مع جيشه يريد مقابلة الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، فلم يؤذن له ، ثم جاء ومعه آلاف الفرسان ، فلم يؤذن له أيضا ، ثم جاء بعد ذلك مع جنود حمايته فأذن له ٠

المعركة العثمانية البيزنطية

التهيؤ للمعركة

كان التهيؤ للمعركة يخضع هنا الى جملة عوامل ، أهمها عامل القيادة المتمثل بالسلطان العثماني محمد الفاتح ، الذي تلقى العلوم الاسلامية عن كبار الاساتذة ، كما تلقى العلوم الاخرى في شتى مجالات الحياة عن أساتذة آخرين ، ومن هذه العلوم ، العلوم العسكرية .

لقد نشأ محمد الفاتح محبا للفروسية ، وعلى قدر كبير من معرفة العلوم العسكرية التجريدية وكيفية التخطيط للحرب ، علما انه وخلال مدة الدراسة المذكورة تأثر الى حد بعيد ببعض القادة التأريخيين العظام وعلى رأسهم الاسكندر المقدوني[١] ، الذي كان يتشوق السلطان العثماني بانجاز عسكري واحد يضاهي أحد انجازات الاسكندر .

لقد وجد محمد الفاتح ضالته في تحقيق أحلامه العسكرية بمدينة القسطنطينية العريقة ، مهد الحضارة الرومانية واللاتينية المتفاعلة ، ولذلك نجده ، ومنذ وقت مبكر يتأهب ذهنيا ، ومن ثم اداريا لخوض معركة فتح المدينة المذكورة ، وقد قام باجراءاته هذه فور تسلمه الحكم العثماني للمرة الثانية[٢] .

لقد اذخر السلطان محمد الفاتح ما لا يحصى من النقود ، وجمع الاعداد الغفيرة من الجنود والاسلحة ، ومن كل بلد ، ومنهم «الانكشارية»

والمتطوعين ، والانكشارية هم من أبناء النصارى الذين يؤسرون ، ويربون تربية عسكرية اسلامية ، تقترب في مراحلها الاولى من حالة الكفاف وشظف العيش ، ومنذ نعومة أظفارهم •

ان السلطان محمد الفاتح أتقن العديد من اللغات ولذلك كان لا يلاقي أية صعوبة في التفاهم مع شرائح المجتمع العثماني المتعدد الاتصالات الاجتماعية •

ولي السلطان محمد الفاتح الحكم وهو في سن الثالثة عشرة من العمر ، بعد أن تنازل والده عن الحكم لصالحه ، الا أن والده السلطان مراد الثاني عاد ، واستعاد الحكم منه ، على سبيل الحيطة والحذر ، عندما هاجم ملك المجر البلاد العثمانية على رأس جيش كبير ، ناقضا العهود المبرمة ، ومعاهدة الصلح التي كانت قائمة بينه وبين العثمانيين •

ان اقصاء محمد الفاتح عن القيادة بسبب المواضيع العسكرية جعلته يكثف من نزاعاته الفكرية لاستيعاب المواد العسكرية بصورة ممتازة ، لكي يثبت للعالم أنه لا يقل كفاءة عن أي قائد عسكري عظيم تذكره كتب التاريخ •

بعد مدة من الزمن ، وعقب انتهاء حالة التشنج العسكري بين العثمانيين، والمجريين ، عاد محمد الفاتح ثانية الى سدة الحكم ، وقد تكامل وتضج فكريا وعسكريا •

كانت الحرب الباردة موجودة بين العثمانيين والبيزنطيين ، وذلك اثر قيام العثمانيين ببناء قلعة «روميلي حصار» بالقرب من مدينة القسطنطينية «لاحظ الخارطة المرفقة» ، والتي عدها البيزنطيون بادرة خطرة • الغرض منها عدوانيا
الخارطة المرفقة» ، والتي عدها البيزنطيون بادرة خطرة • الغرض منها عدوانيا،
أكثر مما هو عمل حضاري ، ولذلك حاولوا عدة مرات هدمها ، كما حاولوا أيضا الاعتداء على منتسبي هذه القلعة ، وهذا ما حدا بمحمد الفاتح على اعلان

الحرب على الامبراطور البيزنطي ، على أساس قيام الأمبراطور بالاعتداء على الممتلكات العثمانية •

القلعة العثمانية المذكورة ، ولوقوعها على مضيق الدردنيل ، كانت تقوم بعض الاحيان بأعمال التفتيش للسفن المارة بهـــذا المضيق ، وهذا ليس من حقهم ، وهذا العمل هو الاخر يعني أن الاتراك صمموا على اختزال السيادة البيزنطية وجعلها بيديهم •

لقد حدت هذه الاعمال بالامبـــراطور البيزنطي أن يقوم بغلق أبواب المدينة ، بعد أن أرسل رسالة خطية الى السلطان العثماني محمد الفاتح ، يخبره بها بانه سيغلق أبواب المدينة ، لان السلطان لديه النية في احتلالها(٣) ، ومن ثم استئصال الحكم البيزنطي في هذا الجزء من العالم الى الابد •

القسطنطينية عموما ترتبط بالحقيقة ، بكل من مدينة البندقية ، وجنوا بخطوط بحرية وصلات وثيقة ، كما وترتبط مع اليونان بالأوامر نفسها ، ومع ذلك تعد مدينة معزولة لبعد المسافة بينها وبين المدن ، والدولة المذكورة أعلاه ، وهذا يعني بلهجـــة عسكرية بسيطة أن القسطنطينية تبعد كثـــيرا عن قواعد اسنادها ، ولذلك فان أمر سقوطها يعد سهلا اذا ما ضيق خناق الحصار عليها ، لان أي معونة لا يمكن أن تصلها الا بعد مضي وقت كبير ، وهنا علينا أن تميز بين هـــذه الحملة والحملات الاسلامية التي سبقتها ، حيث ان هـــذه الحملة استفادت من تطور الاسلحة ، والسفن ، فقد ظهر المدفع الذي يمكن أن يدك الحصون ، كما أصبحت التجهيـــزات الهندسية أكثر كفاءة ، بينما نجد أن الحملات الاسلامية كانت اسلحتها تقتصر على السيف والرمح •••

ان الاساليب المتبعـــة في معركة القسطنطينية تمثل نوعـــين من الفكر العسكري ، الاول يركن الى الدفاع وراء الاسوار ، والتراشق بالنار والحجارة والنبال ، والثاني يعتمد حرب الكتلة في اقتحام الاسوار مهما بلغت الخسائر •

ان الاختلافات بين البيزنطيين والعثمانيين لم تكن اختلافات عسكرية فقط ، وانما اختلافات تشمل النواحي الاقتصادية أيضا ، فبينما نجد الاقتصاد العثماني متخما بالنقود الى أبعد الحدود ، نرى أن الاقتصاد البيزنطي يكاد يختنق من الافلاس ، وهذه كلها عوامل تشير الى أن النصر ، وباحتمالية عالية ، يمكن أن يكون من نصيب العثمانيين •

المعركة التي نحن بصددها، كانت مليئة بأعمال المخادعة، والتي هي مدار بحثنا والتي سنأتي على تفاصيلها في المواد القادمة ، فمن القلعة الخشبية المتحركة الى النفق السري ، وصولا الى نقل الاسطول على اليابسة لمسافة طويلة ، هي حوادث يمكن أن ندرجها تحت باب المخادعة •

المعركة كانت من المعارك الفاصلة في التاريخ حيث انهت الحكم البيزنطي الى الابد من هذه البقعة السوقية المهمة ، ومع ذلك ففي جانبها الآخر ، أي جانبها العسكري ، فهي من أمهات معارك المخادعة الكبرى في التاريخ •

ان الموانىء والمضائق لا يمكن احتلالها بسهولة بالغة ، وكما يفكر بذلك بعض النساء البسيطات ، كما وان بعضها يأخذ أهمية استراتيجية «سوقية» هائلة لموقعه الحساس في العالـــم ، كمضيق الدردنيل الذي يفصل اسيا عن أوربا ، ويوصل البحر الاسود بالبحـــر الابيض المتوسط ، والذي يعد خط مواصلات حيوي لادامة الرحلات البحرية(٤) ، كما وان هذا المضيق يعزز الوضع المادي للميناء الذي يقع عليه عبر أخذ الرسوم من السفن التي تحاول اجتياز المضيق ، وهكذا وبعد أن سد الامبراطور البيزنطي أبواب مدينته خسر هذه الرسوم ، ومن الطبيعي ان اجراءه كان يبغي به التهيؤ للمعركة بصورة مبكرة •

عندما أعلن السلطان محمد الفـــاتح الحرب على الامبراطور البيزنطي قسطنطين ، قام الاخير بالقاء القبض على كـــل الجالية التركية المتواجدة في

المدينة ، خشية قيامهم بأعمال الرتل الخامس الذي من الممكن أن يسرع من من اقتحام أسوار المدينة •

الخطوة المذكورة تعد خطوة جيدة من وجهة النظر العسكرية ، غير انها من وجهة النظر السياسية تعد عملا مسرعا للصراع المسلح ، لان اعتقال الجالية التركية أعطت الى السلطان محمد الفاتح مبررا اخر للقيام بالعملية بأسرع ما يمكن ، وبأقصر من الوقت المخطط له سلفا ، الذي كان لصالح قسطنطين لو طال قليلا ، حيث كان بامكانه ان يقوم بتكديس أكثر للمواد الغذائية •

اذن العملية المذكورة استفزت بشكل لا يقبل الشك السلطان محمد الفاتح مما حدا به لارسال الدفعة الاولى من قواته فوراً حيث «ظهر السلطان فجأة بجيش يبلغ خمسون ألفا بجوار أســـوار المدينة»(٥) ، قبل أن يتمكن الامبراطور كامل استعداداته للقبول بالحصار •

كان من الممكن أن يطيل الامبراطور الوقت ، ويرسل الرسل الى أوربا ، وغيرها من الدول المتحالفة معه من أجل نجدته ، كما كان بامكانه أن يحصن الاسوار بصورة أمتن ، لو دخل مع السلطان في مفاوضات مطولة ، وكما فعل ذلك من قبله «ليون» مع مسلمة ، الا أن أي شيء من هذا القبيل لم يحدث • ان الظهور المفاجيء للسلطان محمد الفاتح بهذا العدد من الجيش أرعب سكان مدينة القسطنطينية المدنيين ، فضلا عن ارتجاج المعنويات لدى العسكريين ، ومع ذلك لم يقم السلطان محمد الفاتح بالهجوم الفوري على المدينة ، وانما كل ما جرى ، هو قيامه باستطلاع مفصل لأسوارها ، بغية القرار على الخطة العامة للهجوم والتوقيتات التي بامكانها أن تعطيه أفضل الفرص لكسب المعركة •

لقد درس السلطان محمد الفاتح جميع المواضيع بصورة مفصلة ، فوجد أن هناك احتمالات تشير الى أن كلا من «توماس ، وديمتروس» أخوة الامبراطور قسطنطين يمكن أن يساعداه في هـــذا الحصار ، لذلك قفل عائدا الى مدينة

«أدرنة» العثمانية ، وأعطى أوامره باكتساح شبه جزيرة الورة التي يوجد فيها أخوا الامبراطور ، وذلك بوساطة جيش لجب بقيادة القائد العثماني «طورخان» ، وقد نجح طورخان في عمله العسكري المذكور ، حيث اكتسح شبه الجزيرة المذكورة اكتساحا كاملا ، وبهذا العمل بتر بترا تاما فكرة الامدادات التي يمكن أن تأتي الى مدينة القسطنطينية من شبه الجزيرة المذكورة ، وهكذا أصبح الامبراطور البيزنطي منفردا في معركته المقبلة مع السلطان محمد الفاتح .

قبل احكام الحصار من قبل العثمانيين قدمت بعض النجدات الى المدينة من مدينة «البندقية» الايطالية ، وكذلك «جنوا» ، و «كريت» ، ولكنها بمجملها لا تشكل الا قوات رمزية ، فالكردينال «أزيدرو» جاء من روما ومعه مائة مقاتل فقط ، أما القائد «الجنوي» «جوستنيان» فقد جاء على رأس سبعمائة مقاتل ، وهذه القوة بمجملها لا تشكل تذكر تجاه القوات العثمانية ، ومن الجدير بالذكر في هذا المضمار هو ان الامبراطور لم يكن يمتلك قائدا عسكريا يدير له معركة الدفاع المقبلة ، لذلك عين القائد الجنوي القادم «جوستنيان» لهذا المنصب الخطر ، وهذا الامر يظهر لنا مدى الاهمال في الشؤون العسكرية الذي كان يتخبط به الامبراطور قسطنطين .

كان على الامبراطور البيزنطي المحاط بالاتراك أن يكون أكثر حذرا وجدية وهمة ، وكان عليه أن يبني جيشا قويا يدرأ به الاتراك الطامعين قبل الحصار بأعوام ، الا انه لم يفعل ذلك ، حيث كانت أسوار المدينة ، في أجزاء كثيرة منها ، مهدمة وتحتاج الى الاصلاح .

عند بدأ الحصار ، وبغية التهيؤ للمعركة من قبل الامبراطور ، بدأ العمل فورا لاصلاح الاسوار المهدمة ، فاستخدمت أحجار القبور وبعض أحجار المنازل .

كانت الامبراطورية البيزنطية غارقة في أحلامها ، غير مكترثة للمصير ، تنام على وسائد رؤاها الخاصة ، وتتلوى من شدة التناقضات، مادة يديها الى كل أوربا للاستجداء ، بيد أن أوربا لم تمنحها الصدقة .

ظل السلطان محمد الفاتح خلال شتاء عام (١٤٥٢) ساكنا ، وكل ما عمله هو تضيق الحصار على المدينة دون مداهمتها ، فكان هذا العمل يعتبر حقنة تثبط آمال المدافعين ، وتقتل معنويات ، وتبين لهم ان الحصار سيكون مرهقا وذا نفس طويل .

المدافع في مثل هذه الحالات يستعجل المعركة ، لكي يضمن انه خلالها لا يحتاج الى مواد للاعاشة ، ولكن كلما طال أمد المعركة كانت ستتشح احتياجاته ، كلما طال الحصار ، كلما حصل التراخي ، والتوتر العصبي ، وهكذا بدأت معنويات البيزنطيين تهبط يوما بعد اخر .

الجانب العثماني كان أكثر تماسكا ، وأكثر معنوية حيث كان تأتي التعزيزات العسكرية بصورة مستمرة من أجل التكامل ، وكان التدريب يجري بصورة متقنة ، وكانت المواد تأتي برا وبحرا لادامة الجيش ، وهذا يعني أن الجانب العثماني كان في حالة رخاء من كل الجوانب .

يمكن أن نستنتج مما تقدم ، أن الوضعية من الناحية العددية لم تكن متعادلة ، وان الغلبة كانت فيها الى جانب العثمانيين ، بينما نجد أن البيزنطيين يملكون الاسوار الحصينة والخنادق ، وهذا ما يجعل المعادلة شبه متكافئة ، أو تفوق تركي ضئيل عند حدوث المنازلة ، وعلى أية حال ، وضمن هذه المعطيات فان الشيء الذي يبقى غامضا قبل المعركة هو أي من القائدين يتمكن من تكريس مبادىء الحرب بصورة أفضل ، وأيهما سيستخدم المخادعة بشكل مؤثر ، وبوساطة ما ذكرنا يمكن أن ينهي المعركة لصالحه .

هنالك نقطة مهمة في مسألة التهيؤ للحرب من قبل العثمانيين ، وهذه تتمثل

بتشجيع السلطان محمد الفاتح أي فكرة من شأنها أن تذلل له الصعاب التي من شأنها أن تطيل أمد الحرب ، لذلك نشاهده يقوم بتشجيع أحد المهندسين «المجريين» والذي يدعى «أوريان» على عمــل مدفع ضخم يتمكن أن يدك الاسوار البيزنطية ، ويسهل بذلك عمل المهاجمين •• وبالفعل بدأ هذا المهندس العمــل تحت اشراف السلطان نفسه ، حيث أقيمت في «أدرنـــة» الصهاريج المعدنية ، التي ستنتج هذا المدفع الجبار «وفقا الى زمانه» ، وبالفعل ، وبعد ثلاث شهور من العمل المستمر تمكن «أوريان» من انتاج المدفع المذكور ، وقد أخذ المدفع طريقه الى القسطنطينية المحاصرة ، ليزيد الوبال ، وبالا آخر على رؤوس المدافعين المطوقين ، المنكسرين نفسيا ، كما أضاف الى همومهم هما جديدا فاتكا ليزيدهم توترا عارما •

كان السكان في المدينة يتشبثون بـــأي وسيلة تنقذهم وكانوا في كل الاحوال يفكرون بالدعم الاوربي الذي سيأتي ، لكن ، وبعد مرور الوقت بدأ اليأس يدب في كيانهم حول الدعم المذكور ، لذلك ركبوا مركب السكون ، بعد أن عرفوا يقينا أنهم وحدهم في الساحة •

مادمنا في صدد مدفع «أوريان» نود أن نشير أن المهندس المجري المذكور كان في خدمة الامبراطور ، وقد عرض عليـــه فكرة المدفع ، الا ان خزائن الامبراطور الخاوية لم تمنحه فرصة تجسيد فكرته ، وهذا مما جعله يفر من عند الامبراطور ليلتحق بخدمة السلطان العثماني المقتدر ماديا ، والذي لاينام له طرف ، الا ويرى أن جميع الامور تسير بانتظام •• حيث كان يتنكر أحيانا، ويسير بين جنوده ، ليسمع ويرى مـــا هي وضعيتهم العامة قبل الدخول في المعركة ، وكان هذا العمل والمعالجـــات التي تخص بعض النقاط الواهنة في الاعداد ، تعد من أنجح الممارسات في التهيؤ للمعركة والوقت الملائم لاقتحام الاسوار •

بقى السلطان العثماني محمد الفـــاتح أمام أسوار القسطنطينية طيلة الشتاء ، وكان لبقائه هذه المدة معان عديدة ، أولهما تفتيت معنويات البيزنطيين المحاصرين ، المقترين بالطعام على أنفسهم ، وثانيهما تدريب جيشه على عمليات اقتحام أسوار المدن من البر والبحر ، حيث لم تجر جيوشه هذه التدريبات من قبل ، أما ثالثهما فان السلطان أراد أن يتمـــم كل الحلقات التسليحية الكفيلة بانجاح عمليات الاقتحام .

كان الحث المعنوي يشكل عند السلطان نقطة أساسية ، لذلك عهد بهذا العمل الى جهة معينة مسؤولية اثارة الحماسة في النفوس ، وكان هذا التنظيم المعنوي أول شكل يدخل في خدمة الجيوش العثمانية .

التهيؤ العثماني في الجانب البحري يشابه في همته التهيؤ البري ، فقد كلف السلطان العثماني محمد الفاتح المهندسين بناء السفن الجديدة ، ومن الاحجام كافة ، الصغيرة ، والمتوسطة ، والكبيرة بغية استخدام كل منها في واجب تطويقي خاص ، واحكام الحصار على المدينة ، وذلك باشغال أية ثغرة بحرية ، وقد كان العمل يجري على قدم وساق .

في كل يوم كانت تزج سفنا جديدة في مياه الدردنيل ومرمرة ، الى أن كمل العدد اللازم من السفن لاحكام الحصار ، وهذا ما حدا بالامبراطـــور الروماني ، قسطنطين أن يغلق كل أبواب المدينة ومنها الابواب البحرية .

العمل الذي كان يشكر عليه الامبراطور البيزنطي هو اعطاءه الفرصة للراغبين من كل الجنسيات بمغادرة المدينة ، وبالفعل فقد غادر المدينة بعض الافراد الموسرين ، علما بأن البعض منهم قد دفن ثروته في باطن الارض ، أملا في عودته سريعة ، أو حتى يستقر الموقف لأحد الطرفين ، ومن الطبيعي أن هذا العمل ، ان دل على شيء ، فانما يدل على حصانة فكرية اذ ان المغادرين كانوا سيكلفون كثيراً من ناحية اطعامهم من جهة ، وعدم فائدتهم القتالية من جهة

أخرى ، اذ انهم لو أرادوا القتال لبقوا في المدينة ، وعلى أية حال فان ثروات هؤلاء لم يسترجعونها أبدا ، وانما بقت مدفونة في أماكنها أو تم العثور عليها بصورة تدريجية .

الاستعدادات النهائية للجانب البيزنطي ، لا يمكن أن تكون ملموسة بدرجة كبيرة ، لانها اجراءات بسيطة ، وان جل ما حدث هو تقسيم المدينة على قواطع للدفاع عنها واسناد هذا القاطع أو ذاك الى فئة معينة هذا في الجانب البري ، أما في الجانب البحري فقد قاموا باغلاق ميناء القرن الذهبي بصورة نهائية ، وذلك باغلاق الخليج بسلاسل حديدية ضخمة تعد مصداً في وجه السفن التي تحاول أن تجتازه بالقوة ، فضلا عن أن معظم ، أو كل سفنهم التي كانت تدافع عن الخليج المذكور تراجعت على الميناء .

اذا أخذنا القوات البحرية التركية ، فسنجد أمامنا أرقاما تشير الى (٢٥٠-٣٥٠) سفينة تركية مختلفة الحجم ، كما سنجد أن الفارق كبير بين الرقمين المذكورين ، ولا يمكن أن نثق به ، أو نعتمد عليه ، اذ أن الاختلاف منها كان يجب أن يكون بسيطا ، ولكن اختلافا شاسعا كهذا يتطلب اعادة نظر ومناقشة لبعض الجوانب المتخصصة في دعم هذا الرقم أو ذاك .

الرقم المذكور جاء عبر تقديرات وضعها المؤرخون البيزنطيون ، وهم ، ومما لا شك فيه يمكن أن يسقطوا في هوة التحيز ، لانه يعطي أرقاماً مبالغ بها بغية تبرير واقعة حربية بيزنطية فاشلة ، ولذلك علينا أن نغلب الامور لنستنبط منها الصحيح .

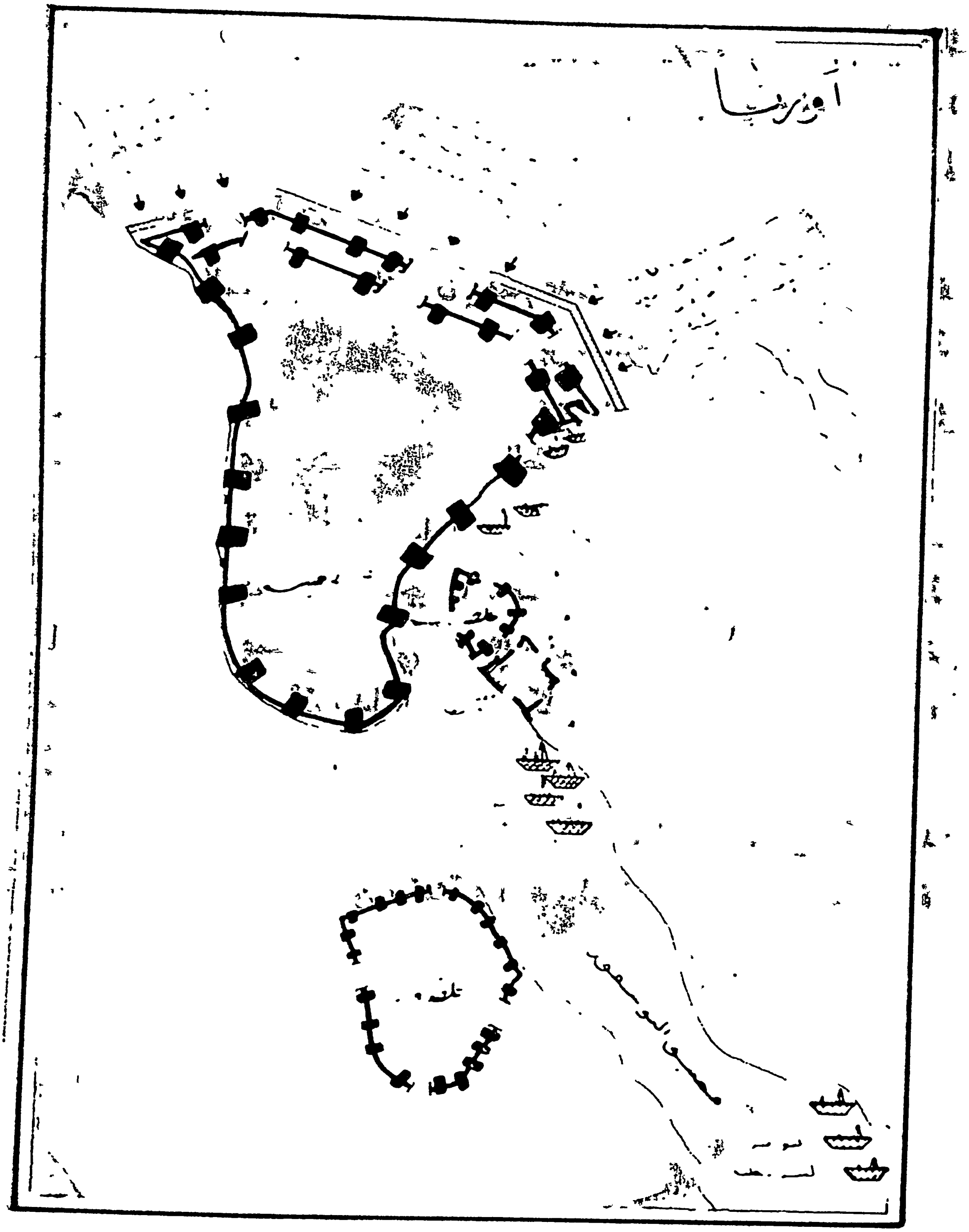
السلطان العثماني محمد الفاتح ، وفي بداية تفكيره بالحصار ، لم يكن يملك أسطولاً بحرياً قوياً ، ولكنه عندما فكر جدياً بالموضوع ، واختمرت لديه الفكرة ، وجد نفسه أمام مسلكين متشابكين بصورة عملية واضحة ، فهو لا يتمكن من فتح المدينة برا كما لا يمكن أن يقتحمها ويطوفها بحرا فقط ، ولذلك

كان أمر تطويقها برا ، وبحرا هو الامر الذي يجب أن يسلك ، والسبب في ذلك بسيط ، وهو ان فتح أي نافذة ، سواء أكانت برية أم بحرية ستتيح للسكان داخل المدينة التزود بالوقود ، وربما الامدادات البشرية ، ولذلك كان على السلطان العثماني أن يلملم شتات سفنه من كل أنحاء السلطنة العثمانية .

لقد تمكن السلطان العثماني أن يجمع عددا لا بأس به من السفن المختلفة الاحجام .. فضلا عن بناء سفن أخرى عبر مسفن خاص ، ومع كل هذه الاجراءات ، فانه قام بشراء العديد من السفن من جهات مختلفة ، وهذا نابع من الثراء المادي الذي كانت عليه الدولة العثمانية .

هناك نقطة مهمة أخرى في هذا الصدد ، وهو أن البعض ممن كان لايرغب في بيع سفنهم كان يستميلهم بتأجيرها منهم بمبالغ جيدة ومغرية ، وبهذه الاعمال تمكن أن يجمع حوالي (٣٠٠) سفينة مختلفة الاحجام لاغراض الحصار ، ومن الطبيعي أن هذا العدد يعد كافيا اذا ما درسنا الوضعية العامة لمضيق الدردنيل ، وخليج القرن الذهبي

الجانب العثماني كان يفتقر الى السفن الكبيرة الحجم ، حيث كان عدد هذه السفن لا يتجاوز العشرين سفينة ، أما السفن الاخرى ، فكانت سفنا



متوسطة وصغيرة ، وتدل الاشارات الواردة لنا من تلك الحقبة الزمنية ، على أن السفن الصغيرة كان لها القوس المعلى في الارقام .

الجانب البيزنطي كان يملك سفنا قليلة ، وهذه القلة من السفن ما كان بامكانها أن تدخل وتقاتل معركة بحرية ، ولذلك آثرت الانسحاب نحو ميناء القرن الذهبي البيزنطي ، لتبقى في هذا الميناء شبه مشلولة الحركة لمدة طويلة.

مما تقدم نشاهد أن الجانب البيزنطي لم يحاول الدخول أيضا في معركة مواجهة بحرية ، وذلك للاعداد النزرة من السفن التي كانت بحوزتهم ، وهذا يعني أن الاسطول التركي سوف يبقى منتشيا لمدة طويلة ، الا اذا قطعت هذه النشوة ، غارة ، أو عملية فدائية بيزنطية .

ان الحصار البحري ، والحالة أعلاه كان جسيما ، لانه كان لا يسمح بخروج السفن البيزنطية الى عرض البحر لجلب المؤن ، كما كان لا يسمح بوصول امدادات حليفة الى المدينة المحاصرة ، واغاثة أهلها بالمواد ، والادوية ، والسلاح ، والمتطلبات الحياتية الاخرى ، وعلى أية حال ، فان سحب كل القوة البحرية البيزنطية وتجميدها يعد أمرا مهلكا ، حيث كان بامكان الامبراطور البيزنطي أن يقوم بحرب استنزاف بسيطة للاسطول العثماني ، مما يجعل القوة البحرية العثمانية لاتنام دائما قريرة العين ، وبذلك يخفض من شدة الحصار البحري ، ويجعل من الممكن لبعض السفن الصديقة أن تتسلل الى القسطنطينية لاغراض الاسناد .

ان انزواء السفن البيزنطية في ميناء القرن الذهبي أعطى الفرصة للعثمانيين احكام السيطرة على المدينة ، كما أن قيام السلطان العثماني بترحيل المزارعين الذين كانوا يقومون بزراعة الاراضي المحيطة بالقسطنطينية ، جعل سكان هذه المدينة يقطعون أي تفكير ممكن بالاسناد من خارج المدينة .

النقطة التالية في عملية الحصار متأتية من غلق مضيق القرن الذهبي ، حيث أن غلق المضيق يعني سد باب المناورة البيزنطية ، وبالنقيض الحاد اتاحة أعلى الفرص للمناورة البحرية العثمانية ، وترصين موضع الاسطول العثماني كذلك ، والذي يؤدي في النهاية الى احكام الحصار .

قوات الطرفين تعطينا أرقاما متباينة ، فاذا نظرنا الى الجانب العثماني سنجد اختلاف الارقام ناجم من اختلاف المصادر ، فالمصادر البيزنطية تعطي لهذه القوات حجماً أكبر ، لكي تخرج بنتيجة مفادها أن عظم وكثرة القوات التركية كان العامل الحاسم في فتح المدينة ، أما المصادر العثمانية فكانت تعطي أرقاما أقل ، لتستنتج أن فتح المدينة يعزى الى قوة القائد العثماني ، وبسالة الجندي المقاتل .

الكتاب المعاصرون اتفقوا وبما يشبه الاجماع على أن عدد المدافعين من الروم داخل أسوار المدينة كان ثمانيــــة آلاف جندي بيزنطي ، وكاد يجمع المؤرخون الاوربيون المعاصرون ، على الاخذ بهذا التقدير ، كما يذكر هؤلاء أن نصف هذا العدد كان من الروم ، والنصف الآخر كان من اللاتين ، أما مؤرخو الاتراك فيقدرون عدد المدافعين بأربعين ألف مقاتل ، يقف الى جانبهم ذلك السور الضخم العملاق(٦) .

اذا أمعنا النظر في الرقمين البيزنطي والتــركي ، فسنجد أن هناك تباينا حادا بينهما ، ولا يعقل أن يكون هناك تباينا بهذا الحجم ، ولكن كما أسلفنا سابقاً ، أن لكل جانب مبرراته في اعطاء الرقم الذي يرتضيه ، فالبيزنطيون أعطوا هذا الرقم لتبرير هزيمتهم ، والاتراك أرادوا أن يصوروا عظم المعركة .

اذا قمنا بتحليل بسيط للمدينة ، فسنجد أن المدينة التي تتمكن من أن تفرز أربعين ألف مقاتل يحملون السلاح للدفاع عنها بصورة متكاملة ، يجب أن يزيد عدد سكانها على النصف مليون إنسان، وهؤلاء نصفهم من الرجال، والنصف الاخر من النساء . أي ربع مليون انسان ذكر ، واذا حللنا الفئات العمرية فسنحصل على الرقم الذي أعطته المصادر التركية، وهو «أربعون ألف» مقاتل ، وبما أن المدينة في تلك المرحلـــة كانت لا تستوعب هذا العدد ، ولا يسكنها هذا العدد ، ولذلك فان الرقم التركي يعد رقما مرفوضا .

اذا سلمنا جدلا أن المدينة يسكنها ربع مليون انسان ، فان ما يمكن اخراجه للقتال منها سوف لن يعدو أكثر من عشرين ألف مقاتل ، الا أننا نعلم أن سكان المدينة كانوا من قوميات مختلفة ، هم : الروم ، واللاتين ، والاتراك ، والاوربيون ، وغيرهم ، كما ونعلم أن هناك عداوات وأحقاداً دفينة بين كل من الروم واللاتين حول قضايا دينية معروفة ، لذلك لم يكن هناك اندفاع عنيف من جانب الرومان للدفاع عن المدينة ، كما أن قسما منهم قد ترك المدينة ، ناهيك عن أن جزءا من السكان كانوا من الاتراك الذين ألقي القبض عليهم .

للاسباب أعلاه نجد أن امكانية تحشيد قوة كبيرة للدفاع ، يعد أمرا غير ممكن ، لاسيما وان الاوربيين الساكنين هناك لم يعيروا للمسألة أية أهمية كبيرة ، ولكنهم وفي كل الاحوال كانوا يفضلون الحكم البيزنطي على الحكم العثماني ، ولكن هذه القناعة لم توصلهم الى حمل السلاح بوجه العثمانيين والدفاع عن المدينة المحاصرة ، ومع ذلك فهناك ندرة قليلة حملت السلاح .

ان مستعمرة «غلطة» والتي كانت عبارة عن قلعة مقفلة تقريبا الى «الجنويين» القادمين من مدينة «جنوا» في ايطاليا ، تقف موقف الحياد التام من الطرفين المتصارعين والتي كان عليها أن تكون بجانب الامبراطور ، للروابط العميقة التي تربط الطرفين ، هذا فضلا من أن قصور « حكام غلطة » السوقي قد جعلهم يتوهمون أن موقفهم سيتيح لهم البقاء في مستعمرتهم ، ولم يفهموا أن سقوط القسطنطينية ، يعني سقوط «غلطة» أيضا ، لان الفتح التركي سوف لن يتيح لهم البقاء كشوكة في الخاصرة .

مما تقدم ، فان عشرين ألف مقاتل بيزنطي ، يعد رقما لا يمكن الركون اليه مطلقا ، وان أقرب رقم الى الصواب يتراوح بين (١٢–١٥) ألف مقاتل تحت قيادة الامبراطور البيزنطي قسطنطين ، وهو رقم يفصح عن قوة لا يستهان بها لو نظمت تنظيما حسنا ، وجرى امدادها بالسلاح والمواد التموينية بصورة جيدة .

اذا عدنا الى الجانب التركي ، فسنجد أن الارقام تشير الى وجود اثني عشر ألف انكشاري ، وعشرين ألف سباهي ، ومائة ألف من المشاة ، وقوة بحرية ، وذيل اداري يقدران بثلاثين ألف جندي ، ومع كل هذا فالتقديرات الغربية تشير الى ان المهاجمين كانوا بحدود مائتين وخمسين ألف مقاتل(٧) ، وهو رقم قد يكون مبالغاً به الى بعض الحدود ، ولكن المقاتلين الذين عليهم الاقتحام فلا يزيدوا على مائة وخمسين ألف مقاتل ، أما البقية الباقية من القوة، فكانت لاغراض الاسناد الاداري والفني ، وهي مهمة تتعلق بتموين الارزاق الى المقاتلين والخيول والمواشي الاخرى ، والتي تتطلبها أمور الحرب .

ان السبب الذي حدا بنا الى استيعاب واعتماد هذه الارقام ، هو أن الجبهة الضيقة للسور كانت لا تتمكن من استيعاب ربع مليون جندي مقاتل حتى في حالة الهجوم بقدمات ، ولذلك فان الرقم الذي ذكرناه يعتبر أقرب الى الحقيقة من الارقام المذكورة من قبل الجانبين ، والذي سنلمس بوضوح فيما بعد أنه يطابق أو يتوازن مع الخطة التركية ، وتقسيم القوات الى قواطع ، وحسب أهمية القاطع ودرجة قوته أو وهنه بالنسبة للقوات المخصصة له .

تشير قوات الطرفين ، وبما لا يقبل الشك ، الى ان التفوق العام كان بجانب القوات العثمانية ، ولكن علينا أن لا ننسى أن أسوار القسطنطينية هي أسوار متسلطة وتحكم ما تحتها ، من الارض والبحر ، ولا يمكن اقتحامها بسهولة ، وذلك لانها عالية ، وتوجد أمامهـــا الخنادق ، ولذلك فان الوسيلة الوحيدة لاقتحامها ، هي سلالم الصعود ، والتي كانت عبارة عن سلالم صعود بسيطة تتكون من الخشب لا تسمح بالتسلق الا لشخص واحد ، وفي أحسن الاحوال لشخصين ، ولهذا فان القلة العددية والحالة هذه كان يمكن أن تجعل القتال طويلا الى درجة مسأمة ، هـــذا اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن أبواب القسطنطينية كان مدافعا عنها بصورة جيدة ، ولا يمكن اختراقها أو النفاذ من

خلالها عند توفر عزيمة الدفاع عنها عبر الرجال المدافعين عنها ، الا أن الرجال في القسطنطينية ، كانـوا مختلفي الاهواء ، وكان القسم الآخر ميـالا الى الانتهازية بشكل متطرف لا يوازي أية قيمة أخلاقية[٨]،أما النزر اليسير فكان يلتهب حماسا للدفاع عن هذه المدينة العريقة .

الخطة التركية

ان خطة يمكن أن تسير بموجب مفرداتها الحركات العسكرية ، لا يمكن التكهن بها كليا ، لأن المسألة ليست معركة واحدة فقط ، وإنما هي مسألة تتعلق بالحصار ، واحكامـه ، وتفتيت الارادة البيزنطية ، ومن ثم اقتحام المدينة ، ولذلك فان الموضوع كليا يعتمد على الظروف الموضوعية التي تتاح لكل من الطرفين المتحاربين ، سيما اذا ما علمنا ، أن قتالات الحصار والاقتحام تتطلب وقتا كبيرا ، وتحتاج الى الابداع الذاتي للقادة والامرين ، ولكل من يقدم فكرة طيبة ، قابلة للتنفيذ في هذا اليوم أو ذاك خلال القتال .

السبب الجوهـري الذي يجعلنـا نفكر بهذه الطريقـة في المعطيات التاريخية ، والتجارب التي خاضتها الامم فيما مضى ، وهذا يجعلنا نفكر بشكل جدي في الامـور العلمية في عمليات اقتحام الاسوار طـاردين عن تفكيرنا الاساطير والخرافات المتوارثة التي وصلت الينا بشكل مشوش ، حيث اعتمدنا ركنين أساسيين في هذه العملية وهي الخطة المتقنة أولا ، والشجاعة الفائقة التي لا تصل الى حدود التهور ، والبعيدة عن الغرور والتبجج الفارغ .

اذن فالخطة يجب أن تكون طموحة وجريئة في الوقت نفسه مع مزاوجة هذه الجرأة بالمخادعة ، التي من شأنها أن تخفق الخسائر ، وتسهل الامور الى مديات بعيدة ، مما يتيح اختزال الزمن ، والقفز فوق مأساة الاندحار ، ولهذا فقد كانت الخطة التركية متناهية الاندفـاع يشفع لها في هذا المسلك القوة المادية والعددية المتفوقة .

الخطة التركية كانت تتضمن تنسيقا متكاملا بين كل الصنوف ، ومن ثم متابعة الأمور اللاحقة وفق المستجدات ، وعليه فان المرونة في مداولة المواضيع الحربية الطارئة كانت السمة المميزة للخطة التركية ، والتي تتمكن من التحرك بالاتجاه الذي يؤمن أفضل ، وأقصر طريق ، وفترة ، من أجل تحقيق النصر ، أو السير في الطريق الصحيح المؤدي له ، خطوة اثر أخرى •

كان السلطان محمد الفاتح يريد أن لا يفوته أي شيء ، ويريد أن لا يغفل أي شيء ، ويريد أن يقتنص أية فرصة ، لذا نجده قد قسم الاسوار المنيعة على قواطع ، مع احتفاضه بقيادة منطقة الوسط ، وهذا سيجعله في قلب المعركة واتونها ، مراقبا لكل مجرياتها في الجانب البري منها ••• ولم يكتف السلطان بهذه القيادة فقط ، وانما كان يشرف على الجانب البحري ، وعلى أية حال ، فان السلطان العثماني محمد الفاتح في مهمة القيادة وزيره الاول «خليل باشا»، علما بان القوة التي يتكون منها القلب كانت مؤلفة من الجنود الانكشاريين الصلبي العود ، المتعودين على شظف العيش وخشونته ، وهؤلاء خصصوا ليكونوا أمام البوابة المدعوة «طوب قبو» لاقتحامها ، علما بان هذه البوابة تطلق عليها تسمية «أدرنة قبو» أيضاً ، والاخيرة تسمية تركية ، أما البيزنطيين فكانوا يطلقون على هذه الباب تسمية «باب القديس رومانوس» •

في الجانب الايمن من مسرح العمليات نجد أن القوة العثمانية المكلفة بالهجوم كانت بقيادة اسحاق باشا ، وهي تمتد من يمين القلب وحتى بحر مرمرة •

في الجانب الايسر كانت القوة العثمانية تحت قيادة «قرجه باشا» والتي كان عليها أن تهاجم وتطوف السور من ذلك الجانب(٩) •

الخطوط المارة أعلاه هي الخطوط العريضة للخطة العثمانية ، والتي على القوات العثمانية أن تكون في حالة مواجهة جبهوية تامة مع القوات والاسوار البيزنطية •

المنطقة المحيطة بالمدينة التي تتكون من الارياف ، فقد أوكل أمر مراقبتها الى قوات خاصة بقيادة «زاغنوس» باشا ، وهذه القوات لا تنتسب الى الجندية المحترفة ، وكان واجبها كواجبات قوات الاحتياط في هذه الايام ، وذلك يمنع أي مساعدة يمكن أن تحصل عليها المدينة من الخارج .

لقد كانت الواجبات الموكولة الى زاغنوس متعددة ، الا ان أهم واجب فيها كان هو مراقبة «غلطة» المنوه عنها سابقا ، حيث عليه أن يمنعها من تقديم يد المساعدة الى المحاصرين في المدينة ، اذا ما اثيرت بهم النعرات العاطفية لمد يد المساعدة المذكورة ، وهذا يقودنا الى أمر بالغ الاهمية ، وهو وجوب التفكير الدائم بالاحتياطي المقتدر ، التي تعـــول عليه جميع المعارك ، بما في ذلك المعارك المصيرية ، كهذه المعركة التي بدلت وجه الجغرافيا في العالم .

اذا عدنا الى الاسطول التركي ، فسنجد أن الغاية الاساسية المحدودة من قبل السلطان العثماني محمد الفاتح ، كانت واضحة ، وهي تتجسم في شيء مهم واحد ، هو عدم افساح المجال الى أي معونة بيزنطية بالدخول الى المدينة المحاصرة ، بحيث يكون الحصار كاملا ، ويقترب الى حدود المثالية في اتقان الصنعة العسكرية ، وهـــذا ما يؤدي الى السحق المعنوي للمدافعـــين وراء الاسوار ، ومن ثم الاقتحام ، وبهذا العمل يمكن أن يقلل الوقت الى أقصر ما يمكن ممـــا يجنب الحصار الطويل الامد ، الذي يمكن أن تحـــدث خلاله الويلات ، علما ، أن الحصار الفاشل يمكن أن يحرق الحرث والنسل ، ويؤدي الى الاوبئة ، والمجاعة ، والموت ، بحيث يعود الجنود الذين أرادوا الحصار الى أوطانهم ، وهم قلة ، بوجوه وقلوب حزينة وهامات موشحة بالكآبة ، وأجسام تحلق وتمخـــر في دماءها أشنات الالم الساحق ، التي تتهرأ منهـــا الاوردة والشرايين التي كانت فيما مضى مستبشرة بالنصر .

في هذا المضمار علينا أن نشير الى حقيقة أزلية ، وهي أن القوات التي

حاصرت المدينة المتعبة ، لم تكن في مجملها قوات تركية ، وانما كان يخالطها القليل من القوميات الاخرى ، تحارب من أجـل مصالحها العامة ، أو رزقها اليومي ، بيـد أننا اذا ما قمنا بتحليل الوضعية العامة ، فسنجد أن القوة الضاربة ، أو الاكثرية الساحقة منها هي قـوة تركية ، أو قوات انكشارية تقترب من الاتراك ، الى حد الالتصاق ، وأكثر اقترابا الى محيطها الاصلي ، لان منبتها هو أرض تركية •

الان سنعود الى الاسطول لنؤكد أن مهمته كانت مهمة ثانوية ، الا أن الاساس فيها هو الحصار البحري ، أمـا التشعبات الاخرى فكانت تشمل مهاجمة ميناء القرن الذهبي بعد ازالة السلسلة الحديدية المانعة ، ومن ثم تدمير السفن البيزنطية المتواجدة في هذا الميناء المهم ، وقد عهد بهذا الواجب الكبير الى القائد البحري العثماني «بالطة أوغلي» ، والذي كان عليه بالاضافة الى ذلك أن يقوم بتطهير جميع بحر مرمرة •

الخطة البيزنطية

لم تكن لدى البيزنطيين أية حيلة في مسألة الخطة التي عليهم اتباعها في عمليات الحصار ، لان كل الامور كانت مفروضة عليهم بالشكل الذي يريده العثمانيون ، ولذلك فان الخطـة التي اعتمدوها ، كانت لاتتعدى ، مسألة مراقبة الاسوار بوساطة قوات خفيفة ، بغية رصد تحركات القوات التركية البحرية منها ، والبرية ، مع الاحتفاظ ببـاقي القوات في حالة استعداد قتالي قصوى ، لكي تتمكن من المشاركة في صـد عمليات الاقتحام التركية عندما تعطى الاشارة لهذا العمل من قبل قوات الانذار المبكر ، وعندما يتم التأكد من محور الهجوم •

نجد مما مر أعلاه أن مهمة القوات البيزنطية كانت عسيرة جدا ، ومنهكة للاعصاب في الوقت نفسه ، اذ انها تتطلب اليقظة والحذر على مدار أربع وعشرين

ساعة ، في اليوم الواحد ، لانها لم تكن تعرف في أية لحظة يمكن أن يقع الهجوم الحقيقي للعثمانيين ، أما في الجانب العثماني فكانت الامور على العكس من ذلك ، فهم في حالة نفسية جيدة ، وهم يعرفون اللحظة التي تقرع بها الاجراس الحقيقية للهجوم ، ولهذه الاسباب يمكن ان نقول أن الخطة التركية كانت تتحكم بالخطة البيزنطية ، وان البيزنطيين كانوا يرقصون على ايقاعات العثمانيين •

الخطة البيزنطية المذكورة أعلاه كانت ضمن الاطار القتالي ، أما الخطة في محتواها الاداري فانها لا تعدو أكثر من تقنين الارزاق على سكان المدينة ، واعطاء فرص أكثر للمقاتلين الذين يبذلون طاقة قصوى من أجل الصمود ، وعلى أقل تقدير لاطالة أمد الحصار على بارقة أمل سحرية أو معجزة يمكن أن تنقذهم •

ان السكان المدنيين ، على ما يبدو ، لم يكونوا متجاوبين كلهم مع الامبراطور ، حيث خزن البعض منهم أرزاقه من أجل عدم وقوعه في براثن الجوع ، التي يمكن أن يحصل في الايام ، أو الشهور القادمة •

الحالة المالية كانت تزداد سوءا يوما بعد يوم في الجانب البيزنطي وهذا ما نجم عنه عملية تكديس مبتورة في أرزاق المقاتلين ، وان المساعدات المادية التي جاءت من الشعب على شكل تبرعات ، صرفت على ترميم الاسوار وتخزين المواد الغذائية على حد سواء ، ولم تقتصر على المواد الغذائية فقط •

الخطة البيزنطية ، وكما تمكنا من الوقوف عليه بالبراهين ، كانت تعتمد على المطاولة ، وهي تستند الى اتجاهين ينجم عنهما محصلة ، الاتجاه الاول يعتمد على الترميم الفوري للاسوار عندما تدك المدفعية العثمانية جزءا منها ، أما الاتجاه الثاني فيعتمد على حشد القوة بالمكان الذي يجابه أقوى زخم للهجوم ، وبما ان الاتجاهات العامة للهجمات التركية متعددة ، ناهيك عن

امكانية تهديم أكثر من جزء واحد من السور ، ولذلك فان القوات البيزنطية ستكون والحالة هذه متفرقة على طول الاسوار ، ولا ترتكز في محل مركزي واحد ، وبذلك سيتجزأ زخم مقاومتها •

البحر بالنسبة للاتراك كانت معضلته ، السلسلة الحديدية التي تسد مضيق القرن الذهبي ، الذي يتواجد فيه الاسطول البيزنطي ، وهذا يعني أن أحد منافذ الهجوم البحري قد سدت بوجه البحرية العثمانية وأسقطت خيارا في مجمل العملية •

سير الحصار الحقيقي والمعركة

من البديهي أن المناوشات الاولى بين الجانبين كانت تتسم بالندية لان البيزنطيين وان كانوا قلة ، الا ان أسوارهم كانت تشفع لهم ، هذا فضلا عن الى أنهم كانوا في تلك المرحلة الافتتاحية في كامل قوتهم البدنية ، ولم يشتكوا قلة المؤن ، غير أن الامر الطبيعي واللاحق ، هو ان هذه القوة ستبدأ بالهزال والضمور يوماً بعد آخر ، ومن هنا ، يمكن أن نستنتج أن النتيجة الحتمية ستكون الشلل التام ومن ثم الاستسلام للعدو القوي الذي بامكانه أن يديم الحصار بدون كلل •

المعركة بصورة عامة لم تستغرق طويلا نسبة الى عصرها ، حيث استغرقت خمسين يوما ، من القتال الحقيقي الذي ابتدأ في (١٩) نيسان عام ١٤٥٣م[١٠]، والتي قامت المدفعية العثمانية بافتتاحها ، وذلك بقصف الاسوار البيزنطية بحممها الملتهبة ، كما قامت «المنجنيقات» برمي الصخور الكبيرة عليها ، وقد تمكنت هذه المدفعية من تهديم جزء من الاسوار الخارجية ، وخاصة في القسم الاوسط ، وكان هـذا القسم يعد أضعف النقاط الموجـودة في الدفاعات البيزنطية ، التي لم يجر ترميمها منذ مدة طويلة ، وعلى أية حال فان هذا القصف يمكن أن نعده قصفا تمهيديا من قبل الجيش العثماني •

الثغرة التي حدثت جراء القصف المدفعي العثماني في السور البيزنطي اندفع خلالها الجنود العثمانيون ، وخصوصا الانكشارية منهم ، بغية استثمارها ، وتوسيعها من أجل عدم فسح المجال لقوات أخرى لعبورها لتعزيز الهجوم وتوسيع الخرق ، ولذلك نصبوا السلالم ، وصعدوا الاسوار ، الا أن الامبراطور البيزنطي أرسل الى هذه المنطقة قوات اضافية لصد هجوم العثمانيين ، وبالفعل دار قتال عنيف بين قوات الطرفين حتى ساعات متأخرة من النهار ، من دون الحصول على أية مواقع عثمانية جديدة ، وهذا ما حدا بالقائد التركي أن يقوم بسحب قواته بعد أن أعطى خسائر جسيمة نسبيا ، تقدر بمائتي مقاتل ، وهنا لابد من الاشارة الى أن الهجوم التركي قد فشل بسبب ضيق الثغرة المستولى عليها ، بما لا يتناسب مع حجم القوة القائمة بالصولة عليها ، والتي كانت تفقد المناورة ، مما جعلها تتكدس في منطقة صغيرة جدا ، مما أتاح المجال للجانب البيزنطي معالجتها بالوسائل كافة ، كالرمي بالنبال والحجارة ، والنار ، تحت تشجيع كل من الامبراطور ، والقائد الجنوي «جوستنيان» .

اذا ما درسنا وضع المدنيين داخل المدينة ، فاننا سنجد أنهم قد أصيبوا بالهلع الرهيب ، الذي حدا بهم للجوء الى الوسيلة الاعتيادية للانسان ، وهي الدعاء والتراتيل ، والتوجه الى الكنائس ، ومنها كنيسة «سانتا صوفيا» والتي أصبحت بعد الفتح جامعا شامخا يدعى «أيا صوفيا» ، ومهما كانت الامور ، فان الهجوم التركي صاحبه مخادعة عسكرية ، وهذا هو بيت القصيد الذي نحن بصدده ، وهذا ما سنتطرق اليه في المادة القادمة التي ستميط اللثام عن تلك المخادعة .

المخادعة التركية

من أجل مخادعة البيزنطيين نصب الاتراك سلما في الجدار البحري للمدينة ، وهذا العمل لم يكن عملا حقيقيا وانما أريد به المخادعة ، لان

الأسوار البحرية ، كانت منيعة وتحتاج الى جهد استثنائي لاقتحامها ، ونحن نعرف كما أسلفنا أن البحرية التركية كانت ضعيفة ، ولا يمكنها أن تقوم بهذا العمل الجبار ، علما بأن العثمانيين ، وهذا أمر لا يمكن نكرانه ، كانوا يمتلكون القدرة على القتال البري ، وبأوسع المقاييس ، الا انهم في البحر كانوا يشكون من نقص في التدريب على عمليات الاقتحام البحري المذكورة .

التفكير العثماني كان سليما ، وان كان بسيطا في عملية المخادعة التي تطرقنا اليها ، حيث أن هذا العمل حتم على الجانب البيزنطي أن يفرز قوة من مجموع قوته العامة لمعالجة الموقف المستحدث ، عبر ارساله النجدة الى القاطع البحري الذي تم التعرض له ، ومما لاشك فيه أن هذا العمل سيؤدي في النهاية الى اضعاف الدفاعات في مناطق معينة من أسوار المدينة البرية .. والتي يعول عليها في دفاع طويل الامد اذا ما توفرت عوامل أخرى كالنجدات والطعام .

المخادعة التي جرى ذكرها الان فشلت بسبب يقظة الجنود البيزنطيين حيث كانوا أقوياء ، ومايزالون في بداية المعركة ، وهكذا نجد ان الجانب التركي وعقابا له على هذه المخادعة المألوفة قد أعطى بعض الخسائر الناجمة عن مهاجمة جنوده القائمين بالصولة من قبل الجنود البيزنطيين بالنار ، والقار ، والحجارة ، والنبال التي لم يتمكن العثمانيون من مقاومتها .

ان المادة الثانية في خطة المخادعة فكانت تتمثل باقتحام السلسلة الحديدية لميناء القرن الذهبي ، ثم الوصول الى ميناء القرن الذهبي ، غير أن هذه المادة لم يكتب لها النجاح حيث تمكنت السفن البيزنطية من رد السفن العثمانية التي كانت بقيادة «بالطة أوغلي» بعد أن كبدتها بعض الخسائر ، ومن المفيد هنا ، أن ننوه أن بعض السفن التركية كانت تتحرك بوساطة المجاذيف ، لصغر حجمها ، وهذا لم يمكنها من مجاراة السفن البيزنطية المتقنة فنيا .

ان العمليات غير المدروسة في مضمار المخادعة للعثمانيين ، كبدتهم خسائر فادحة ، هم في غنى عنها في هذه المرحلة ، اذ أن العثمانيين لو صبروا الى حين ، لكان من الممكن ان تكون هذه المخادعة مثالية ، وذات جدوى ، وعندما تصبح القوات البيزنطية منهوكة ، ومثخنة بالجراح .

المخادعة العثمانية الفاشلة ، ومما لاريب فيه أنعشت معنويات وآمال البيزنطيين بدرجة ملموسة ، ولكنها ، وبكل المقاييس لم تتمكن من أن تحط من معنويات العثمانيين ، وعلى رأسهم السلطان محمد الفاتح وبأي شكل من الاشكال ، لان المعارك كما يعرفها الجميع سجال مميت بين جانب وآخر .

استمرار المعركة :

في اليوم التالي ، وهو يوم (٢٠) نيسان لم تكن هناك معارك برية ، وجل ما كان يدور على البر ، هو التراشق المدفعي امعانا في دك أكبر ما يمكن من الاسوار البيزنطية تمهيدا لعملية الاقتحام المرتقبة .

الجانب البحري في هذا اليوم تمخض عن معركة بحرية فرضت نفسها على الاتراك فرضا لا مفر منه ، حيث ظهرت في بحر مرمرة خمس سفن موالية للبيزنطيين ، تحمل على متنها المقاتلين والارزاق ولوازم المعركة الاخرى ، وهي تروم الرسو في ميناء القرن الذهبي ، بغية انزال حمولتها ، وهذا ما حدا بالسلطان العثماني محمد الفاتح أن يصدر أوامره الى قائده البحري «بالطة أوغلي» لتدميرها ، اذ انها لو نجحت في الوصول الى الميناء المذكور فانها ستعزز من قدرة الدفاع البيزنطي ، وتجعل الحصار أكثر طولا مما خطط له ، وهذا الامر يمكن أن يرهق الجانب العثماني ، وتذكر المصادر أن السلطان محمد الفاتح قال مخاطبا قائده البحري : «اما أن تدمر السفن أو لا ترجع لي حيا» ، وهذا الامر الواضح ألهب تفكير القائد البحري العثماني الذي اعتقد أن قوته العددية في البحر كفيلة باغراق وتدمير خمس سفن معادية في البحر ،

ولذلك فقد بدأ هجومه عليها ، اثر تعبئة سفنه وزوارقه على شكل «خط صد» يشبه الهلال بغية منعها من الوصول الى الميناء البيزنطي ، وتطويقها ، وبالفعل جرى الالتحام بين السفن البيزنطية الخمس والسفن العثمانية ، بيد أن العثمانيين لم يتمكنوا من اعتلاء السفن البيزنطية ومقاتلها ، لان سفنهم كانت أصغر من السفن البيزنطية ومقاتلها،لان سفنهم كانت أصغر من السفن القادمة، هذا علاوة على أن سهامهم ونيرانهم كانت تطيش ، أو تعالج من قبل خصومهم بصورة فورية ، أما الحجارة فكانت غير مؤثرة في السفن المذكورة ؛ لانها لا تتناسب مع تلك السفن .

الموضوع الاخر ، الذي سخر من أجل منع السفن البيزنطية الخمس الولوج في خليج القرن الذهبي ، كان يعتمد على المدفعية ، التي عليها أن تصوب حممها نحو هذه السفن ، الا ان الالتحام البحري لم يكن المدفعية المذكورة في استمكان المواقع بدقة ، وهكذا فان القذائف والحالة هذه يمكن أن تصيب السفن التركية نفسها .

ظلت المعركة البحرية محتدمة لساعات طويلة ، ومن الواضح ، أن معركة بحرية في بحر مرمرة كانت مرصودة من قبل الجانبين ، فالبيزنطيون كانوا يرصدونها من أبراجهم وأسوارهم ، والعثمانيون من سواحلهم ونقاط رصدهم ، ولذلك كانت صيحات التشجيع المدوية تهدر في الفضاء من هذا الجانب أو ذاك ، فالسلطان محمد الفاتح كان ينادي قائده بأعلى صوته لتحطيم هذه السفن حيث كان القائد العثماني يسمع صوت السلطان ، فيندفع ، الا انه كان يملك حيلة ، ولذلك كان يغامر ، مما نجم عنه اصابته في عينه ، ومن ثم فقدانها الى الابد ، ومن الطبيعي ان ذلك نجم عن مشاركته الشخصية في أحد الهجمات

السلطان العثماني ، وبعد أن لمس الخيبة التي ستلحقه جراء عدم مقدرة بحريته على صد السفن البيزنطية ، اقتحم البحر بنفسه راكبا على فرسه ، الا ان

هذا الأمر لم يشفع لمنع مروق السفن البيزنطية الى غايتها النهائية ، كما ولم يعط الى القوة البحرية العثمانية قوة اضافية لصد السفن من المضي الى ميناء القرن الذهبي ، لتفرغ حمولتها فيه .

اضافت الامدادات القادمة بوساطة السفن الخمس المذكورة أملا جديدا الى المواطنين والمقاتلين البيزنطيين ، بعد أن شاهدوا من شرفات أسوارهم المعركة والانتصار البحري ، لذلك أقاموا مواكب الافراح ، ودقت النواقيس ، وانشدت أناشيد الظفر لتفتال سكون الليل البهيم ، ولتعلن عن أمل جديد في الخلاص من الفتح العثماني ، على أساس أن من يتمكن المرور بخمس سفن يمكن له أن يواصل هذا العمل في امداد المدينة بمستلزماتها

مع كل هذه الخيبة البحرية ، وما سبقها في البر نجد أن المعنويات العثمانية لم يصبها الفتور مطلقا ، ومع ذلك فقد عزل القائد البحري العثماني «بالطة أوغلي» وتعين القائد البحري «حمزة باشا» بدلا عنه .

محاولة تعبوية جديدة ومبتكرة

أدرك السلطان العثماني محمد الفاتح أن لا سبيل الى فتح المدينة من جهة البر فقط ، وانما يجب أن يهاجمها من محاورها الثلاثة لامتصاص قوة الدفاع ، وقد كانت المحاور الثلاثة المذكورة تتمثل بما يأتي :

١ ـ محور ميناء القرن الذهبي ، وهذا كان مقفلا بسلسلة حديدية .
٢ ـ محور بحر مرمرة .
٣ ـ محور الاسوار البرية .

العمل المذكور أعلاه سيجزىء أولا القوات البيزنطية ، ويجعلها في حالة مراقبة مستمرة لجميع الجهات ، وهذا بدوره يؤدي الى استنزاف الطاقات ككل ، والطاقات الفردية بشكل خاص ، حيث ستقع على الفرد أعباء اضافية من

اليقظة والحذر ، وصولا الى القتال ، ومن ثم الى القتال المستمر ، ومن الطبيعي أن هذا يقود الى الانهاك الكامل ، وصـــولا الى الهلاك تحت تأثير أية ضربة معادية منتعشة ، تمسك في يدها زمام المبادأة .

للاسباب الواردة أعلاه كان على السلطان العثماني محمد الفاتح أن يجد وسيلة تجعله متواجدا في خليج القـــرن الذهبي المقفل ، وذلك بغية اكمال الحصار من جهاته الثلاث المذكورة ، وبذلك يمكن أن يقترب من الانتصار عبر اكماله طوق الحصار الكامل على المدينة العنودة ، وهنا يأتي دور المخادعة كدور متميز عملاق لانجاز المهمة ، ولبلـــورة الافكار المطروحة في مفردات الخيال الى شيء عملي ملموس .

المخادعة الجديدة المبتكرة

كان على السلطان العثماني محمـــد الفاتح أن يتقدم بسفنه من مضيق البسفور الى خليج القرن الذهبي ، الا أن ذلك كان أمرا غير ممكن لانه يتطلب خسائر كثيرة بالسفن ، والبحارة لذلك لجأ الى مخادعة جديدة هي :

١ ـ تكثيف القصف المدفعي على ميناء القرن الذهبي يوم ٢١ نيسان ١٤٥٣ .

٢ ـ قصف الاسوار البرية ، بكل قوة .

٣ ـ مهاجمـــة السلسلة الحديدية التي تسد ميناء القرن الذهـــبي بوساطة الاسطول .

٤ ـ نقل سبعين سفينة الى خليج القرن الذهبي ، وذلك بوساطة سحبها برا من البسفور الى الميناء ، وهذه هي الخـــدعة التي لا يمكن أن يتصورها الخصوم ، في تلك المرحلة الزمنية .

لقد صدرت الاوامر من قبل السلطان العثماني بوجوب تعديل الطريق من مضيق البسفور الى ميناء القرن الذهبي ، والذي كان يربو طوله على ثلاثة أميال ، والطريق عموما يتكون من التلال والوهاد .

الاوامر كانت تنص على أن يعدل الطريـــق المذكور ، وبعدها يرصف بالالواح الخشبية المطلية بالزيوت والشحوم ، لتكون قادرة على تحمل السفن للانزلاق عليها بسهولة يمكن أن نعدها نســـبية ، وذلك عبر سحبها بوساطة الحيوانات والجنود ، وصولا الى الخليج والميناء البيزنطيين •

لقد سارت الاعمال التي أمر بها السلطان بكل سهولة ليلة ٢١/٢٢ نيسان عام ١٤٥٣ بينما كانت المدفعية التركية تـــدك ميناء القرن الذهبي والاسوار الاخرى •

القصف العثماني المركز والكثيف حدا بالجانب البيزنطي الى مغـــادرة الميناء ، واللجوء الى أسوار «غلطة» للنجـــاة بنفسه ، بعد أن غرقت احدى السفن البيزنطية نتيجة لهذا القصف ، وقد ساد اعتقاد جازم لدى البيزنطيين هو أن هذه السفينة ستكون فاتحة عهد لغرق سفن أخرى اذا ما بقت سفنهم في الميناء المذكور ، ولذلك فكروا في الجـــلاء عنه ، وهنا وقعوا في المصيدة البحرية ، حيث نجحت المخـــادعة ، وأخلي الميناء ، وهذا مما مهـــد السفن العثمانية المنزلقة على اليابسة أن تصل الى الميناء المذكور ، ولتعسكر فيه ولتأخذ خطا دفاعيا رصينا لا يمكن التأثير فيه ، ولتستأصل إمكانية دعم المدينة كليا من هذه الجهة •

لقد تمكن السلطان العثماني محمد الفاتح أن يقدم معجزة في ذلك الزمن ، سداها ولحمتها المخادعة ، اذ ان الراصـــدين البيزنطيين الواقعين على أسوار المدينة من جهة ميناء القرن الذهبي ، عندمـــا اكتشفوا بعد طلوع الشمس منظرا مذهلا لا يمكن ان يوصف ، وهـــو أن بعض السفن العثمانية قد نزل الماء ، والبعض الاخر ينزلق على اليابسة بكل حرية •

كانت لا توجد امكانيات حقيقية بيزنطية للدخول في معركة بحرية ، اذ ان القوات العثمانية في الضفة البعيـــدة من خليج القرن الذهبي كانت حينذاك

تسيطر على الوضع ، وبامكانها أن تمنع أي سفينة معادية من الدخول الى ميناء القرن الذهبي ، علما أن الميناء المذكور لا يساعد على المناورة في القتال .

اذا خللنا المخادعة التركية فسنجد انها فكرة مبتكرة ، تمثل امكانية مادية وبدنية جبارة في تلك الحقبة الزمنية ، كما انها تمثل الجلد والمثابرة التي تعود عليها الجندي الاعتيادي في تلك المراحل التاريخية من حياة الارض ، حيث كان الجندي صبورا ويقظا يتمكن في الحياة أن يعيش حالة الكفاف اذا ما أيقن ووثق بقيادته ، ولذلك بقت القيادة حتى يومنا هذا الممول الشرعي للمعنويات ، وهي تتمكن والحالة هذه من تغذية حماس المقاتل بصورة مستمرة .

لقد كانت السفن العثمانية التي انزلقت برا الى ميناء القرن الذهبي هي بحدود سبعين سفينة ، وهكذا أصبحت المدينة بهذا العمل مطوقة من كل جانب ، وقد رفع انزلاق السفن العثمانية إلى ميناء القرن الذهبي من المعنويات العثمانية الى الاوج ، كما ساهم في تقليل وهبوط المعنويات البيزنطية ، حيث بدأت بالتردي ، بعد ما عانت من القصف المدفعي والبداية الحقيقية لشحة مواد الاغاثة المتمثلة بالطعام والشراب .

احتلال ميناء القرن الذهبي أعطى تسهيلات أخرى الى العثمانيين ، فهم في الحالة أعلاه تمكنوا أن ينصبوا مدافعهم من هذه الجهة ليدكوا أسوار المدينة من هذا الاتجاه ، الذي يعد مكملا للاتجاهات الاخرى .

كان وجود السفن التركية في ميناء القرن الذهبي يثير الهلع في النفوس ، لذلك كان على الامبراطور البيزنطي أن يجد الطريقة الكفيلة بتدمير هذه السفن ، ومن أجل ذلك عقد اجتماعا بينه وبين أركان حربه ، وعلى رأسهم القائد العسكري «جوستنيان» ، وكان القرار النهائي ، هو مهاجمة هذه السفن ، وقد أختير لهذه المهمة بحار متمرس بأمور البحر يدعى «جاكومو كوكو» .

كانت خطة «جاكومو كوكو» البحرية تتضمن مهاجمة السفن العثمانية ليلا بحركة مباغتة بحيث تشكل الصفحة الاولى هذه ، مدخلا لحوادث أخرى متلاحقة تنتهي بتدمير السفن العثمانية ، وقد كان التوقيت لهذه المعركة هو يوم (٢٨) نيسان ، وإن الشروع بالحركة هو وقت الغروب ليكون الظلام غطاء للحركة •

لم تسر الخطة بالاتجاه المكتوب لها ، حيث أخبر البعض من الجنويين العملاء السلطان محمد الفاتح بالامر ، فاستعد لها استعدادا كبيرا ، ولهذا نجد أن السفن البيزنطية ، ما أن تركت مراسيها في ميناء «غلطة» مقتربة من ميناء القرن الذهبي حتى هاجمتها بشكل مباغت المدفعية العثمانية ، والوسائل الاخرى ودمرت قسما منها وأعطبت قسما اخر ، ناهيك عن وقوع خسائر بشرية ، كما وان سفينة القائد البحري «جاكوموكوكو» نفسها أصابتها بعض القذائف لتشطرها وتغرقها •

في هذا الصدد هناك نقطة يجب توضيحها حول سكان منطقة «غلطة» ، حيث يرمي الكثير من المؤرخين سكانها بالخيانة ، ولكن لو حللنا الامور بصيغة منطقية ، خالية من التحزب لهذا الرأي أو ذاك ، فسنجد أن عملهم يعد عمل منطقي • وذلك بوقوفهم على الحياد ، اذ أنهم لو لم يقفوا على الحياد ، كانوا سيدمرون أولا ، أو كمدخل لمعركة القسطنطينية ، أما النقطة الثانية فان الاقوام التي كانت تسكن غلطة تنتمي الى الرومان خلافا للكثرة الكاثرة من سكان المدينة الذين ينتمون الى «اللاتين» •

ان موقفهم المحايد في نهاية المطاف سيضمن لهم استمرارية العيش في «غلطة» حتى بعد سقوط مدينة القسطنطينية •

اذا عدنا الى المعركة البحرية سنجد أن نتائجها كانت وبالا على الامبراطور البيزنطي وأهالي المدينة ، لذلك قرروا القيام بمحاولة ثانية على النجاح يصيبها

هذه المـرة ، على أن تكون القيادة لهذه المحاولة من قبل القـائد العسكري جوستنيان نفسه .

جهز جوستنيان سفن الحملـة على أن تقوم باحراق السفن العثمانية في ميناء القرن الذهبي ، وغادر ميناء غلطة في الرابع من ايار ليلا ، بيد أنه جوبه بمقاومة عثمانية عنيفة ، دمرت سفينته العملاقة ، وكانت قذائف المدفعية تنهال على السفن البيزنطية بشدة ، لذلك أعطى جوستنيان خسائر كبيرة ، وتقدر المصادر عـدد القتلى البيزنطيين بمائة وخمسين بحارا ، أمـا الباقون فعادوا ادراجهم الى أماكنهم الاولى ، وبهذا العمـل انطوت صفحة الحرب في ميناء القرن الذهبي ، وبذلك احتفل العثمانيون بهذا النصر بدق الطبول والمزامير .

لقد كانت خسارة المعركة البحرية لطمـة موجهة أخرى الى المعنويات البيزنطية ، وسكان المدينة على حد سواء ، كما وان القصف المدفعي العثماني كان يزيد الطين بله ، حيث كان يسـتنزف الدفاعات والطاقات البشرية عبر الجهد المذبول لاصلاحها ، ولذلـك يمكن أن نلمس كيف أن الموقف أخذ يتأزم يوما بعد يوم في الجانب البيزنطي ، بينما يتحسن في الجانب العثماني وهذا ماكان يعطي للسلطان محمد الفـاتح شحنات معنوية اضافية ، تزيده اصرارا على الاقتحام .

ممرات تحت الارض

كان الحصار العثماني رائعا من جميع الجهات ، وكانت المدفعية تصب حممها فوق الاسوار والرؤوس ، لذلك كان الفرد محاصرا لا من القوة البرية العثمانية ، ولكنه كان محاصرا من الجو من خلال قذائف المدفعية .

بغية اكمال الحصار من كل الجوانب ، عمد السلطان محمد الفاتح الى اللجوء الى بعد اخر في الحصار ، وهـو باطن الارض ، أو بعبارة أدق أسفل

المدينة ، ولذلك في اليوم السادس عشر من ايار ، أمر أن تحفر الانفاق من تحت الاسوار ، وحتى مناطق منتخبة من المدينة .

ان خروج الجيش العثماني من باطن المدينة ، سيكون له تأثير كبير في سكانها والمدافعين عنها على حد سواء ، اذ ان هـذا العمل سيصبهم لجسامته بالرعب المشحون بالخرافة ، اذ أن أمرا كهذا لا يمكن أن يصدق الا لماما . لقد حفرت بالفعل الانفاق وصولا الى المدينة ، الا ان البيزنطيين اكتشفوا هذا الامر ، فحفروا انفاقا مضادة ، مما جعل العثمانيين يقعون فريسة سهلة في براثن البيزنطيين ، حيث داهم البيزنطيون العثمانيين بالقـــار والنيران فاختنق منهم الكثير ، وماتوا ، وفر الباقون ، ومع ذلك فان السلطان محمد الفاتح لم ييأس واستمر في حفر الانفاق .

المخادعة التركية الجديدة

ان حفـــر الانفاق من قبل العثمانيين لا يمكن أن يكون هـــو المحور الاساسي المعول عليه لانجاز واجب احتلال المدينة ، لان هذه الانفاق مهما كان حجمها ، وعددها ، لا يمكنها أن تسرب الاعداد الكافية لتحقيق النصر ، وان كل ما يمكن أن تقدمه هو تمرير بعض الجنود العثمانيين الى داخل المدينة ، علما بأن هذه الانفاق وفي حالة انكشاف أمرها يمكن أن تسد أو تردم بكل سهولة ، وبذلك لا يمكن للقوات استخدامها ، ومع ذلك فان هذا العمل أريد به وجهان ، الوجه الاول يتعلق بالمعنويات ، حيث أراد السلطان العثماني أن يبرهن على جبروت قواته ، واصرارها على الفتح بالسبل كافة ، وهذا مما يجعل المعنويات البيزنطية تنهار أكثر وتصل الى الحضيض ، اما الوجه الثاني ، فأراد به أن يشتت القوات البيزنطية المدافعة ، بحيث تفرز جزءاً من رجالها لاغراض مقاومة الخارجين من الانفاق ، وبذلك سيقلل من عدد القائمين الرجال بالدفاع عن الخارجين من الانفاق ، وبذلك سيقلل من عدد الرجال القائمين بالدفاع عن

الاسوار ، وهذا يجعل الدفاع عن الاسوار أقل كثافة من ذي قبل ، ورقيقا يمكن أن يخترق بسهولة نسبية أفضل .

لقد كانت هذه المخادعة بسيطة ، ولكنها مرعبة في الوقت نفسه ، وما كان سيلجأ لها السلطان العثماني لولم تكن لديه قوات كثيرة ، ولكنه استخدمها لوفرة الرجال المسلحين بالمعنويات العالية .

القلعة التركية

بعد حفر الانفاق كانت الفعاليات العثمانية فعاليات اعتيادية لا تتجاوز أكثر من الرشقات المدفعية ، والمحاولات البسيطة لتسلق أحد الجدران في هذا القاطع أو ذاك .

العمل الجاد في اقتحام الاســـوار البيزنطية جاء يوم (٢١) ايار ١٤٥٣ ميلادية ، حيث بنى السلطان العثماني ، قلعة متحركة يزيد ارتفاعها على ارتفاع الاسوار ، والابراج البيزنطية ، وكانت القلعة المذكورة عبارة عن قلعة خشبية دقيقة الصنع ، لها قابلية حركة جيدة ، وهي تتكون من ثلاث طبقات ، وكل طبقة من هذه الطبقات يمكن أن تشـــغل من قبل الجنود الذين لديهم قابلية عالية على رمي النبال والحجارة ومن ثم الاقتحام .

لقد كانت في ذلك العصر تعد قلعة جبارة تمثل قمة العمل الجاد المثمر في تحقيق مشاركة عسكرية معينة .

كسيت القلعة المذكورة عمومـــا بالجلود ، التي عمد العثمانيون ، الى جعلها مبتلة لكي لا يتمكن البيزنطيون من خرقها بسهولة ، كما انها فضلا عن امكانية حملها للجنود قادرة على حمل المعدات اللازمة لقتال واقتحام الاسوار ، المتمثل بالسلالم والكلاليب ، وفي الاسفل منها أدوات ردم الخنادق المتمثل بالاحجار والاخشاب والمواد الاخرى المطلوبة في هذا الموضوع .

ان عمل هذا القلعة يمثل نمط راق من أعمال المخادعة الكبرى ، حيث أن السلطان عندما عمل قلعته كان كل همه أن تكون هذه القلعة فاتحة عهد حقيقي لاقتحام أسوار المدينة ، ولكنــــه في الوقت نفسه كان يعدها احدى أدوات الاستقطاب المخادع للقوات البيزنطية ، حيث سيكدس الامبراطور البيزنطي قواته لمواجهة هذه القلعة ، وهذا ما يجعل الاجزاء الاخرى من دفاعاته في بعض مفاصلها واهنة ، وعند ذلك يمكن للقـــــوات البرية أو البحرية من مداهمة الاسوار في مناطق معينة بسهولة نسبية تعتمد على سمك الدفاعات •

فاجأ السلطان العثماني محمد الفاتح عدوه بخدعته الجديدة ، التي غدت أحدث اختراع في وسائل الحصار ، والقتال ، فقد استيقظ أهل القسطنطينية يوم ١٤٥٣/٥/٢١ ميلادية ، فاذا بهم يرون أمامهم قلعة ضخمة شامخة من الخشب(١١) ، ومع هذا فان الجنود البيزنطيين لم يأخذهم الذهول كثيراً أمام هذه المفاجأة ، وانما تصدوا لها بكل همة ، ودار قتال عنيف بين الطرفين ، الا أن البيزنطيين تمكنوا في الاخير من حرق القلعة المذكورة ، علما بانها تمكنت من اسداء خدمة جليلة للعثمانيين ، وهي قيامهـــا بتهديم جزء من الاسوار البيزنطية وأبراجها ، وهذا ما جعل البيزنطيين يبذلون جهدا اضافيا مفروضا في ترميم الابراج والاسوار التي هدمتها القلعـــة المذكورة ، وهكذا كان حال الجندي البيزنطي يقاتل ويقوم بعملية البناء ، وهذا يمكن أن نطلق عليه تعبير «أقصى الاستنزاف» •

تذكر بعض المصادر أن عمل القلعة المذكورة لم يأخذ أكثر من يوم واحد، ومع ذلــك فاننا يمكن أن نستنتج استنتاجا مهما ، هو أن الاجهـــزة الفنية العثمانية كانت على درجة عالية من الكفاءة في تلك الحقبة من الزمن •

لم تهدأ المدفعية العثمانية خلال هـــذه المرحلة أبدا ، وانما كانت تمطر بقذائفها الاسوار بصورة دائمية ، ليل ، نهار ، ولكنها كانت تركز على ثلاثة مواضع هشة في السور البري ، وهـــذه المواضع هي كل من باب «أدرنة» ، وباب القديس «رومانوس» ، والباب «العسكري» •

خلال المدة التي أعقبت هجوم القـــلاع العثمانية ، تكشف للجميع في الجانب البيزنطي أن المعركة ، لابد أن تكون معركة خاسرة ، ولا يمكن أن ينجحوا فيها مطلقا ، بعدما تأكد لهم أن النجدات التي ينتظرونها لايمكن أن تصل اليهم مطلقا ، ولذلك فانهم كانوا يفكرون بامكانية حصول المعجزات •

لم تحصل أي معجزة البتة ، وهذا ما حدى ببطريك المدينة أن يعتزل ، كما وأشار قسم من القادة على الامبراطور بمغادرة المدينة متسللا بحرا ، الا أنه لم يوافق على هذا المقترح ، وفضل المـــوت في المدينة على مغادرتها وترك شعبه يواجه المحنة بلا قيادة •

الامبراطور أصبحت أعصابه تضعف شيئا فشيئا ، كما ان قواه أصبحت خائرة ، تنيجة لسهره المتواصل ، وتلقف الاخبار السيئة من هذا المصدر أو ذاك صحيحها وكاذبها ، وما لذلك من تأثير عليه •

الاخبار السيئة بدأت تسخن حنايا الامبراطور ، ولهذا لم يكترث كثيرا الى الاخبار التي تحمل مسحة من المواساة ، وبقي في محيط العلاقات العسكرية النمطية •

التعرض العثماني الجدي الاخير

كان محمد الفاتح يعلم علم اليقين أنه لا يتمكن من فتح القسطنطينية في يوم المعركة الاول ، ولذلك اعتقد وخطط من أجل أن يكون الفتح بعد عمليات

نفسية يمارسها تجاه البيزنطيين ، كما خطط لعمليات استنزاف الطاقات البشرية ، ومن ثم القيام بالهجوم الكاسح بوساطة قواته المنتعشة .

مما تقدم نجد ان السلطان العثماني كان هو الذي يحدد ساعة الصفر . بعد المعارك البحرية التي ذكرناها سابقا ، انتعشت القوة البحرية التركية ، بقيادة حمزة باشا ، وأحكمت حصارها البحري على المدينة بصورة تامة ، بحيث أصبحت أية سفينة تحاول نجدة المحاصرين في خطر تام ، وهو الوقوع في أيدي البحرية العثمانية ، وهذا الامر يعد عاملا مضافا يزيد من بأس المدافعين ، وتصميمهم على القتال .

ازاء هذا الموقف ، كانت هناك ثلاثة محاور للهجوم كما ذكرنا سابقا ، ولكن المحور الاساسي الذي اقتنع به السلطان العثماني محمد الفاتح ، والذي حشد معظم قواته أمامه بغية اقتحامه ، كان يتمثل بالمسلك المؤدي الى باب القديس «رومانوس» ، لانه أكثر المناطق تهدما ، وانهيارا ، وكانت الخنادق الكائنة أمامه مليئة بالانقاض ، من جراء القصف المدفعي ، ومع ذلك هناك نقطة جديرة بالملاحظة خلال هذه المرحلة ، وهي أن السلطان محمد عندما اعتزم القيام بالتعرض النهائي ، أرسل الى الامبراطور وفدا مفاوضا لتسليم المدينة بغية تجنيب أهلها الكوارث والسبي والقتل(١٢) ، كما وعده بأن يجعله حاكما على جزيرة «الموره» ، كما وخير سكان المدينة البقاء فيها بسلام ، أو الخروج منها بسلام ، وحسب رغبتهم ، ولكن الامبراطور البيزنطي المرتبك فضل الموت على ذلك ، كما أن حاشيته كان لها الرأي نفسه ، وازاء هذا الموقف اجتمع المجلس الحربي العثماني برآسة السلطان العثماني محمد الفاتح ، والذي تقرر خلاله تثبيت توقيتات الهجوم الاخير ، وكان توقيت عملية الاقتحام هو فجر يوم التاسع والعشرين من ايار ١٤٥٣ ميلادية ، على أن يشمل الهجوم جميع الاسوار البرية والبحرية ، مع التركيز على باب القديس «رومانوس» ،

المقابل لوادي ليكوس ، لانها أوهن واهش النقاط التي من الممكن ان يفلح العثمانيون في ايجاد موطىء قدم بها •

عملية الاقتحام

دقت في الساعات الاولى من يوم ٢٩ ايار ١٤٥٣ طبول العثمانيين ، وهزجت مزاميرهم ، وتعالت أصوات الابواق ، وانطلقت صيحات التضحية والفداء ، معلنة وبدون تردد أن هذا اليوم هو يوم الاقتحام الكبير ، وقد جاءت هذه الاصوات المتمازجة لتعطي ، وبما لا يقبل الشك ، الى الجانب البيزنطي الدليل على أن هذا اليوم سيكون يوما ليس كباقي الايام ، وسيكون يوما مشهودا ، وأن أيام الحصار الساخن قد انتهت لتبدأ مرحلة قتالية جديدة تختلف عن المرحلة السابقة •

أرسل السلطان العثماني محمد الفاتح في الصولة الاولى فرقة «الروميلي» ، وهي فرقة متطوعة تتكون من عناصر مختلفة ، وأراد بوساطتها أن يجس نبض البيزنطيين ، وقد هاجمت هذه الفرقة بالفعل الاسوار ، وحاولت تسلقها بالحبال والسلالم ، غير أن المدافعين كانوا لهم بالمرصاد ، فقذفوهم بالنار ، والنبال والحجارة وكل شيء يمكن أن يؤدي الى الهلاك أو الاذى •

كان السلطان يرقب بنفسه المعركة ، وكان على يقين تام من أن الفرقة المذكورة لا يمكن أن تنجز المهمة الموكولة لها ، لان المدافعين كانوا مايزالون غير متعبين بدنياً ، لذلك أبقى في يديه قوات أخرى في الاحتياط ، والغرض منها الاستمرار في زخم الهجوم ، ومع ذلك فقد أدت هذه الهجمات عن وصول بعض الجنود العثمانيين الى أعالي السور ، بيد أنهم كانوا قليلي العدد مما جعل الجانب البيزنطي يستأصلهم ، وقد أمر السلطان محمد الفاتح اثر ذلك بانسحاب هذه الفرقة لاعادة تنظيمها ، واكمال نواقصها التي دمرت أثناء القتال •

ظن البيزنطيون أنهم انتصروا ، وهذا هو نهاية المطاف ، غير أن تفكيرهم هذا لطمته حقيقة جديدة مذهلة ، وهي أن السلطان اعطى الاوامر الى فرقة أخرى جيدة بالهجوم ، وهي فرقة «الاناضول» ، وهي فرقة منتعشة ، وهذا ما حتم على البيزنطيين مضاعفة ادائهم القتالي ، لكي يتمكنوا من صدها ، ومع هذا فقد قامت هذه الفرقة بعمليات مشابهة للفرقة التي سبقتها حتى بدأ الاعياء يغترس الجانب البيزنطي ، وهنا أمر السلطان محمد الفاتح هذه الفرقة بالانسحاب أيضا ، وذلك بغية اعطاء فرصة الهجوم والظفر الاخير الى عساكره الانكشارية ، وهم أشرس ، وأقوى الجيش العثماني ، وهم يعادلون قوات الصاعقة في الوقت الحاضر ، وهكذا أطبقت قوات الانكشارية على السور في خفة عظيمة ، مصحوبة برمي مدفعي كثيف مما جعل المدافعين بين نارين ، نار المدفعية القادم من كل مكان ، وهجمات الانكشارية التي لا تهدأ .

لقد تمكن الانكشاريون من الوصـــول الى الاسوار العليا ، وأخذوا يقاتلون هناك من أجل اكتساح البيزنطيين والتدفق بعدها الى المدينة .

اذا عدنا الى الجانب البحري فسنجد أن المعركة هناك كانت لا تقل درجة في ضراوتها القتالية ، عن المعركة الجارية في الاسوار البرية ، ففي كل من بحر مرمرة ، وميناء القرن الذهبي ، كان هناك رمي مدفعي كثيف ، نجم عنه دخان وغبار غطى سماء البحر والاسوار ، وكان هذا الدخان كفيلا بأن يكون ستارا لاعمال الاقتحام من جانب البحر بوساطة السلالم والحبال ، وهكذا أصبحت الدائرة القتالية تشمل المدينة من كل أسوارها .

مهما كانت الهجمات البحرية والبرية التي تجري في هذا القاطع أو ذاك ، فان المسلك الاساسي كان هو باب «رومانوس» ، ولذلك عزز السلطان محمد الفاتح النجاح الاولي في ذلك القاطع بزج قطعات أخرى لتعزيز هذا النجاح ، وقد عبر بنفسه الخندق شخصيا ليدير عن كثب المعركة ، وفي هذه المرحلة بدأ يزج قطعات انكشارية أخرى لتوسيع الثغرة في السور .

من جراء القتال على الاسوار جرح القائد الجنوبي «جوستنيان» وقد ذهب اثر ذلك الى مركبة وتسلل خـــارج القسطنطينية ، وبذلك فقدت هذه القوات أعلى قادتها .. في أعنف مرحلة من احتدام القتال .

في القاطع الشمالي من السور كان القائد التركي «قرهجه باشا» يحاول هو الاخر الاقتحام ، وتمكن أيضا من ايجاد موطىء قدم على الاسوار المتهدمة، والتي عاجلها بهجوم عنيف نجم عنه مقتـــل القائد البيزنطي المدافع في تلك المنطقة ، مما حدا ببعض الجنود البيزنطيين ترك مواضعهم ، بعد أن يأسوا من امكانية الحفاظ عليها ، وهكـــذا أصبحت المدينة مهددة من ثغرتين ، الثغرة الاولى ثغرة «قرهجه باشا» في الشمال ، والثغرة الثانية في الوسط تحت اشراف السلطان محمد الفاتح نفسه .

اذا تتبعنا المعركة بدقة سنجد أن الثغـــرة الشمالية كانت أفضل حالا ، حيث أن «قرهجه باشا» عرف بأن الدفاعات البيزنطية الاساسية في الوسط ، وان قاطعه أقل مقاومة ، ولذلك قام بشن هجوم عنيف جدا على البيزنطيين كان من نتيجته توسيع الثغرة واكتساح الدفاعات ومن ثم وصول الجنود الى داخل المدينة ، وقد وصل الخبر المذكور الى الامبراطور البيزنطي ، فما كان منه سوى الذهاب السريـــع بنفسه نحو الشمال ، ليدقق في صحة المعلومـــات الحزينة والمذهلة في وقت واحد ، وقد رآى بأم عينيه صحة هذه المعلومات .

بعد أن تأكـــد الامبراطور البيـــزنطي من المعلومات خلـــع صداره الامبراطوري ، وأخذ يقاتل كجندي بسيط ، حتى أخذه التعب ، وعند ذلك انقض عليه الجنود العثمانيون وأردوه قتيـــلا ، وهكذا فقدت القيادة كليا للجانب البيزنطي ، وبدأت سيول الانكشارية تتدفق الى المدينة ممزقين الاعلام البيزنطية ، رافعين بدلا عنها الاعلام التركية ، ليبقى حتى الان .

وهكذا يسدل الستار على أعظم معارك الفتح والحصار في التاريخ والتي

علمتنا كيف يمكن أن تكرس المخادعة لاعمال القتال التي يكلل هامتها الظفر النهائي اذا ما استخدمت بصورة ذكية •

ما بعد المعركة

لقد تكشفت الامور على نحو واضح للجميع بعد تلك الاسابيع المضنية من الحصار وعلم الجميع بأن الاسوار كانت جد قديمة ، ولم تستطع الوقوف بوجه المدفعية التركية ، التي كان لها تأثير بالغ فيها ، كما أن الارزاق لم تكن كافية لحصار طويل الامد ، هذا ناهيك عن أن الجنود البيزنطيين كانوا قلة وخليطا من أقوام عدة ، وهم لا يكفون من الناحية العددية بالدفاع عن المدينة في ظل الظروف المذكورة •• لذلك كان هاجس الجميع ، وحتى وهم يقاتلون ، وبما فيهم الامبراطور أن النهاية الاكيدة للمعركة هي الخسران ، ولكن شرف الرجال يأبى على الاستسلام الذليل ، لان المـــوت أرحم من لطخة التي كانت ستصيبهم عبر التاريخ ، ولذلك نجـــد أن الامبراطور البيزنطي قسطنطين ، وبشموخ تام يأبى تسليم المدينة ، رغـــم العروض المغرية المقدمة له ، مفضلا الموت في ساحة الوغى •

من الطبيـــعي أن الشعور باليـأس كالذي انتاب الكثـــير من الجنود البيزنطيين ، كان كفيلا بتوليد احباط معنوي لهم ، أما النقطة الاخرى في هذا المضمار فتتمثل بالمواطنين المدنيين ، حيث انهم ، ولمسببات الاحباط نفسها ، كانوا لا يتجاوبون مع الامبراطور وكان كـــل منهم ، الا ما ندر ، يحاول أن يخفي شيئا الى يوم عبوس قادم لا محالة ، لذلك لم تكن تبرعاتهم سخية ، كما لم يكن اسنادهم قويا ، ولم يمارس الكثير منهم مبدأ نكران الذات ، وهذه الامور جميعها انعكست على الاداء القتالي البيزنطي •

ان عدم التجاوب بين المواطنين والامبراطور بالشكل المطلوب ، الذي تشكل التضحية حجر الزاوية به ، تجسد بشكل واضح بعد مقتل الامبراطور ،

حيث اندفع الكثير من سكان المدينة ، حاملين ماخف حمله ، وغلا ثمنه متوجهين نحو الميناء للابحار الى مكان اخر ، علما إن الاسطول البيزنطي هو الاخر قد فر ٠

أما في الجانب العثماني علينا أن نتصور مدينة جرى فتحها بالدماء الغزيرة وفي العام ١٤٥٣ ، وكيف ستكون عليه ، ومن قبل جنود حاصروها لمدة خمسين يوما قضوها بالاماني والاحلام ٠

الكنائس أمر السلطان محمد الفاتح أن يقلب قسم منها الى جوامع ، ومنها الكنيسة الشهيرة «ساتنا صوفيا» الذي أصبح لاحقا «أيا صوفيا» ، وقد صلى السلطان محمد الفاتح يوم الجمعة الاول من حزيران عام ١٤٥٣ ميلادية في المدينة ٠

الشيء المهم هو العثور على قبر الصحابي الجليل «أبي أيوب الانصاري» الذي رافق الحملة الاسلامية عام (٥١) هجرية ٠

هكذا أصبحت القسطنطينية عاصمة العثمانيين حتى الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨ ٠

الهوامش والمراجع

(١) الافسكي – علي حكمت بزكي – العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني – ترجمة محمد احسان عبدالعزيز – مطبعة السعادة بمصر – الطبعة السادسة ص٣٣ .

(٢) تروي المصادر أن والد محمد الفاتح قد تنازل له عن السلطنة ، الا ان هذا الوالد وهو السلطان مراد الثاني قد عاد وأخذ الحكم من ابنه نتيجة تهديد السلطنة العثمانية من قبل ملك المجر ، وذلك بعد اغراء الاخير بهذا العمل من قبل الكاردينال سيزاريني .. حيث نقض ملك المجر المعاهدة بين الدولتين .

(٣) الدكتور عبدالسلام عبدالعزيز فهمي – فتح القسطنطينية – المكتبة الثقافية – الهيئة العامة للتأليف والنشر – دار الكاتب العربي – ١٩٦٩ ص٤٠ .

(٤) المدخل في السوق والجغرافية العسكرية ، مديرية التدريب العسكري – وزارة الدفاع العراقية – بغداد – مطبعة الجيش ١٩٦٣ ص٢١١ .

(٥) فتح القسطنطينية – مصدر سابق ص٤١ .

(٦) المصدر أعلاه ص٥٤ .

(٧) برناردين كلتي – فتح القسطنطينية – ترجمة شكري محمود نديم – مكتبة النهضة بغداد – الطبعة الاولى ١٩٦٢ ص٩٠ .

(٨) تذكر الكاتبة برناردين كلتي في المصدر السابق : أن الامبراطور المفلس قسطنطين عندما أراد تصليح جزء من السور احتاج الى بعض المبالغ ، حيث كانت خزائنه خاوية ، وقد جمع ثلاثة أكياس من الذهب ، وأعطاها لراهبين ، أوكل لهما ترميم هذا الجزء ، الا أن الاكياس الثلاثة عثر عليها بعد فتح القسطنطينية لان الراهبين لم يقوما بترميم الثغرة من المبلغ المذكور، وانما رمما السور عن طريق «السخرة» للمزيد يراجع المصدر ص٩٥ .

(٩) الدكتور صالح الاشتر ، الدكتور عمر الدقاق ، الاستاذ محمد الانطاكي — معركة فتح القسطنطينية — دار الشرق العربي — بيروت لبنان — لم تذكر سنة الطبع ، الصفحات ٨٨—٨٩ ٠

(١٠) التاريخ المثبت لـــدى برناردين كلتي في كتابها المنوه عنه سابقا — فتـح القسطنطينية هو «١٢» نيسان ، أما نحن فقد اعتمدنا على القصف التمهيدي العثماني كأساس افتتاحي للمعركة ٠

(١١) فتح القسطنطينية — مصدر سابق ص٧٠ ٠

(١٢) حملت الرسالة من قبل المبعوث السلطاني «حمزة اسفنديار أوغلو» وهو صديق قديم للامبراطور ٠

معركة بيرل هاربور
البحرية الجوية
مخادعة القطعات الصديقة
تتزاوج مع
المخادعة الديلوماسية

عـــام

في هذا القرن ، وعندما حدثت معركة «بيرل هاربور» وقف العالم أجمعه متذهلا مبهورا بالعمل العسكري الجسيم ، والذي لا يمكن أن يصدقه الانسان الاعتيادي ، لانـــه عبر عن امكانيات ذهنية خارقة ، يتشابك بهـــا المعقول واللامعقول ، ومع هذا فان الحدث ، قد وقع فعلا ، وما علينا الان الا أن نفهم بدقة أبعاده الكاملة ، وأهم هذه الابعاد موضوعنا الاهم ، ألا وهو المخادعة اليابانية في ادائها السليم والرائع .

اليابان ومنذ بداية هذا القرن كانت تعد نفسها الدولة الوحيدة التي لها الحق في السيطرة على جنوب شرقي آسيا ، والمحيط الهادىء ، حيث كانت تعرف أن الاستعمار البريطاني له مناطق نفوذ كبيرة في العالم أهمها : أفريقيا والشرق الاوسط والهند ، وغيرها من دول العـــالم ، كما تعلم أن الولايات

المتحدة الامريكية بدأت تتحرك الى مناطق نفوذ معينة ، ناهيك ما تتمتع به من تقدم علمي وثروات طبيعية ، أما الاتحـــاد السوفيتي فقد نجحت لديه ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ ، مما جعل الكثير من الجمهوريات المحيطة به تنطوي تحت سماء حكمه طواعية ، ولذلك فان على اليابان هي الاخرى عليها أن تجـــد لنفسها مناطق نفوذ خاصة ، لكي تتمكن من تصريف منتجـــاتها الصناعية ، ولكي تجد أيضا المناطق الكفيلة بتأمين أمنها القومي ، ومن الطبيعي فان الامن القومي المذكور يعتمد اعتمادا كبيرا على القواعد البحرية والجوية والتسهيلات الاخرى التي تؤمنها الصين ، وفيتنام ، وكمبوديا ، والفلبين ، اذ أن الجزر اليابانية وحدها لا يمكن أن تؤمن الغاية المطلوبة لوحدها ، ولذلك بات لزاما عليها أن تجد الوسيلة الكافية لتأمين الغاية المذكورة ، وذلك ببناء قوات مسلحة قوية تتمكن من منازلة القوات المعادية ، وبما أن اليابان دولة بحرية ، لا يمكن الوصول اليها الا بحـــرا ، وعليه فان تسليحها والحالة هذه يجب أن يكون ، ويعتمد على القطع البحرية التي تشكل بمجموعها الاساطيل الضاربة أو المدافعة عن هذه الجزر على حد سواء ، علما ان هذه الاساطيل يجب أن تكون ثلاثية التسليح فهي يجب أن تتمكن من حمل الطائرات ، وأن تحتوي على قوة انزال ، وأخـــيرا أن تتمكن بوساطة اسناد هذه القـــوات بالمدفعية والصواريخ .

مما تقدم أصبح لليابان حاملات طائرات تحتوي على الكثير من الطائرات المقاتلة التي تعمل في المحيط الهادىء ، وغيره .

المعاهدات الدولية قد حددت ، أو بعبارة أخرى ، قد كبلت اليابان في النمو السريع في هذا المضمار ، حيث ان اتفاقيـــة واشنطن في عام (١٩٢٤) قد أعطت لليابان الحق في بناء ثلاث سفن كبـــيرة ، مقابل خمس سفن للمملكة المتحدة ، وخمس سفن أخرى للولايات المتحدة الامريكية ، ومع ذلك ، وعندما تربع «هتلر» على سدة الحكم في ألمانيا ، وكسر طوق التسليح المفروض عليه

من قبل الحلفاء ، بادر اليابانيون بدورهم الى كسر هذا الطوق المفروض عليهم، وأصبح لديهم عشر حاملات للطائرات ، وهذه تعد قوة في المحيط الهادىء لا تضاهيها قوة الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا في ذلك الحين ، وعلى أية حال فان : «التوسعات الامبريالية اليابانية اتجهت الى الصين في عام (١٩٣١) حيث هاجمت منشوريا واحتلتها ثم هاجمت بقية الاراضي عام (١٩٣٧)»[١] .

تمكن اليابانيون من احتلال معظم الموانىء الصينية ، الا أنهم لم يتمكنوا من احتلال شمالي الصين ، لان الصين دولة ، وكما يعرفها الجميع ، مترامية الإطراف ، يسكنها في ذلك الحين ما يقارب من (٦٢٠) مليون نسمة ، وهذا وحده كفيل بأن يجلب الصراع لاي قوة تحاول السيطرة على جميع أراضيها ، مع ادارتها بشكل نموذجي ، بحيث يكـــون الشعب الصيني خانعا الى درجة الاستجابة الذليلة للحاكم الياباني .

لم يكتف اليابانيـــون بمحاولاتهم السابقة للاســـتيلاء على الاراضي الصينية ، لذلك أرادوا تعزيزها في أمكنة أخـــرى ، وقد حاولوا عام ١٩٣٩ احتلال اجزاء من «منغوليا» ، غير أن الجيوش الروسية تصدت لهذا الهجوم ، وأرجعت اليابانيين الى قواعدهم الاولى ، وهنا علينا أن نستنتج استنتاجا مهما ومبكرا في هذه الصدد وهو أن اليابانيين بهـــذه الاعمال غير المركزة أضعفوا أنفسهم في بعض المناطق ، حيث لايعقل ، ولايبدو منطقيا أن يسيطر اليابانيون، وهم قلـــة على الصين الشاسعة العملاقة ، وان حدث مثل هـــذا بالنسبة الى بريطانيا والهند ، فذاك عهد ، والقرن العشرون عهد آخر ، هذا اذا ما علمنا ان الصين في هذه المرحلة لم تكن عـــزلاء ، وكانت «تأخذ أسلحتها من الولايات المتحدة الامريكية عبر بورما»[٢] ، فضلا عن أن «ماوتسي تونغ» كان ينظم الجيش الاحمر الصيني ، من أجل الحصول على الاستقلال الكامل للصين ، ولهذا نجد الجيش الياباني كان كثيرا ما يصطدم بالانصار ، ويعطي الخسائر ، التي بدأت تشكل عملية تآكل مستمرة في قواته المحتلة .

في خضم هذه الاحداث دقت نواقيس الحرب العالمية الثانية لتعلن عن اكتساح خاطف من قبل الالمان لكل من فرنسا وبلجيكا ، ومحاصرة الجيوش البريطانية وفلول الجيش الفرنسي في منطقــــة «دنكرك» ، وقد أدهش هذا العمل العسكري الحاسم والسريع العالم ، بيد أن اليابانيين كانوا أكثر انبهارا من غيرهم على هذا الانجاز الذي يمثل قمة الروعة والاداء في العمل العسكري، ولذلك نجد أن هذا العمل قد أعطاهم ، وولد لديهم شعورا بامكانية السيطرة على المحيط الهندي وعلى أساس أنهم لايقلون شأنا عن ألمانيا ، وقد رأسهم في خلق هذا الشعور وتعزيزه معاهدة عسكريـــة وقعت في تموز عام ١٩٤٢ مع حكومة «فيشي» الفرنسية ، أعطت لهم الحق بتأسيس قواعد جوية في الهند الصينية ، وبذلك فان مستعمرات بريطانية مثل «بورما» ، والجزر الاندونسية قد أصبحت تحت المباشر للطائرات اليابانية •

كانت بريطانيا في تلك المرحلة مشغولة في حربها مع الالمان والايطاليين في أوربا ، وشمال أفريقيا ، وكان اسطولها في حالة صراع مستمر مع الاسطول الالماني في المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط ، ولهذا لم يعط اليابانيون أهمية لهذا الاسطول ، ولذلك فان تفكيرهم مستقطبا بصورة كلية من قبل الاسطول الامريكي في المحيط الهادىء والذي يمكن أن يكون ندا قويا لهم ، ويمنعهم من تمرير مخططهم بالاستيلاء على دول جنوبي شرقي آسيا برمتها ، أو بعضها ، وخلق واقع استعماري لا يمكن تغيره بسهولة ، ومن المحتمل أن تكون المفاوضات هي الاساس في العملية ، وهذا يعني امكانية المساومة في القضية المذكورة •

كان التفكير الجدي في تدمير الاسطول الامريكي يدور بخلد الاميرال «ياماماتو» بعد أن تولى منصب قائد القوة البحرية اليابانية ، وبالتحديد بدأ هذا التفكير في شهر آب عام ١٩٤٨ •

كان من تنتيجة تفكير الاميرال البحـــري «ياماماتو» ، أن يضع الهدف

الاول الذي يجب مهاجمته ، وكان هـــذا الهدف المنكوب هو ميناء «بيرل هاربور» الامريكي الواقع في جزر «هاواي» السياحية ، والتي تعد عاصمتها « هونولولو » قبلة للسياح الامريكان وغيرهم ، غير أن هذه الجزر كانت في عرض المحيط الهادىء وتبعد الكثير عن القواعد العسكرية اليابانية ، حيث تربو المســافة بينهما على (٥٦٠٠) كيلو متــرا ، كما انها تبعــد عن «سان فرانسسكو» في الولايات المتحدة الامريكية بمسافة تربو على (٣٥٠٠) كيلو متر ، وهي مسافة بعيدة •

لقد اختار «ياماماتو» بيرل هاربور ، لانها تمثل القاعدة الرئيسة لبحرية الولايات المتحدة الامريكية في المحيط الهادىء •

كان التفكير السائد ، أو المتعارف عليه أن هذا الميناء لا يمكن الوصول اليه بسهولة ، وان أي تقرب من قبل اليابانيين ، لابد وأن يكشف مهما كانت الاجراءات المتخذة من قبلهم ، لان المسافة الطويلة المذكورة سابقا ستعطي الفرص لعمليــات الكشف السهلة سواء جرى التقرب بالقطع البحريــة أو بالطائرات ، وسيسهل الامر جدا اذا جرى التقرب من الجزيرة بكثافة ، أما اذا جرى التقرب بأعداد صغيرة فانه لن يكون مؤثرا وفعالا ، وتمكن السيطرة عليه •

مما تقــدم نجد أن التفكير الامريكي كان يتبرقع بالاطمئنــان الزائد الزائف ، والذي أثبتت الوقائع اللاحقة عكسه ، ومع ذلك فعلينا أن لا ننكر كليا ان التفكير الامريكي كان يقترب من الحقيقة عبر تلك الظروف ، الا أن النقطة التي يحاسب عليها هي انه لم يأخذ بمبدأ «أسوأ الاحتمالات» ، الذي لا غنى عنه لأي مفكر عسكري •

ان التفكير بالهجوم على هذا الميناء ، كان ولابد ، من أن يعتمد على خطة جريئة عزومة ، يتكامل خلالها عنصران أساسيان ، هما التفكير بحدوث خسائر

محسوبة ، والابحار مسافات طويلة قـــد يعرض القوة المهاجمة الى غارات جوية ، فضلا عن امكانية حدوث تقاطع بحري مع القوات البحرية الامريكية والالتحام بمعركة لا يمكن التكهن بنتائجها بصورة كاملة

ان من فتح باب تنفيذ عملية «بيرل هاربور» كان هو الولايات المتحدة الامريكية ، حيث قامت في شهر تموز عام ١٩٤١ باتخاذ اجراء عدواني ضد اليابان يتمثل بمنع تصدير النفط اليها ، وكان النفط هو الذي يدير ماكنتها الحربية في كل من الصين والهند الصينية ، ومع ذلك بادرت اليابان الى ارسال وفد الى الولايات المتحدة الامريكية بشأن التفاوض معها للوصول الى حلول معينة للازمة ، مع الاخذ بعين الاعتبار عدم نسيان المسلك الثاني وهو تنفيذ الخطة العسكرية البحرية الطموحة بتدمير معظم الاسطول الامريكي في «بيرل هاربور» .

كان الوفد المفاوض الياباني خير عون على تمرير خطة المخادعة العسكرية اليابانية ، اذ انه ، ومن دون أن يدري ، قام بعملية مخادعة سوقية .

أن بقاء الوفد الياباني في الولايات المتحدة الامريكية مدة أطول هو بقاء مخطط له ، وقد أعطى هذا العمل انطباعا عميقا للامريكان ، وهو أن من يأتي للتفاوض ، وبهذه الشاكلة المتهالكة ، لابد من انه ضعيف ، ولا ينوي الدخول في الحرب بسرعة .

التهيؤ للمعركة

لابد من الاشارة هنا ، أن التهيؤ للمعركة كان احادي الجانب بشكل أو بآخر ، اذ ان التفكير بالهجوم كان مجرد تفكير ياباني أولا وأخيرا ، ولم يدر بخلد الولايات المتحدة الامريكية أن تبدأ الهجوم على اليابان الا اذا ما قامت الاخيرة في الهجوم ، وان جل التفكير الامريكي كان يتمثل بتدابير الدفاع

التي يجب اتخاذها عند تأزم الموقف ، مع عدم نسيان هذه التدابير الوقائية وقت السلم •

ان درجات الانذار في الحرب تختلف عنها في السلم ، وعليه فان الولايات المتحدة الامريكية في المحيط الهادىء وفي جزر هاواي ، وبالذات في القاعدة الجوية والقاعدة البحرية في «بيرل هاربور» لم تكن في حالة تأهب قصوى ، بينما نجد في الجانب الياباني أن فكرة الهجوم قـــد استفحلت في فكر القائد البحري «ياماماتو» بعد أن كانت معشعشة فيـــه بهدوء لمدة طويلة تربو على سنتين ، وتحديدا منذ عام ١٩٣٩ وحتى العـــام ١٩٤١ ، وربما كانت تراوده الفكرة المذكورة قبل هذا التأريخ ، ولكنها ألقت النقاب عن نفسها ، وتنفست الصعداء عندما استلم «ياماماتو» قيادة القوة البحرية اليابانية •

لقد بقيت الفكرة المذكورة في فكر هذا القائد ، ولم يبح بها لأي أحد على الرغم من الحياة دبت فيها كما ذكرنا ، ولكن للضرورة أحكام •

القائد البحري الياباني «ياماماتو» كـــان يحتفظ في مكتبه بالخرائط الكثيرة ، الا أن الخارطة التي كان يدرسها بدقة متناهية ، ويعطيها الاهتمام الخاص المتسم بالجدية الحادة هي الخارطة المتعلقة بـ«بيرل هاربور» ، وكان يؤشر على هذه الخارطة كل المعلومات التي من شأنها أن تتدخل في الخطة التي سينفذها في المستقبل ، ولذلك فقد سخر مصادر الاستخبارات للوصول الى أجدث المعلومات عن الجزيرة ، سواء كانت هـــذه المعلومات جغرافية ، أو عسكرية صرفة ، كالارصفة ، ومدفعية مقاومة الطائرات ، والطائرات الموجودة فيها والسفن ، وأنواعها الى غير ذلك من أمور ، هذا فضلا عن دراسته لأحوال الطقس الذي يسود هذه المنطقة الحيوية على مدار أيام السنة •

لقد بقيت مسألة مهاجمة «بيرل هاربور» تؤرق الاميرال البحري «ياما ماتو» كثيرا ، حيث كان عليه أن يقلب فكرتـــه حول الموضوع الى مفردات

عسكرية وهذه المفردات تنقلب بمجموعها الى تقـــدير موقف ينجم عنه خطة متكاملة يعقبها تنفيذ على وفق جدول زمني دقيق من قبل الاسطول البحري في الوقت المناسب ، وبما أنه لا يتمكن بمفـــرده أن يضع خطة متكاملة ، لانها تحتاج وقتا طويلا واستشارة ، وكتابـــة لا يمكن أن يقوم بها لوحده لمشاغله الوظيفية ، ولذلك صارح رئيس أركانه بفكرته في كانون الاول من عام ١٩٤١، لكي يســـاعده في تنفيذ الفكرة المطروحة بعد أن يقوم باختيار هيئـــة ركن مؤتمنة جـــدا للتخطيط للعملية البحرية القادمة الهائلة ، وقد أطلـــق الاسم الرمزي «زد» على مجمل العملية منذ البداية .

كما ان التهيؤ للمعركة يجب أن يتم باسرع ما يمكن ، حيث كان يجب استغلال الظروف الموضوعية في تلك المرحلة بالذات ، لانها كانت ظروف في صالح اليابان ، ومن الطبيعي أن هذه الظروف كانت خاضعة للتغير على وفق مجريات الحرب في أفريقيا وأوربا ، وعلى الاخص في الجبهة السوفيتية .

الموقف عموما كان مغريا لليابانيين ، فالولايات المتحدة الامريكية كانت في حالة مخاض لولادة قراراتها القدرية ، إذ انها وحتى الآن لم تكـــن لديها وضوح رؤيا في هذه القرارات والمتعلقة بالحرب ، أما بريطانيا فكانت مشغولة في صراعها المرير مع ألمانيا الى الحـــد الذي لا يجعلها تفكر جديا في المحيط الهادىء ، أمـــا الاتحاد السوفيتي فكان لا يمكن أن يشكل أي تهـــديد على اليابان ، اذ انه اشتبك فعلا مع ألمانيا النازية ، بعد أن نقضت ألمانيا المواثيق المبرمة معه ، واكتسحت جيوشها بحـــركة مباغتة حدوده الدولية وتوغلت في أرجاء كبيرة منه ، ولذلك كانت جميع الظروف آنذاك تشير الى وجود المناخ الملائم للعملية ، فيما اذا أتقنت الخطة ، وردمت جميع الثغرات التي يمكن أن تصادف العملية خلال التطبيق العملي .

كان على الامـــيرال البحري «ياماماتو» أن يضمن أقصى درجـــات الاستعداد المتقن لقواته لهذه العملية الكبـــيرة ، والتي ستتوقف على نتائجها

الحرب في المحيط الهادئ لمدة غير نهائية ، ولكنها طويلة نسبيا ، لذلك درس الخارطة اليابانية دراسة دقيقة، لايجاد المكان المناسب للتدريب والاستعدادات، فوجد أن هذا المكان الذي يمكن أن تجـــرى عليه تدريبات مماثلة للهجوم المرتقب على «بيرل هاربور» هو منطقة بالقرب من خليج «تانكان» حيث كانت الجزر في تلك المنطقة تشابه الجزر في «هاواي» ، وقد قام بمخادعة قواته نفسها حيث لم يخبرها عن الواجب المرتقب بصراحة ، وانما موه الموضوع عليها ٠

المخادعة للقوات اليابانية

عندما تقدمت القوات البحرية اليابانية لاجراء التدريبات في تلك الجزر، لم يدر بخلدها أن هذه التدريبات الهـــدف منها هو الهجوم على ميناء بيرل هاربور ، لان هذا الميناء كان لا يمكن أن يعقل على أنه هدف الهجوم حتى من قبل البحارة والطيارين اليابانيين ، وذلك لبعده عن اليابان ، ولذلك وكاستنتاج فان القوة اليابانية نفسها كانت تستبعد هذا المسلك ، وكانت تقع دائماً في دائرة التكهنات غير المنتهية من الغاية التي يجري تدريبهم عليها ، وذلك عندما كانت تدور حلقات النقاش حول مغزى اجرائهم للتدريب في هذه الجزر ٠

ان الولايات المتحدة عندما قطعت النفط عن اليابان كانت الآراء تدور حول جدوى الهجوم على جزر الفلبين لتأمين تدفق النفط ثانية ، ولذلك فان أحد الافكار المتسيدة على تفكير تلك القوة هو أن مغزى هذا التدريب يمكن أن يشير الى أن الغاية هي جزر الفلبين ، وربما الصين ، أو فرموزا في أقل تقدير أو أي مكان آخر غير ميناء «بيرل هاربور» ٠

لقد كان الصمت الذي يحمله الاميرال «ياماماتو» في ذاكرته يمثل خديعة كبرى لقواته ، ومع ذلك فهذا الصمت وعـــدم البوح كان في صالح القوات البحرية اليابانية ، حيث أن أي اشـــارة ولو كانت عفوية الى الجواب المقبل ستكشف الموضوع ، وستقلب الامور ، ولكن الجانب الياباني قد تكبد أفدح

الخسائر في المعدات والبشر ، ولكان الشعب الياباني ينوح عليها الان ، كما ينوح على مدينتي «ناكازاكي» و «هيروشيما» اليابانيتين التي راحتا ضحية قصفهما بالقنابل الذرية الامريكية •

ان مما عزز رأي القوات اليابانيـــة من أن الواجب المقبل لايمكن أن يؤدي الى مواجهة الولايات المتحدة الامريكيـــة في ميناء «بيرل هاربور» ، سيما وان حربا بين البلدين لم تكن معلنة حتى تلك الايام ، فضلا عن وجود وفد يابـــاني يفاوض في الولايات المتحدة الامريكية ، وحتى لحظـــة اقلاع الاسطول من أماكن وجوده في اليابان ، وتوجهه لتنفيذ الواجب •

استحضارات أخرى

سخر جزء من الصناعات الحربية من أجل انتاج ، واختراع متطلبات معينة لتنفيذ الخطة ، ومن بين هـــذه المتطلبات اختراع قنابل خاصة بامكانها أختراق درع حاملات الطائرات والبوارج ، حيث كان الدرع السميك ومايزال يعد من مكونات هذه السفن العملاقة ، وبالفعل اتجهت الماكنة الحربية اليابانية لتصنيع نوع من القنابل تتمكن من معالجة الدروع السميكة ، ومن البديهي أن هذ ه القنابل كان على الطائرات المهاجمة أن تحملها ، وهذه الطائرات يجب أن تكون طائرات قاصفة ، اذ ان حمولة هـــذه الطائرات ، قطعا ، أعلى من حمولة الطائرات المقاتلة •

السفن الاخرى كالبوارج الراســـية بعيدا عن الميناء بمسافة نسبية فان أفضل شيء لمعالجتها هو الطوربيدات ، والتي كان عليها أن لا تغطس كثيرا في المياه ، لمعالجة أهدافها ، حيث أن المياه في تلك المنطقة تعد مياه ضحلة ، وعليه فان الطوربيدات المطلوبة كان يجب أن يكون لها امكانيات طوفان سريعة •

تمكنت الصناعة من تأمين الطوربيدات المطلوبـــة ، وأصبح كل شيء جاهزا •

لم يكتف اليابانيون من كل الانجازات المذكورة ، وانما قاموا بعمل نماذج للسفن الامريكية ، ومن ثم الرمي عليها بوساطة الطوربيدات التي لا تحمل رؤوسا حربية ، من مسافة خمسمائة متر .

دلت التدريبات التي أجراها اليابانيون على أنهم أتقنوا العمل المذكور ، وليس أمامهم الا القيام بالقصف الحقيقي بالطوربيدات التي تحمل الرؤوس الحربية .

اذا أردنا الوقوف على أعمال واستحضارات الطائرات القاصفة ، فقد كان هناك تدريب منوع ، الاول هو القصف على سفن واقفة ، والثاني القصف على السفن وهي في حالة حركة .

لقد برع الطيارون اليابانيون ، وأحـــرزوا علامات تؤهلهم على تنفيذ الواجب المذكور بكل دقة وفن طيراني قتالي .

الطائرات المقاتلة المخصصة للهجمات الارضية ، تم تدريب طياريها على الكيفية التي بموجبها يمكن أن يوقعون أكبر الخسائر بالطائرات الامريكية المتواجدة على حاملات الطائرات ، أو الرابضـــة في مطار بيرل هاربور ، أو المطارات الموجودة في الجزيرة الرئيســـة ، وقد كانت نتائج الطيارين في كل الاحوال جيدة ، هذا ، فضلا عن أن كل هذه التدريبات كانت تتم من حاملات الطائرات ، وهكذا تم تدريب الطيارين اليابانيين على الاقلاع والهبوط من حاملات الطائرات بكل سهولة وبذلك اختزلوا بعض الصعاب ، كما أعطت هذه التدريبات المكثفة الثقة للطيـــارين بأنفسهم عند الاقلاع والهبوط من الحاملات ، علما بان الاقلاع والهبوط على حاملات الطائرات يعد أمرا صعبا وخصوصا في الاجواء الرديئة .

في الجانب البحري ، ومن ضمن الاستعدادات ، والاستحضارات هو «اعداد مجموعة من الغواصات الصـــغيرة (غواصات الجيب) التي ستحملها

الغواصات الكبيرة الى قرب بيرل هاربور لتطلقها من هناك ، حيث تتسلل الى داخل الميناء ، وتهاجم السفن الراسية فيه بالطوربيدات ، أثناء الغارة الجوية ، أو بعدها ، علماً بأن غواصة الجيب تزن (٤٦) طناً ويبلغ طولها (٧٨) قدماً ونصف ، ومجهزة بمحرك كهربائي قوته (٦٠٠) حصان ، وتبلغ سرعتها القصوى (٢٣) عقدة ، وهي مسلحة بطوربيدين»[٣] •

جغرافية ميدان المعركة

لو أمعنا النظر في خريطة العالم ، سنجد أن جزيرة هاواي ، وعاصمتها «هونولولو» تقع في المحيط الهادىء ، ولا يمكن لأي انسان أن يفكر بها حتى للاصطياف ، أو للسياحة ، فهي معزولة في هذا اليم العظيم ، ولا يمكن لأي انسان أيضا أن يصل اليها لغرض عسكري في العصور السالفة ، الا أن التقدم العلمي وانبثاق الاساطيل العملاقة في القرن العشرين جعلها ذات أهمية «استراتيجية» سوقية •

الجزيرة فضلا عما تقدم ليس بها أي جدوى اقتصادي ، لكي تتطلع لها أعين الاستعمار سابقاً ، وقد بينا فيما مضى كم تبعد هذه الجزر عن كل من اليابان والولايات المتحدة الامريكية ، ومع ذلك فان الصراع على الشرق الاقصى ، والمحيط الهادىء جعل لبعض الجزر الصغيرة أهمية سوقية من وجهة النظر البحرية والجوية ، لانها ضمن موقعها تمثل محطات استراحة ، وقواعد يمكن أن تنطلق منها القوات المسلحة للسيطرة على المحيط بالكامل ، أو جزء منه ، والدول المتواجدة فيه ، كما انها ستقرب أواصر الربط بين الولايات المتحدة الامريكية ودولا أخرى مثل الفلبين ، وأندونسيا ، والهند الصينية ، وغيرها ، ولذلك بادرت الولايات المتحدة الامريكية الى احتلال هذه الجزر ، وتحويلها الى قواعد بحرية وجوية بوساطتها تتمكن من فرض بعض السيطرة على هذا المحيط الكبير ، أو في أقل تقدير تشكيل حزام حول اليابان تقيهم من

ضربات يابانية مفاجئة ، وبذلك يحققون جزءا من أمنهم القومي الناتج عن التهديد الياباني •

الجزر التي نحن بصددها هي جزر «الويشنان» والمتكونة من «دتش هاربور» و «كيسنا» و «هواي» الذي يقع عليها ميناء بيرل هاربور ، ومطاره الجوي ، فضلا عن جزيرة «ويك» وجزيرة «غوام»[٤] ، وهذه الجزر كلها تعد صغيرة •

ان جزر هاواي هي المفتاح الذي بوساطته يتمكن اليابانيون من الوثوب الى كل من الفلبين ، وأندونسيا ، ومع ذلـــك فان ما يهمنا هو جزر هاواي ، وجغرافيتها العسكرية بالذات لكي تتمكن من أن نتصور الكيفية التي قام بها الطيران الياباني بالهجوم ، وكيف قدر له النجاح في ظل تلك الظروف ، وما هو مكان المخادعة بالنسبة للعملية ككل •

الجزيرة عموما صغيرة[٥] ، الا أن ميناءها البحري له وضع استثنائي يعد فريدا بين موانىء العالم ، فهذا الميناء تقع أمامه جزيرة صغيرة جدا هي جزيرة «فورد» ، ولذلك فان التقرب اليه يتم من ممر مائي ضيق ، لا يتسع لأعداد كبيرة من السفن النفاذ منه في وقت واحد ، هذا علاوة على أن الغطس في هذا الممر غـــير عميق الا انه يعد مقبـــولا ولكن في الحدود الدنيـــا ، ولذلك وكاستنتاج مما تقدم ذكره نجـــد أن الاسطول الامريكي اذا أراد التحرك والخروج من هذا الميناء لأغراض الانتشار فسيجابه صعوبة بالغة بالرحيل مرة واحدة ، وان على السفن أن تخرج بصورة منفردة الواحدة تلو الاخرى الى عرض البحر ، وهذا يأخذ وقتا طويلا ، وبذلك تتمكن الطائرات المغيرة من معالجة السفن البحرية وهي مجتمعة أو في الرتل بكل سهولة ، وقبل أن تتاح لها فرصة الانتشار في المحيط •

الميناء لا يستوعب سفنا كثيرة ، ومع ذلك فقد كدس الامريكان سفنهم به وفوق حدود الاستيعاب ، ومع ذلك ومن باب الاحتراز كان على الولايات

المتحدة الامريكية أن تقوي دفاعها الجوي في هذا الميناء ، وان تعتمد كذلك على أسلوب الدوريات الجوية الطائرة للاخبار عن أي تهديد جوي قادم من أية جهة كانت ، كما كان عليها ، وللموقع الجغرافي الفريد للميناء ، أن يكون لها دوريات بحرية أيضا ، وعلى أية حال فان الجزيرة كانت تشمل على بعض المطارات ، وهي أولا مطار «أيوا» ويقع في الجنوب الغربي منها ، وثانيا مطار «بيرل هاربور» وهو المطار الرئيس ويقع في الوسط ، وثالثا مطار «هيكام» ويقع في الشرق ورابعا مطار «كانيوهي» أو «كينوه» ويقع في شرق الجزيرة وعلى شاطئها ، وخامسا مطار «ديلر» ويقع في منتصف الجزيرة ، وسادسا مطار «بيللوز» ويقع في الجنوب الشرقي .

مما تقدم نجد أن المطارات قد توزعت على كل الجزيرة ، ولكنها في الوقت نفسه تركز ثلاث منها في منطقة ميناء «بيرل هاربور» .

ان وقوع ثلاثة مطارات في منطقة واحدة شبه متلاصقة تتيح للطائرات المعادية المغيرة فرصة الاستمكان الامثل ، حيث أن الطيار اذا اخطأ في المطار الاول ولم يتمكن من استمكانه يمكن أن يعالج المطار الثاني أو الثالث ، وبذلك ستكون هناك فرصا ملاحية أكبر للوصول الي هذه المطارات ، ومن الطبيعي اننا نتكلم الآن عن الاجهزة الملاحية قبل خمسين عام ، وليس الاجهزة الملاحية الحديثة التي تقودك وبدقة الى أي نقطة في العالم .

اذا عدنا الى الوضع الجغرافي البحري ، فسنجد ان الممر الوحيد للميناء كان يمكن أن يتيح فرصا اضـــافية لأي اسطول يحاول أن يفرض حالة من الحصار على القطع البحرية الامريكية المتواجدة هناك ، اذ انها ستكون في حالة تكدس ، وبذلك تفقد المناورة المطلوبة للقتال ، بينما نرى أن الاسطول القائم بالحصار منتشر في عرض البحر ، وهذا ما يتيح له أن يعالج الاسطول المحاصر من كل الجهات ، ويكثف ضرباته المدفعيـــة في دائرة ضيقة ، أما الاسطول المحاصر فلا يتمكن من حرية العمل ، وعند مشاغلته للاسطول المحاصر عليه أن

يعالجه بدائرة كبيرة قدرها (٣٦٠°) ، ومن الطبيعي أن هذا الرمي قد يكون فاقدا دقة الاصابة .



خارطة تبين جزيرة فورد والمناطق المحيطة بها
حيث كان الاسطول الامريكي
منتشرا عند الغارة اليابانية ..

الخطة اليابانية

الخطة اليابانية كانت تتضمن التعاون الفعال بين كل من الطائرات والسفن الحربية ، حيث ستكون الطائرات هي الاذرع الطويلة التي تقوم بمهمة تدمير طائرات ، وسفن ، وحاملات الطائرات المتواجدة في جزيرة «هاواي» وكذلك ميناء «بيرل هاربور» والعائدة الى الولايات المتحدة الامريكية •

السفن اليابانية سيكون لديها مهمتان ، المهمة الاولى هي ايصال الطائرات على متن حاملات الطائرات الى أقرب نقطة تتمكن منها الطائرات بالاقلاع والتوجه الى أهدافها والعودة ، من دون احراج في الوقود ، أما المهمة الاخرى لهذه السفن كانت حماية حاملات الطائرات من أي تعرض بحري معاد خلال رحلة التقرب الى ميناء «بيرل هاربور» ، والمطارات الامريكية الاخرى •

القسم الثاني من الخطة يتضمن المسلك الاقل أهمية ، حيث يعد المسلك المساعد ، وهو يتمثل بمهاجمة السفن الراسية في الميناء بواسطة «غواصات الجيب» المنوه عنها سابقا والتي ستتقاسم المهمة مع الطائرات التي خصصت لها الاهداف بدقة ، حيث أعطيت كل مجموعة أو تشكيل من الطائرات هدفا معينا عليها أن تشاغله وتقوم بتدميره ، على أن يصاحب كل العملية المذكورة منذ بدء تنفيذها وحتى وصول الطائرات الى أهدافها صمت لاسلكي رهيب ، لا يقطع لأي سبب كان •

كان من ضمن الخطة ، ولاغراض أمنيـــة تتعلق بالسابلة البحرية هو ارسال ضابطين بحريين الى ميـنـــاء «هونولولو» بالألبسة المدنية ، وعلى متن السفن التجارية على أن يقوما بسلوك الطـــريق الشمالي ، وبالفعل قام هذان الضابطان بالابحار في هذا الطريق البحري غير المطروق ، فوجدا أن الطريق المذكور لا تسلكه السابلة العسكرية ، حيث لم يصادفا في طريقهما أية قطعة بحرية ، سواء أكانت هذه القطع تعود الى بحرية الولايات المتحدة الامريكية ،

أم غيرها من الدول ، وهكذا تأكـــدا أن السفن اليابانية التي ستسلك هذا الطريق سوف تكون لها فرصا كبيرة في عدم الكشف، أو بعبارة أخرى ستكون امكانية كشفها أقل من سلوكها مقتربات أخرى ، وبذلك فانها يمكن أن تحقق المباغتة فيمـــا اذا أستخدمت عوامل أخرى تساعد على ذلـــك ، كالمخادعة ، والصمت اللاسلكي .

الخطة اليابانية عموما خطة مشـــتركة ، للطائرات البحرية ولبقية قطع الاسطول ، علما بان الطائرات المنفذة ستعتمد أساسا على المدى الذي يؤهلها للتقرب والعودة من أهدافها ، وهكـــذا على الطائرات أن تقلع من حاملات الطائرات ومن ثم معالجة الاهداف والعودة ، الى الحاملات ثانية .

لقد جرت موازنة جميع العوامل بالنسبة للطائرات ، فوجدوا ان المسافة الملائمة للاقلاع من حاملات الطائرات هي (٣٦٨) كيلومترا[٦] . ومن الطبيعي أن هذه المسافة حتى بعد أن يكشف أمر الحركة يعد مقبولا ، اذ انها تتمكن من العودة سالمة من دون اشتباك مع البحرية الأمريكية فيما اذا فكر الامريكان بالمطاردة .

المسافة من اليابان الى جزيرة هاواي طويلة جدا ، ولذلك كانت الخطة وفي أحد جوانبها تتطلب دعما اداريا يتمثل في جزء منه باملاء الوقود في عرض البحر ، وهكذا خصصت بعض السفن لهذا الواجب .

كانت الخطة تتضمن الاغارة على القاعـــدة والجزيرة والمطارات بثلاث موجات جوية ، يتم خلالها معالجة الاسطول الامريكي ، والطائرات ، وحاملات الطائرات ، وبعض المرافق الحيوية داخل الميناء .

يجب أن يكون اقلاع الطائرات لاداء مهمتها عند الضياء الاول ، حيث أن الطيران الليلي ، في تلك الفترة من سطح حاملات الطائرات يعد أمرا محفوفا بالمخاطر ، حيث لم تكن الاجهزة الفنية للاقلاع والهبوط ذات كفاءة عالية

كما هو موجود حاليا ، فضلا عن أن الطائرات في الاربعينات لم تكن متطورة كما هي عليه الآن ، ولذلك كان هذا التوقيت أنسب التوقيتات للمهمة •

كانت البحرية اليابانية وفيرة وهي تتمثل في العام ١٩٤١ بـ «احدى عشرة بارجة ، وعشر حاملات للطائرات ، وثمانيةعشر طرادا ثقيلا وخفيفا ، ومائة وثلاثعشرة مدمرة ، وثلاث وستين غواصة»(٧) •

كان على اليابانيين أن يفرزوا قسما من القوة المذكورة سابقا بغية اجراء العملية وابقاء القسم الاخر لاغراض الاحتياط والدفاع عن اليابان ، وحسب نظرية أسوأ الاحتمالات وامكانية تعرض الجزر اليابانية للخطر •

الولايات المتحدة الامريكية كان لديها «سبعة عشر بارجة ، وخمس حاملات للطائرات ، وثمانية عشر طرادا ثقيلا ، وتسعة عشر طرادا خفيفا ، ومائة وسبعون مدمرة ، ومائة غواصة »(٨) ، علما بأن الكثير من القطع المذكورة كان يشارك في حضوره المتميز في المحيط الاطلسي ، وبذلك فان التواجد الامريكي في المحيط الهادىء لم يكن في زخمه الكامل ، هذا فضلا عن أن التفوق كان واضحا بالنسبة لحاملات الطائرات ، حيث لمسنا أن اليابانيين كانوا يملكون الضعف ، وهذا يعني أن عدد الطائرات التي يمكن أن يوجهها اليابانيون نحو الجزيرة سيكون كبيرا لانها جاءت من عشر حاملات للطائرات ، وهي أكثر من الاعداد التي يتمكن الامريكان من تأمينها ، فيما لو فكروا باعادة الضربة كانتقام مباشر على ضرب اليابانيين لقاعدة بيرل هاربور •

التوقيتات اليابانية للخطة كانت ذكية جدا ، حيث اختار اليابانيون يوم الاحد لضرب أهدافهم ، ويوم الأحد كما هو معروف هو يوم عطلة يسترخي خلاله الجنود المتعبون بعد اسبوع من التدريب والعمل ، ومن الطبيعي أن تكون الليلة التي تسبقه ليلة مرح وسهر ، ولذلك فان الاستيقاظ الصباحي لن يكون مبكرا ، وسيكون الضحى هو الوقت الذي يبدأ به الافطار ، عدا

أولائك الذين تلقى على عاتقهم الواجبـات الرسمية ، ومن هنا فان اليابانيين بالتوقيت المبكر لخطتهم أضافوا عنصرا آخر من عناصر النجاح لتنفيذ خطتهم الطموحة .

قد يسأل المرء سؤالا حول جدوى قيام اليابانيين بتدمير الميناء والطائرات والاسطول ، والسفن الاخرى ... وللاجابة على ذلك يوجد شقان هما أولا لكي يتمكنوا لاحقا من احتلال دول أخرى ، وثانيا لتعطيل البحرية الامريكية في تلك المنطقة وعدم امكانيتها الوقوف على أرجلها لمدة طويلة ، اذ ان «اليابان لا تجهل أن الولايات المتحدة الامريكية ستعوض سفنها المدمرة بأعداد أكبر ونوعيات أحدث ، ولكن خلال مدة لا تقل عن ثلاث سنوات ، تلك المدة التي تعد كافيـة لتمكين اليابان من التمركز في دائرة بحرية لتحـدي الهجمات الامريكية»(٩) .

المخادعة اليابانية

كانت كل الدلائل تشير الى أن اليابـان عاجلا أم آجلا ، ومنذ اندلاع الحرب العالمية الثانية ستنحاز الى محور المانيا ـ إيطاليا ، كما أن هذه الدلائل كانت تشير ، وبما لا يقبل الشك أن الولايات المتحدة الامريكية، وعلى رأسها رئيس الجمهورية «فرانكلين روزفلت» ستنحاز الى بريطانيا والدول المتحالفة الاخرى ، لذلـك فان كلا من اليابان وآمريكا قد جهزا نفسـيهما على هذا الاساس .

كانت البوادر الاولى لهذا السلوك هو توقيع الحلف الثلاثي بين كل من ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان وذلك في أيلول عام ١٩٤٠ ، وقد حدا توقيع هذا الحلف ، بأمريكا الى مساعدة الصين بالاسلحة أكثر من ذي قبل ، كما أنها بعد مدة قصيرة قطعت النفط عن اليابان ، وكما ذكرنا ذلك سابقا ، فضلا عن تجميد الارصدة والممتلكات اليابانية في الولايات المتحدة الامريكية ،

أما الاجراءات الاخرى فكانت تتمثل بغلق الموانئ التابعة للولايات المتحدة الامريكية بوجه السفن اليابانية مع مطالبة اليابان بالانسحاب من الهند الصينية ، والصين •

لقد عبرت الاجراءات الامريكية ، وبما لايقبل الشك عن الموقف العدائي الامريكي تجاه اليابان ، حيث كانت اليابان ترى أن المناطق المطلوب الانسحاب منها هي مناطق حيوية بالنسبة لها ، ولذلك فان التنازل عنها يعني خنق الجزر اليابانية ، وهكذا وبعد هذه الاجراءات ظهرت الاصوات اليابانية المتطرفة ، ولتستقطب هذه الاصوات العسكريين في معظمهم •

من الطبيعي أن هذه الاصوات لاقت صدى أوسع في قلب قائد القوة البحرية اليابانية «ياماماتو» ، حيث أنه سيتمكن من تنفيذ خطته التي سهر عليها الليالي الطوال ، ولكن بنكهة جديدة يضاف لها عامل جديد يعطيها بعداً مضافا للنجاح ، فعندما قرأ «ياماماتو» القرار على مهاجمة بيرل هاربور ، كان هناك وفد ياباني في الولايات المتحدة الامريكية للتفاوض على الامور المتعلقة بين الجانبين ، وقد كانت كل القنوات مسدودة ، الا أن الوفد الياباني المفاوض أعطى الاوامر بالبقاء ولذلك ظل يناور في المفاوضات من أجل هذا البقاء •

ان الغاية من عدم عودة الوفد واطالة أمد بقائه في الولايات المتحدة الامريكية كان خدعة عسكرية الهدف منها أن تتم عملية تدمير ميناء بيرل هاربور والوفد الياباني لما يزل في أمريكا وهذا يعد قمة في المخادعة ، حيث إن وجود هذا الوفد لايعطي التصور الى الجانب الامريكي على وجود هجوم ياباني على الميناء المذكور ، حيث المفاوضات وإن وصلت الى طريق مسدود الا أنها لم تنقطع بعد ، كما أن المنطق يقول أن قطع المفاوضات وعدم التوصل النهائي لأي اتفاق وعودة الوفد الى اليابان ، يعني امكانية ، أو احتمال التعرض والحرب ، وعلى أساس أن الحرب هي امتداد للسياسة بوسائل أخرى(١٠) ،

وان «الايعاز إلى الوفد بالمماطلة الى أقصى ما يمكن»[١١] ، يعني أن الاسطول الياباني سيبحر نحو أهدافه والولايات المتحدة الامريكية مازالت دائرة في فلك من الوهم معتقدة أن «شعرة معاوية» مع اليابانيين لم تنقطع بعد .

أضافت هذه المناورة السياسية خدرا الى التفكير السوقي الامريكي ، والذي كان لايعتقد بامكانية قيام اليابانيين بالاغارة على «بيرل هاربور» ، ومع ذلك فعلينا أن لا نغمط حق الولايات المتحدة الامريكية كليا ، وأن نقول أن مخادعة الوفد الياباني قد انطلت على الجميع ، حيث ان رسالة وزير الخارجية الياباني « توجو » الى رئيس الوفد تنص على ما يأتي :

«لقد بذلتما جهودا فائقة في مهمتكما كسفيرين لحكومة الامبراطور ، الا ان الولايات المتحدة الامريكية عرضت شروطا مذلة ، لقد انتهت المفاوضات ولكن عليكما التصرف وكأن شيئا لم يكن ، وليس عليكما إلا أن تقولا انكما تنتظران تعليمات جديدة»[١٢] .

الرسالة المذكورة أعلاه كانت واضحة ، وقد ارسل هذه الرسالة رئيس أركان البحرية الامريكية «ستارك» الى الاميرال البحري «كيميل» قائد الاسطول الامريكي في المحيط الهادىء مع توصية باليقظة والحذر ، الا أن «كيميل» قائد الاسطول الامريكي في المحيط الهادىء مع توصية باليقظة والحذر ، الا ان «كيميل» لم يعتقد بذلك ، ولم يتخذ أي اجراء وقائي ، كان أبسطه منع نزول الضباط والجنود خلال هذه المدة الى ملاه ومشارب «هونولولو» .

هكذا ساعدت هذه المخادعة الخطة اليابانية على النجاح ، وبذلك ساعد السوق الدبلوماسي السوق العسكري ، وهنا علينا أن نتذكر نقطة أعطينا أبعادها ولكنها في هذا العمل تجسمت كثيرا ، وهي أن المخادعة السوقية تتعاون على انجازها السلطات العسكرية والمدنية على حد سواء .

كان قائد البحرية اليابانية حاذقا جـــدا في ايجاد القائد الميداني الذي سينفذ العملية ، حيث وجد ان رئيس أركان البحرية «ناجومو» أقرب الناس اليه وانه من المتحمسين الاوائل لهذه الفكرة ، لذلك ، أوكل اليه أمر السير على رأس الحملة ، بعد أن أعطاه أوامره الصريحة والواضحة والدقيقة حول مجمل العملية ، فضلا عن اعطائه الاســـم الرمزي للمباشرة الفعلية بالابحار لانجاز الواجب •

في ١٩٤١/١١/٥ أصدر القائد اليابـــاني «ياماماتو» أوامره الى القائد المكلف بالواجب للتهيؤ بغية تنفيذ الواجب •

الاستخبارات اليابانية كانت على اطـــلاع واسع بالوضعية العسكرية للولايات المتحدة الامريكية في «هاواي» ، وذلك عبر الرتل الخامس المؤلف من الجالية اليابانية الموجودة في الجزيرة والتي تعد كبيرة نسبيا[١٣] •

كان الرتل الخامس الياباني في الجزيـــرة يعبر كل المعلومات المفيدة الى الاستخبارات اليابانية طواعية ، ومن دون أي مقابل ، فضلا عن وجود اذاعة تبث في اللغة اليابانية ، وهي الاخرى مسخرة لاغراض الاستخبارات اليابانية ، حيث كانت هناك بعض الشفرات المتفق عليهـــا لتبادل المعلومات بين الاذاعة المذكورة والاستخبارات اليابانية ، وهنا لا بد أن ننوه الى وجود صحيفة ناطقة باللغة اليابانية ، وهي مسخرة أيضا للاستخبارات المذكورة •

مما ذكرناه أعلاه فان قطعات الولايات المتحدة الامريكية كانت تعوم على بحر من الجواسيس والمخبرين اليابانيين في جزر هاواي ، ولذلك كانت كل حركاتها تعد حركات مكشوفة •

على وفق المعلومات الاستخبارية القادمـــة لليابان أصدر القائد البحري الياباني «ياماماتو» أوامره ، معتقدا بوجود (٣-٤) حاملات طائرات أمريكية ،

بد أن ظنه قد خاب كما سنرى ، اذ ان المدة التي استغرقتها عملية المسير والوصول ، قد جعل الحاملات تخرج من الميناء لاغراض التصليح .

في ١٩٤١/١١/٢٥ أصدر «ياماماتو» أوامره النهائية بالابحار من أجل تنفيذ العملية ، فقام اثر ذلك رئيس أركان البحرية «ناجومو» بالابحار في فجر يوم ١٩٤١/١١/٢٦ ، وكانت القوة تضم القوة الضاربة الحقيقية والمتمثلة بالقطعات التالية :

★ ست حاملات للطائرات .

★ بارجتين .

★ طرادين ثقيلين .

★ طراد خفيف .

★ ثلاث غواصات .

★ تسع مدمرات .

★ تسع سفن ادارية .

★ الطائرات التي ستنفذ العملية فتشمل على أربعمائة وثلاث وعشرين طائرة .

هكذا غادرت هذه القوة خليج «تنكان» متوجهة الى أهدافها ، وكان الوقت المقدر لوصولها الى أهدافها المرسومة تسعة أيام .

كانت هناك أوامر تنص على أن ينتظر «ناجومو» أمرا نهائيا قبل القيام بتنفيذ المهمة ، وهنا لابد من الاشارة أن الابحار والصمت اللاسلكي لم يكونا الاجراءين الوحيدين اللذين أعطيا العملية سريتها حيث كان هناك اجراء مخادع آخر ، وهذا ما سنأتي عليه في المادة القادمة .

المخادعة اللاسلكية خلال التنفيذ

عندما غادرت القطع البحرية اليابانية مناطق تجمعها في خليج «تنكان» في ١٩٤١/١١/٢٦ ، والذي يبعد عن طوكيو مسافة (١٦٠٠) كيلو متر شمالا • كان لا بد أن يحدث فراغ في الاتصالات اللاسلكية والسلكية •

ان المكالمات اللاسلكية كانت مرصـــودة من قبل أجهزة الاستخبارات الامريكية ، لذلك فان أي خلل في هذه المكالمات ، أو عدم حدوثها سيكون مؤشرا على مغادرة القطع البحريـــة اليابانية المتواجدة في خليج «تنكان» الى الى مناطق أخرى ، وبذلك ستقوم أجهزة الاستخبارات الامريكية بملاحقتها لمعرفة خطوط سيرها التعبوية ، ولهـــذا عمد اليابانيون على وضع شبكات لاسلكية بديلة في مناطق الاسطول المغادر نفسها ، وتستخدم الذبذبات نفسها وبالقوة نفســها ، حيث يبدو للسامع أن وكأن السفن اليابانيـــة مازالت في مناطقها •

بهذا العمل حقق اليابانيون أذكى وانبه مخادعة في ذلك الحين ، اذ أخذ هذا الاسلوب من المخادعة يتطور يوما بعـــد اخر ، وحتى أيامنا هذه والذي أخذ بها تسميته «الحر بالالكترونية» بعـــد أن تطورت الاجهزة وأضيفت اليها أجهزة جديدة •

التقرب الياباني من بيرل هاربور

لم تكتشف الســـفن اليابانية وهي في عرض البحر من قبـــل اسطول الولايات المتحدة الامريكية ، ولا من قبـــل دورياته الطائرة ، فضلا عن عدم اكتشافها من قبل العملاء ، وهكذا كانت بداية العملية بداية سهلة ، ومع ذلك فان تنفيذ العملية ككل كان موكولا بالأمر الذي يصدر من «ياماماتو» الى قائد الحملة «ناجوموء» في عرض البحر عبر كلمة رمزية •

في فجر يوم ١٩٤١/١٢/٢ تلقى «ناجومو» الامر بالتنفيذ عبر رسالة لاسلكية من «ياماماتو» تقول له «اصــعد جبل نيناكا» وهي الجملة الرمزية المتفق عليها للتنفيذ ، وهذه الجملة ترجمت الى واقع عملي حيث أصدر أوامره الاخيرة للهجوم ، وهو لايزل في عرض المحيط الهادى •

حسب الخطة المرسومة أخذ «ناجومو» مسارا من الشمال للتقرب نحو أهدافه ، بنما أخذت الغواصات مسارها من الجنوب الغربي •

خلال مراحل التقرب الاخيرة جاءت برقية كادت أن تلغي العملية ككل ، وكانت هذه البرقية تنص على عدم وجود حاملات للطائرات في الميناء ، غير أن قوة الواجب قد وصلت الى مقتربات تحتم عليها القيام بالعملية ، اذ ان البرقية وصلت يوم ١٩٤١/١٢/٥ ، بينما كان موعد التنفيذ هو يوم ١٩٤١/١٢/٦ حسب توقيت اليابان •

ان الفرق في التنفيذ وعدمه كان يوم واحد ، وهذا ما حبذ على الاستقرار على فكــرة التنفيذ ، سيما اذا ما عرفنا أن الميناء كان يحتــوي على البوارج والطائرات والمنشـــآت الاخرى التي تتحكم بالمجهود الحـــربي في المحيط الهادىء •

من المفيد في هذا المضمار أن تشير بشكل مكثف الى أن الرسائل التي أرسلت من قبل الحكومة اليابانية الى سفراءها بالشفرة في دول جنوب شرقي آسيا والولايات المتحدة الامريكيـــــة كان يقضي بحرق كل الوثائق السرية الموجودة لديهم ، وهذا يعني بلاشك ان الحرب ستقع في المستقبل القريب •

اقتربت القوة الضاربة اليابانية المهاجمة الى بيرل هاربور أكثر فأكثر ، وعندما أصبحت حاملات الطائرات الست(١٤) على مبعدة «٤٠٠» كيلو متر تقريبا من الجزيرة ، أقلعت الطائرات ، «الموجة الأولى» ، بقيادة قائد العملية

الجوية الطيار «فوشيدا» ، وهي موزعة حسب اختصاصاتها وهي (٤٥) طائرة مقاتلة تستخدم لاغراض التصدي والتقاطع الجوي فيما اذا كان هناك أي تهديد جوي أمريكي على الطائرات التي ستقوم بالمهمة ، كما ان هذه الطائرات تتمكن من استخدام رشاشاتها اذا لم يوجد التهديد المذكور ، وذلك بمعالجة بعض الاهداف المرسومة لها .

النوع الاخر من الطائرات هي (٥٠) طائرة هجوم أرضي منقضة ، عليها القيام بمهاجمة الاهداف الارضية بالقنابل والرشاشات ، وهي اختصاصية لهذا العمل ، فضلا عن (٥٠) قاصفة ، وهي تحمل القنابل ، وأخيرا (٤٠) طائرة اختصاصية في قذف الطوربيدات .

أقلعت الطائرات المذكورة أعلاه في الساعة السادسة من يوم ٧/١٢/١٩٤١[١٥] ، متجهة نحو أهدافها مع عدم اكتشاف أمرها في بادىء الامر ، ولكن بعد مدة طيران قدرها خمس وأربعون دقيقة اكتشفت هذه القوة من قبل الرادار الامريكي ، وكانت مازالت في منتصف الطريق ، وقد تم الاخبار عن تقرب الطائرات الى الضابط المسؤول ، ولكنه لم يصدق أن هذه الطائرات هي طائرات معادية ، وأعتقد انها طائرات أمريكية قاصفة قادمة لتعزيز قوة الاستطلاع الجوي في الجزيرة ، وهذا الاعتقاد منبثق من أن هناك معلومات حول ذلك ، وعلى أية حال ، فان الضابط المذكور لم يكن يشاهد شاشة الرادار عند سماعه الخبر ، وانما أخبر بالامر تلفونيا ، وشتان ما بين الامرين ، ولذلك كتب لطائرات الموجة الاولى أن تتوجه الى أهدافها بكل أمان ودقة ، ولتحقق اثر ذلك المباغتة التامة التي لم يحسب لها الامريكان أي حساب يذكر .

هكذا كتب للموجة الاولى من الطائرات النجاح المنقطع النظير ، وبأدنى ما يمكن من خسائر .

وصلت الموجة المذكورة بالساعة (٧٥٥) ، وقد أُعلن عن بدء الهجوم قائد التشكيلات الجوية «فوشيدا» بكلمات رمزية هي «توارا ، تورا ، تورا» أي «النمر ، النمر ، النمر» ، وهذا يعني أن العملية قد بدأت وان المباغتة التامة هي التي حدثت وميزت العملية ، وقد استلمت القيادة هذه الانباء بكل سرور .

كانت قاعدة بيرل هاربور مكتظة بالطائرات ، والسفن ، ولم تراع عمليات الانتشار مطلقا ، وكان الاعتقاد السائد هو عدم امكانية وصول اليابانيين اليها من دون كشف ، ولذلك فان اليقظة والحذر كانا في غفوة في الجزيرة .

أعمال التمويه والفشل لم نسمع عنها أي شيء ، وهكذا عندما اقتربت الطائرات اليابانية وجدت سفنا وطائرات مرصوفة كأنها واقفة للاغراض الاحتفالية ، هذا فضلا عن الوضع السلمي الى القواعد الذي أغفل فيه المسؤولون نشر البالونات في الجو تحسبا لأي طارىء ، وان مجمل الوضع يوحي أن جميع جنود الامريكان قد جاؤوا الى هنا لاغراض الراحة والاستجمام .

الموجة الاولى اليابانية تمكنت من أن تحصد مائة وخمسين طائرة كانت جاثمة على الارض مع ست سفن كبيرة هي : «ويست فيرجينيا ، أريزونا ، أوكلاهاما ، كاليفورنيا ، أوتاوه ، وتنسي» مع الكثير من السفن الصغيرة الاخرى .



في الساعة الثامنة والدقيقة الخمسين جاءت الموجة الجوية اليابانية الثانية، والمؤلفة عموما مائة وسبعين طائرة ، منها ست وثلاثون طائرة مقاتلة متصدية ، وثمانون طائرة قاصفة هجوم أرضي ، والباقي من القاصفات التقليدية ، الا أن هذه الطائرات كانت أقل حظا من طائرات الموجة الاولى لانها صادفت مقاومة من قبل القوات الامريكية المتمثلة بمدفعيـــة مقاومة الطائرات ، وغيرها من الوسائل •

وسائل الدفاع الجوي الامريكي لـــم تكن مؤثرة كثيرا تجاه الموجة الثانية اذ ان من كان يقف وراءها جنــود أصيبوا بالرعب والهلع والذهول للضربة المباغتة الاولى ، ومع ذلك فقد تمكنت وسائل الدفاع الجوي الامريكي من ايقاع بعض الخسائر بالطائرات المغـــيرة تقدر بعشرين طائرة من مختلف الانواع •

في هذا السرد ، علينا أن لا نغفـــل ، وأن نشير بشكل مكثف الى أن العمليات الجوية اليابانية الانتحارية قد استخدمت لاول مرة في هذه المعركة ، حيث ان اثنين من الطيارين اليابانيين عندما أصيبت طائرتاهما ، انقضا بهما نحو ملاجىء الطائرات ليعلنا ميلاد كلمة عالمية جديدة هي «الكاميكاز» •

خلال الموجـــة اليابانية الثانية كانت الخسائر الامريكيـــة هي تدمير السفينتين الامريكيتين «بنسلفانيا ، ونيفادا» مع احراق المزيد من الطائرات ، وقتل أعداد من البشر •

الوثائق تشير الى أن الخسائر البشرية في الجانب الامريكي هي ألفا قتيل و(١١٧٨) جريحا ، و (٩٦٠) مفقودا ، يمكن أن يكون البحر قد ابتلعهم بعد أن أصيبوا بنيران الطائرات اليابانية ، وغرقوا في مياه البحر •

هكذا اسدل الستار عن أعظم المعارك التي وظفت فيها المخادعة لاغراض النصر في المعارك ، وذلك في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والاربعين من يوم (٧) كانون الاول عام ١٩٤١ •

لم يقم الاسطول بارسال الموجة الثالثة من الطائرات والتي كانت ضمن الخطة ، حيث أمر القائد البحري «ناجومو» بالانسحاب ، بعد أن قدر الموقف العام ، ووجد أن الموجة الثالثة ستكلف خسائر كثيرة بالطائرات ، أكثر من الموجة الثانية ، وبما أن عليه أن يقوم باسناد العمليات البحرية المقبلة ، سيما الانزال البحري في قاعدة «ويك» الامريكيـــة ، فان من الافضل بقاء قوة

طائراته جيدة ، وبقاء معنويات طياريـــه عالية ، اثر نشوتهم بهذا الانتصار الرائع الذي خلده التاريخ العسكري كملحمة قتالية متكاملة .

ذكرنا سابقا أن هجوما ثانويا كان على الغواصات الصغيرة القيام به ، بيد أن هذا الهجـــوم لم يكتب له النجاح ، وقد فقد اليابانيـــون في هجوم الغواصات المذكور تسعا من غواصاتهم ، وعادت البقية الى قواعدها من دون أن تؤدي واجبات تذكر ، وقد دخلت هذه المعركة الى الاكاديميات العسكرية كمعركة مثاليـــة ، وهي مازالت تدرس بشكل واسع في الولايـــات المتحدة الامريكية .

الحوادث المتممة

كانت نتائج معركة بيرل هاربور قـــد انعشت اليابانيين ، وأعطتهم ثقة عظيمة بأنفسهم وبقدرتهم العلمية والصناعية في جانبها الحربي ، واستغل القادة هذه النقطة المشرقة وحب الشعب الياباني للامبراطور لكي يشحنوا الجندي الياباني بأعظم قدر من المعنويات ، وصولا الى التضحية بالنفس ، ولذلك فان الجندي الياباني خلال الحرب العالمية الثانية كان صارما الى أبعد الحدود مع أعدائه في سبيل تحقيق الواجب ، مـــع بذل الغالي والنفيس من أجل الوطن والامبراطور ، وهذا يعني بعبـــارة أدق انه كان منضبطا بشكل يقترب من الآلية .

في الجانب الامـــريكي كان الوضع يختلف ، ففي الولايـــات المتحدة الامريكية كان هنالك فريقان ، الفـــريق الاول ، وهو يمثل القلة ، يعتقد أن القواعد الامريكية في المحيط الهادىء كلها تحت رحمة اليابان ، وان اليابان تتمكن من الوصول وتدمير أي قاعدة أمريكية هناك ، اذا ما أتخذت الوسائل الكفيلة للنجاح ، ومنها المباغتة والمخادعة ، والتعرض ، أما الفريق الثاني ، وهو يؤلف الكثرة الكاثرة ، فكان يعتقد أن الوصول الى أي قاعدة يعد أمرا أشبه

بالمستحيل ، ولاسيما ميناء «بيرل هاربور» الذي كان أبعد من كل الموانىء الاخرى عن اليابان ، اذ أن جزر «ميدوي» و «ويك» و «كرام» كانت أقرب كثيرا الى الجزر اليابانية ، ولذلك فان مهاجمة ميناء بيرل هاربور يمثل العمل الاقل احتمالا .

من هذا التحليل فقد كان الاسترخاء هو السمة السائدة في عقول منتسبي القـوات الامريكية ، هذا فضلا عن أن وضعية الجـزيرة الخلابة قد أضافت خدرا آخر الى العقول الامريكية العاملة هناك .

الشيء الذي يجب أن لا ينكر ، هـــو الطبيعة البشرية الامريكية التي تعتقد بأنها متفوقة في كل الجهات ، وان اسطورة الرجل الامريكي هي اسطورة «السوبرمان» ، وقد أثبتت الحوادث بطـــلان ذلك في الكثير من المجالات ، حيث انتصر اليابانيون على الامريكان لا في «بيرل هاربور» فحسب ، ولكن في عموم شرق المحيط الهادىء ، وبقى اليابانيون سادة البباحة ولم تجسم الحرب بينهم وبين الولايات المتحدة الامريكية الا بعد استخدام القنابل الذرية التي القيت على كل من مدينتي «نكازاكي» و «هيروشيما» ، والتي كانت تمثل اختراعا لا تمتلكه غير الولايات المتحدة الامريكية ، ومع ذلك وبعد زمن قليل تمكن الاتحاد السوفيتي من صنع قنبلته الخاصة ، ومن ثم لتتفوق على أمريكا في هذا المجال ومجال الصواريخ البعيدة المدى «العابرة للقارات» وفي برامجه الموجه للفضاء .

في الحروب الاخرى التي أعقبت الحــرب العالمية الثانية كانت الحرب الكورية هي المحك الآخر لاختبار قوة السوبرمان الامريكي الذي فشل أيضا في اداء مهمته ، الى أن انتهت الحرب المذكورة بلا غالب ولا مغلوب ، ومع ذلك فقد بقي الامريكان يتوهمون ، كما توهموا من قبل أنهم السادة ، الى أن جاءت الحرب الفيتنامية وكانت بحق صفعة مدوية للقوات المسلحة الامريكية .

من التحليل أعـلاه وحسب العقلية التي كنا بصددها نجـد أن الفكر الامريكي لم يكن يعتقد أبدا انه يمكـن أن يغلب من قبل اليابانيين ، ولكن الذي حدث في «بيرل هاربور» كان واقعا لا يمكن أن ينسى بسهولة .

الغاية كانت تعد من الوجه الاخر بشيرا الى المملكة المتحدة التي وجدت أنها يمكن أن تلعب دورا في دخول الولايات المتحدة الامريكية الحرب الى جانب بريطانيا وحلفائها ، حيث كانت وحتى هذه الساعة تقف على الحياد ، بينما كان يحاول «روزفلت» اقناع الشعب الامريكي لدخوله الحرب الى جانب الحلفاء ، وعلى أسـاس أن اليابان هي دولة من دول المحور الثلاثي المتمثـل بألمانيا ، وايطاليا ، واليابان ، وعلى أية حال ، فان معركة بيرل هاربور قد قربت وجهات النظر فعلا ، وان تدخل الولايات المتحدة الامريكية كطرف الى جانب الحلفاء في هذه الحرب الرهيبة .

اليابان توسعت الى مساحات كبيرة كانت لا تتوافق مع عدد سكانها ، وهي بذلـك خطأت خطأ قاتلا لا يمكن أن يغفر لها ، ومع ذلـك فالكتاب اليابانيون يعتقدون بأن الولايات المتحـدة لم تكن تنوي الى دخول حرب تقليدية مع اليابان وانها كانت تفكر في انهائها ذريا .

وهكذا اسدل الستار على معركة مخادعة ناجحة في التاريخ .

المراجع والهوامش

(١) الموسوعة العسكرية ـ الجزء الاول ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٧ ص٢٢٩ .

(٢) اللواء فاروق الحريري ـ حملات الحرب العالمية الثانية ـ الجزء الثاني ـ تأرجح الكفتين ، ١٩٤١ـ١٩٤٣ الطبعة الاولى ١٩٨٣ ـ مديرية المطابع العسكرية ـ ص١٠٢ .

(٣) الموسوعة العسكرية ـ مصدر سابق ص٢٣٠ .

(٤) حملات الحرب العالمية الثانية ـ مصدر سابق ص١٠٥ .

(٥) تبلغ مساحة الجزيرة «٢٥٠٠» كيلومتر مربع .

(٦) لم تتفق كل المصادر على هذه المسافة ، وان البعض يجعلها أكثر من ذلك حتى يصل في تقديره للمسافة الى رقم «٤٤٠» ، كما كانت المسافة متباينة بين الموجة الاولى والثانية لان السفن كانت في حالة اقتراب ، وعليه فان الموجات الاولى كانت أبعد حتما من الثانية .

(٧) د. ظلال عامر المهتار ـ التاريخ العسكري من ٤٧٠ قبل الميلاد حتى عام ١٤٥ ميلادية ـ دار اقرأ ـ بيروت ـ لبنان ص٩٥٩ .

(٨) المصدر السابق ص٩٥٩ .

(٩) السوق الياباني في الحرب العالمية الثانية ـ مجلة مختارات سوقية ـ الصادرة عن وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب مديرية التطوير القتالي ـ العدد الثالث ـ شباط ١٩٨٦ اعداد العميد الركن صبحي ناظم ـ ص١٦٦ .

(١٠) القول يعزى الى المفكر الاستراتيجي الالماني «فون كلاوزه فيز» في كتابه الموسوم في الحرب ، والمشهور جدا في التداول .

(١١) مجلة مختارات سوقية ـ العدد الرابع ـ آب ١٩٨٦ الصادرة عن وزارة الدفاع العراقية دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ مقال السوق الياباني في الحرب العالمية الثانية ص١٧ ٢

(١٢) ريمون كاتيه ـ موسوعة الحرب العالمية الثانية ـ دار الحكمة ـ بيروت ـ لبنان ، الكتاب ترجمة الى العربية محمود سماحة ، ص٢٧٤ .

(١٣) تقدر هذه الجالية بمائة ألف نسمة ، معظمهم يعمل بالتجارة ، أما الباقون فيعملون في شتى الميادين ، ومنها ميدان الخدمة في القواعد الجوية الامريكية والميناء .

(١٤) حاملات الطائرات اليابانية تدعى «اكاغي» ، «كانما» ، «هيريو» ، «سيريو» ، «شوكاكو» و «زيكاكو» .

(١٥) هناك اختلاف بين اليابان وتوقيت الجزر في هاواي حيث يضاف الى التاريخ الياباني يوم واحد .

معركة جسر آنيم
المخادعة الجوية المتسربة
الى الخصوم

عـــام

المعركة التي نحن بصددها هي معـــركة انزال قطعات عسكرية بوساطة الطائرات ، بنوعيها ، الطائرات التقليدية التي تسير بوساطة المحركات الجوية ، والطائرات الشراعية التي تعمل بوساطة رفع الهواء .

من الطبيعي أن معارك من هذا النوع تعد معارك ابتكرتها عقول القرن العشرين ، اثر اختراع الطائرة ، وتطور الطائرات وصولا الى الحرب العالمية الثانية التي حدثت في المنتصف الاول من هذا القرن .

لقد ولدت اثر اختراع الطائـــرة ولادة عقائد قتالية جديدة طرفاها ، الطائرة ، والمظليين ، ودعيت هذه العقيدة ، بعقيدة القوات المحمولة جوا .

القوات المحمولة جوا تتمكن من الهبوط بالمظلات في أي منطقة تريدها القيادة ، ووفق شروط منها ملاءمة المنطقة للانزال .

القوات المحمولة جوا هي الوسيلة الاكثر سرعة لمعالجة المواقف من قبل القيادة في مناطق معينة ، وعلى أية حـــال ، فان الطائرات قد أعطت بعدا آخر

للنقل السريع وهو استخدام البعد الثالث «الجو» ، ولذلك فان بعض القوات يمكن أن تنقلها من منطقة الى أخــــرى للسرعة ، بوساطة الطائرات ، وهذه القوات تدعى القوات المنقولة جوا لانها لا تهبط الا الارض بوساطة المظلات وانما تهبط مع الطائرة بصورة اعتيادية على الارض ومن ثم تذهب الى المناطق المراد مشاغلتها •

القوة الجوية نظمت بأسراب مختلفة ، منها أسراب النقل التي تتمكن من القيام بمهمة اسناد القوات المحمولة جوا بالنقل •

القوات المحمولة جوا عندما تقاتل وتمسك الارض لا يمكن أن تمسكها الى النهاية بل يجب أن يكون هناك رتل أرضي يعقبها الى المنطقة التي هبطت بها ، والا بقيت هناك معزولة منفردة مصيرها الهلاك ، ولذلك فقد اتفق على أن اثنتين وسبعين ساعة هو الوقت الاكبر الذي لا يمكن تجاوزه ، والذي على القوات الارضية أن تلتحق خلاله مع القوات الهابطة •

تعد العمليات المحمولة جوا ، وحتى يومنا هذا قليلة لأنها مكلفة ، اذا ما أخذنا العمليات العسكرية بصورة عامة كقياس لبرهان هذا الرأي •

انها مكلفة بالاشخاص والمعدات ، وهذه الكلفة متأتية من الخسائر التي تحدث خلال العملية وخصوصا عنــــد انكشافها ، أو مصادفتها مقاومة غير متوقعة ، أو مقاومة متأتية من الاستعداد لمعالجة الموجات الاخرى من القوات المحمولة جوا ، والتي تحاول الهبوط في هذا المكان أو ذاك •

العمليات المحمولة جوا تعد من الحركات المشتركة بين الصنوف الثلاثة ، البحرية ، والجوية ، والبرية ، لانها قد تحتاج الى اشتراك الطيران البحري ، أو المدفعية البحرية بعيدة المدى أحيانـــا ، ولكنها عموما ، وكما يحدثنا التاريخ المعاصر ، المعمد بالدم أن معظم الحركات المحمولة جوا ، والتي حدثت في هذا القرن ، هي حركات كان طرفاها كلا من القوة الجوية ، والقوات البحرية ، علما ان التنسيق بين القوتين يجري عبر قيادة واحدة •

التاريخ العسكري يحمل في طياته المتناقضات ، أحيانا ، فهو يشير الى عمليات محمولة جوا ناجحة ، كما يحمل في الوقت نفسه عمليات انزال فاشلة ، الا اننا آثرنا أن نستعرض ، وبصورة مكثفة أهم معارك المحمولين جوا الفاشلة لكي نتمكن من أن نضع أيدينا على مواقع الخلل في مسألة المخادعة التي نحن بصددها ، وهذه المعركة هي معركة «جسر أرنيم» ، التي حدثت في مدينة آرنيم في بلجيكا من أجل السيطرة على الجسر المذكور الذي يربط بين طرفي المدينة والذي يمر من فوق نهر «الراين» ، وجسور أخرى في الجنوب منه ، وهما بالتحديد جسران .

هناك الكثير من العوامل التي تؤثر على حركات المحمولين جوا ، أو ما تسمى بالحركات «المظلية» ، كما توجد أيضا بعض المعضلات ، ومن هذه المعضلات ، هي كيفية الوصول الى منطقة الهبوط ، سيما اذا ما علمنا أن بعض هذه المناطق صغيرة جدا ، لا يمكن الجزم بمعرفتها وتميزها من قبل الطيارين ، وخصوصا في تلك الحقبة من الزمن ، التي كانت بها الاجهزة الملاحية أجهزة بسيطة ، ولم تتطور على ما هي عليه في الوقت الحاضر .

ان معركة «أرنيم» ولأسباب ملاحية ، وأخرى تخص الطيران الليلي وصعوباته خطط لها أن تجري خلال ساعات الضوء ، ومن الطبيعي أن هذا الامر سيجعل الحركة مكشوفة ، وسيفقدها صفة السرية خلال التنفيذ ، حيث يمكن استمكانها من قبل الالمان الذين سيعقبون مساراتها بعد ذلك أولا بأول .

العامل الاخر الذي تتأثر به هذه الحركات ، هو عدم وجود الاسلحة الثقيلة معها خلال الموجة الاولى ، والتي تتمكن بوساطتها من أن تكثف النار نحو الخصوم ، وان كل ما تملكه هذه القوات في موجتها الاولى لا يتعدى الاسلحة الخفيفة ، المتمثلة بالبندقية وبعض الهاونات ، وأسلحة مقاومة الدروع ، ولهذه الشحة فانها ستناضل وبكل صعوبة في الحفاظ على مكان

الانزال ، ولذلك كان على الحلفاء في هذه المعركة أن يزجوا بأفضل قواتهم •

معركة أرنيم حدثت يوم (١٧) أيلول عام ١٩٤٤ ، وهذا يعني أن معارك أخرى قد سبقتها في هذا المضمار تصور اللون نفسه من القتال ، ولذلك كانت توجد تجارب سابقة يمكن أن توظف للاستفادة من دروسها وعبرها •

الالمان مثلا في بداية الحرب العالميـــة الثانية استخدموا القوات المظلية للاستحواذ على قلعة محصنة في بلجيكا ، كمـــا قاموا بانزال جوي في جزيرة «كريت» •

الحلفاء كان لهم تجربتهم الثرة العملاقة التي تتمثل بالانزال في شاطىء النورماندي حيث أنزلت في هذه المنطقة أكبر قوات مظلية عرفها العالم عبر نقل قطعات أمريكية وبريطانية وفرنسية ، وأخـــرى من الجزر البريطانية الى هذا الشاطىء •

من الانزال الكبير يمكن أن تستنتج أن الحلفاء أصبحت لديهم الخبرة في هذا النوع من العمليات ، وما عليهم سوى استغلالها •

خلال عملية جسر آرنيم كان الحلفاء قد توغلوا في أوربا ، كما أن جحافل الجيوش السوفيتية هي الاخرى أوشكت أن تهدد الدفاعات الالمانية بكل جدية بغية الوصول الى برلين ، ولهذه التطورات يمكن أن نجد أن عملية مثل العملية المذكورة ستلاقي فرصا كبيرة من النجاح ، فيما لو خطط لها بشكل دقيق ، واستخدمت المخـــادعة بالشكل الذي يؤدي الى سحب البســـاط من تحت الارجل الالمانية في بلجيكا ، غير أن الحلفاء لم يخططوا أبدا لمثل هذا العمل ، وانما على العكس ، نجد ان الالمان كانوا هم المتربعين للايقاع بالحلفاء في الفخ المهلك •

فكرة الانزال في «آرنيم» كانت فكرة بريطانية ، وان أول من نادى بها هو الفيلد مارشال «مونتغمري» ، حيث كان يعتقد أن الاندفاع نحو الشمال

الشرقي هو أفضل وسيلة لتدمير ألمانيا ، وبذلك فان عبور الراين والحالة هذه سيكون أمرا حتميا ، وعليه فان بقاء الجسور الثلاثة الموجودة على النهر المذكور يعد شيئا مرغوبا فيه الى أبعد الحدود ، وهذا يعني الاستيلاء عليها سليمة ، وعدم تمكين الالمان من نسفها اذا ما قرروا الانسحاب •

الفكرة الاولى كانت تنادي بايجاد القوة المظلية الكافية التي تتمكن وبشكل مباغت من مسلك هذه الجسور بصورة سليمة ، اذا ما تمكنت وضع خطة مخادعة جيدة تسهل العملية برمتها •

الجنرال أيزنهاور كان في تلك المرحلة قائدا عاما للقوات الحليفة في أوربا التي ستقوم بتحرير أوربا وتسليم ألمانيا كان لديه فكرة أخرى ، مزدوجة الغايات ، تراعي في غايتها الاولى الوضع الاقتصادي ، وفي الثانية الوضع العسكري ، والتي كانت مطابقة لفكرة «مونتغمري» الغاية الاقتصادية تتمثل بالاستحواذ على منطقة «الرور» الصناعية ضمن الخطة ، ومن الطبيعي أن هذه المنطقة كانت تشكل وريدا يغذي الصناعة الالمانية على وجه العموم ، والصناعات العسكرية على وجه الخصوص •

الغاية العسكرية هي مساعدة الانصار في كل من هولندا وبلجيكا لقوات الحلفاء القائمة بالهجوم ، ومن الطبيعي أن هذه الفكرة تعد مثالية ، ولكنها تحتاج الى تخطيط دقيق مدعم بالمخادعة •

الجنرال الامريكي «عمر برادلي» كانت لديه فكرة تختلف عن فكرة «مونتغمري» كليا اذ كان «برادلي» يرى ان الاندفاع المباشر نحو الشرق أفضل لقوات الحلفاء من تلك الفكرة التي نادى بها «مونتغمري» اذ أن خطته هذه ستجعل من قوات الحلفاء تتجه وبدون خط متعرج الى قلب ألمانيا ، بدلا من الاندفاع الى الشمال •

الاندفاع نحو الشرق الذي نوه عنه الجنرال برادلي يجعلهم يصلون الى مدينة «فرانكفورت» بألمانيا عبر هجوم عزوم بالدروع بأقصر وقت •

اذا أمعنا النظر في كل من الخطتين سنجد ان خطة برادلي كانت خطة بسيطة ومباشرة وأقل كلفة ، ولا تحتاج الى قوات مظلية لمسك الكثير من الجسور على نهر الراين وسواه من الانهر في تلك الجبهة ، ومع ذلك فان ايزنهاور وافق على خطة مونتغمري الموافقة للخطة التي كان يفكر بها •

الجنرال أيزنهاور قد وافق على خطة مونتغمري معتقدا أن المناورة من الشمال لتدمير الالمان أفضل من القيام بخرقهم من الوسط ، لانه كان يعتقد أن وسطهم قوي جدا ، ولذلك كان على الحلفاء أن يهيئوا قواتهم المحمولة جوا «المظلية» من أجل جسر آرنيم وجسور أخرى في المنطقة •

الجنرال أيزنهاور قد شكل جيشا كاملا بغية تأمين متطلبات الغاية الاساسية المذكورة ، وكان هذا الجيش عمادة القوات المحمولة جوا ، وهو يتألف من القوات التابعة للقوات المتحدة الامريكية ، والقوات البريطانية ، وقد أسهمت فيه الفرق (١٧ ، ٨٢ ، ١٠) الامريكية والفرق (١ ، ٦) البريطانية ، أما البولنديون فشاركوا بلواء مظلي واحد ، كقوات رمزية •

انيط أمر قيادة هذا الجيش الى الجنرال الطيار الامريكي «بريرتون» ، على أن يعاونه في القيادة رئيس أركان القوات الجوية البريطانية المدعو «الجنرال براوننغ» ، وكان عليهما أن يضعا الخطة الكفيلة باحتلال الجسر سالما من أجل تسهيل اندفاع الفيلق المدرع (٣٠) نحو الراين وآرنيم والعبور الى الضفة الاخرى ، وهنا علينا أن لا ننكر أن الظروف المناخية والتضاريس الأرضية الهولندية كانت صعبة ، بحيث لا تسمح باندفاع سريع الى القوات المدرعة والآلية ، وحتى المشاة ، لانها كانت عموما تتكون من ترع وأنهار •

الاستيلاء على جسر آرنيم سالما كان من ضمن خطة كبيرة ، ولهذا فان

عوامل النجاح في تلك الخطة والتي سنأتي اليها في آرنيم كان يعتمد أساساً على نجاح مفردات الخطة في مناطق أخرى ، ولذلك لم توضع خطة منفصلة للعملية المذكورة ، كما أن خطة أخرى بديلة لم توضع اذا ما فشلت المفردات الاخرى خلال التنفيذ ، وهنا يمكن أن نشبه ذلك بخيط العقد ، حيث أن القطع لاي جزء منه سيجعل العقد منفرطا بصورة كلية ، ولن يقتصر الامر على بعض حبات منه •

الخطة التي وضعها الحلفـــــاء دعيت «دي ماركت غاردة» أي «حديقة السوق» ، وقد كانت خطة مشتركة بكل معانيها تنفذ من قبل القوات البرية ، والصنف المظلي ، والقوة الجوية لاغراض نقل القوات المحمولة جوا ولتأمين الاسناد الاداري بمواد التموين ، وأية مواد أخرى •

التهيؤ للمعركة

عقب الانزال الحليف في النورماندي ، لـــم يكن هناك أي واجب آخر للقطعات المظلية ، والقطعات المنقولـــــة بوساطة الطائرات ، لذلك ظلت هذه القوات على البر البريطاني في حالة تأهب من أجل اناطة واجب مقبل لها •

بقيت قوات الحلفاء المظلية خلال تلك المرحلة في حالة تدريب مستمر لكي تبقي لياقتها البدنية بأحسن شكل من الاشكال ، كما وان القوات المذكورة لا تشكو من نقص في الطائرات مطلقا ، لذلك كل الموارد كانت متهيئة لاي عمل مقبل •

الامر الاخر في مسألة التهيؤ للمعركة يتضمن التفوق الجوي ، حيث لا يعقل أن تزج أعداد كبيرة من الطائرات الخاصة بالنقل والتي لا يمكن أن تدافع عن نفسها في أجواء يسيطر عليها الالمان ، لذلك كان عليهم أن يؤمنوا التفوق الجوي اللازم لهذه الخطة ، بحيث عندما تذهب الموجات الاولى من الطائرات

الخلفية ، وهي تحمل قوات الانزال الى أهدافها لا تلاقي خطورة اسقاطها في الجو ، وهي في طريقها الى تلك الاهداف •

لهذه الاسباب قام الحلفاء بتهيئة جـو المعركة ، وأمنوا التفوق الجوي اللازم ، ومن الضروري أن ننوه وبكلمـات واضحة من أن التفوق الجوي الحليف كان موجوداً منذ أن عبرت الجيوش المتحالفة الشواطىء البريطانية نحو فرنســا ، وتحديدا نحو النورماندي ، والاندفاع الناجح نحـو اوربا الغربية ، لان الالمان قد فقدوا معظم طائراتهم ، ولم يبق سوى النزر اليسير الذي لا يتمكن من مجابهة الاعداد المتنامية للقوات الجوية المتحالفة •

عند الحديث عن التهيؤ للمعركة في الجانب الالماني ، لم نجد ما يشير الى ذلك ، حيث لم يكن هناك أي تكهن مسبق حول حركة الحلفاء للانزال في منطقة آرنيم ، ولكن الذي حدث قبل مدة قصيرة من الانزال ، أن سارع أحد الجواسيس المجندين لحساب ألمانيا ، وأخبرهم عن وجود نوايا حول عملية انزال حليفة لاحتلال جسر آرنيم ، بغية تسهيل اندفاع القطعات البرية نحو الشمال ، ولم يلاق هذا الخبر القبول الكامل من لدن الالمان ، حيث اعتقدوا أن المسافة الموجودة بين منطقة الانزال الحليف ، ورؤوس الارتال البريطانية المندفعة نحو الشمال كبيرا ، بحيث لا تتمكن هذ هالارتال من الوصول الى المنطقة بسرعة وسهولة ، ومع ذلك فان الالمـان لم يهملوا هذا الخبر ، وانما تظاهروا بعدم تصديقه خداعا •

من أجل ارساء جذور المخادعـة المذكورة ابتعدوا عن مناطق الانزال المتوقعة ، لكي يتمكنوا بعد ذلك أن يطوقوا القوة بأجمعها بعد انزالها بوقت قصير ، وربما هناك من يسأل ، لماذا هذا الاخلاء ؟

الجواب على ذلك هو أن هذا الاخلاء سوف يزرع الطمأنينة المتناهية في قلوب الحلفاء للقيام بالعمل العسكري المذكور •• اذ انهم لو جرى اخبارهم

بان المنطقة محتلة بقوة من قبل الالمان ، لأجلوا العملية ، أو لما قاموا بها مطلقا .

لقد كانت القوات المتحالفة تحت امرة الجنرال البريطاني «براونتغ» ، الذي وضع وهيئة ركنه الخطط اللازمة لها بغية التنفيذ ، وكانت تقضي باجراء الانزال في منطقة آرنيم بثلاث موجات كما ذكرنا ذلك سابقا ، ولأيام متتالية هي أيام ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، أيلول عام ١٩٤٤ .

جغرافية ميدان المعركة

لو أمعنا النظر في خارطة ميدان المعركة ، فسنجدها عموما وفيرة الانهار والقنوات ، والترع ، فهناك في أقصى الجنوب ، قناة ، «أسكوت» والى شمالها قناة «فلهلمينا» ، والى الشمال منها نهر «الموز» ، وشماله نهر «الوال» ، واخيرا نهر «الراين» ، ولذلك كان على القوات المتحالفة أن تعبر ستة أنهار .

الانهار المذكورة لم تكن بمعزل عن خط دفاعي ألماني مطلقا ، ففي الشرق منها يقع الخط الدفاعي الالماني الشهير المدعو «خط سيغفريد» ، وهو خط بناه الالمان لمجابهة أي تعرض من الغرب نحو الحدود الالمانية ، ولذلك فانه يعد رمحا في مجنبة أي قوة تريد التقدم نحو الشمال حيث يمكن أن يطعنها من جهتها الشرقية ، كما وتتمكن القطعات المتواجدة فيه من الوثوب نحو الغرب وتكثيف هجماتها بحيث تعزل القطعات المهاجمة شمالا وتجعلها نصفين ، حيث يكون نصف منها عند قناة «أسكوت» والنصف الاخر في منطقة آرنيم .

الدراسات والوثائق تشير الى أن وجودا ألمانيا مكثفا في القوات العسكرية لم يكن موجودا في الخط الدفاعي المذكور لاسيما اذا ما عرفنا أن القوات الالمانية تركت هذا الخط ، وقامت بهجومها الخاطف نحو الغرب في

بداية الحرب ، كما علينا أن نذكر أن هنـــاك قطعات ألمانية كانت تشغل هذا الخط ، ولكنهـــا كانت مكرسة لاعمال الادامة ، بحيث لا يبـــدو أن الخط الدفاعي المذكور كان متروكا كليا ، وعلى العمـــوم فان الالمان تركوا قطعات ألمانية في هذه المنطقة ، تتألف من فيلق ألماني ومجموعة تدعى المجموعة (ب) •

اذا انتقلنا الى ميدان المعركة الاختصاصي ، أي منطقة جسر آرنيم ، فسنجد أن هناك مدينة صغيرة تدعى مدينة «آرنيم» تتكون من عدد من البيوت ذات الطابق الواحد ، والحدائق الصغيرة ، وهي مبنية أساساً في شمال النهر ، مع وجود بعض البيوت المتفرقة في المنطقة الجنوبية من النهر المذكور ، وهذا يعني أن أي قتال في المنطقة سيكون في جزء منه هو قتال في المناطق المبنية ، وما لهذا القتال من صعوبات ومعاضل وفيرة ، حيث لا يمكن التكهن بالبيوت التي يسكنها الخصوم ، وأي بيت ستتعرض منـــه القوة المهاجمة الى النيران الدفاعية •

مما تقدم من معطيات حول القتال في هذه المناطق يمكن أن نلمس بأن سمة الحذر ستكون هي التوأم الخاص لها •

جسر آرنيم الذي نحن بصدده ، كان جسرا حديديا ، مع دكات صخرية ، ولذلك فهو يتمكن من حمل الدبابات ، ولا يمكن تخريبه بسهولة ، أما أرض المعركة فكان قسم منها صالح للانزال ، لانـــه سهل ومنبسط ، وهذا يساعد الطائرات الشراعية الهبوط فيه بكل بساطة ، مع امكانية استقبال الامدادات الثقيلة أيضا ، بحيث لا تعزز بالارض عندما ترتطم بها ، كما ولم يكن صخريا بحيث يجعل الحاويات التموينية تتكسر عند ارتطامها به •

المنطقة عند هطول الامطار ، ربمـــا تكون موحلة ، ومع ذلك فانها لا تعني ، مانعا يحول دون اجراء القتال فيها •

المنطقة بشكل خاص ، فلاحية ، مليئة بالابقار ، التي تشتهر بها هولندا ، مع وجود بعض الغابات المحيطة بالمدينة •

الشيء المهم في جغرافية المنطقة هـــو وجود بعض المرتفعات في الشمال القريب منها وهذه المرتفعات تسيطر بدورها على المدينة ، وعلى الجسر في آن واحد ، ولذلك فان أمر احتلالها من قبـــل أي من الجانبين سيعطيه الافضلية للرصد ومشاغلة الجانب الاخر بالنار ومعالجته ، ومن كافة الاسلحة المتاحة ، وهكذا يمكن أن نستنتج ان جغرافية المنطقة كانت تساعد على حركة المشاة والدروع والعجلات بشيء من السهولة النسبية ، وهذا يعني وعلى وجه الدقة انها قدمت فائدة كبيرة الى الالمان لاستخدام دروعهم ، بينما لم يكن لدى القوة الهابطة بالمظـــلات ، والتي تمثل القوات الحليفة أي دبابـــات لكي يقوموا باستخدامها تجاه الهجمات المدرعة الالمانيـــة ، وهكذا كان الالمان عبر هذه المعطيات أسياد الساحة ، فهم قاموا بالمخادعة أولا ، وتفوقوا بالدروع ثانيا •

قوات الطرفين

التحدث عن قوات الطرفين يشـــكل في منهاج المقارنة نقطة واضحة لا يمكن الحياد عنها ، وهي أن قوات الحلفاء كانت أكثر من القوات الالمانية ، لان القوات الالمانية بعد أن هاجمت أوربا الغربية ، ومن ثم الاتحاد السوفيتي، وشمال أفريقيا ، بدأت تتآكل شيئا فشـــيئا ، اثر الخسائر البشرية والمادية المتلاحقة لعدد من السنين •

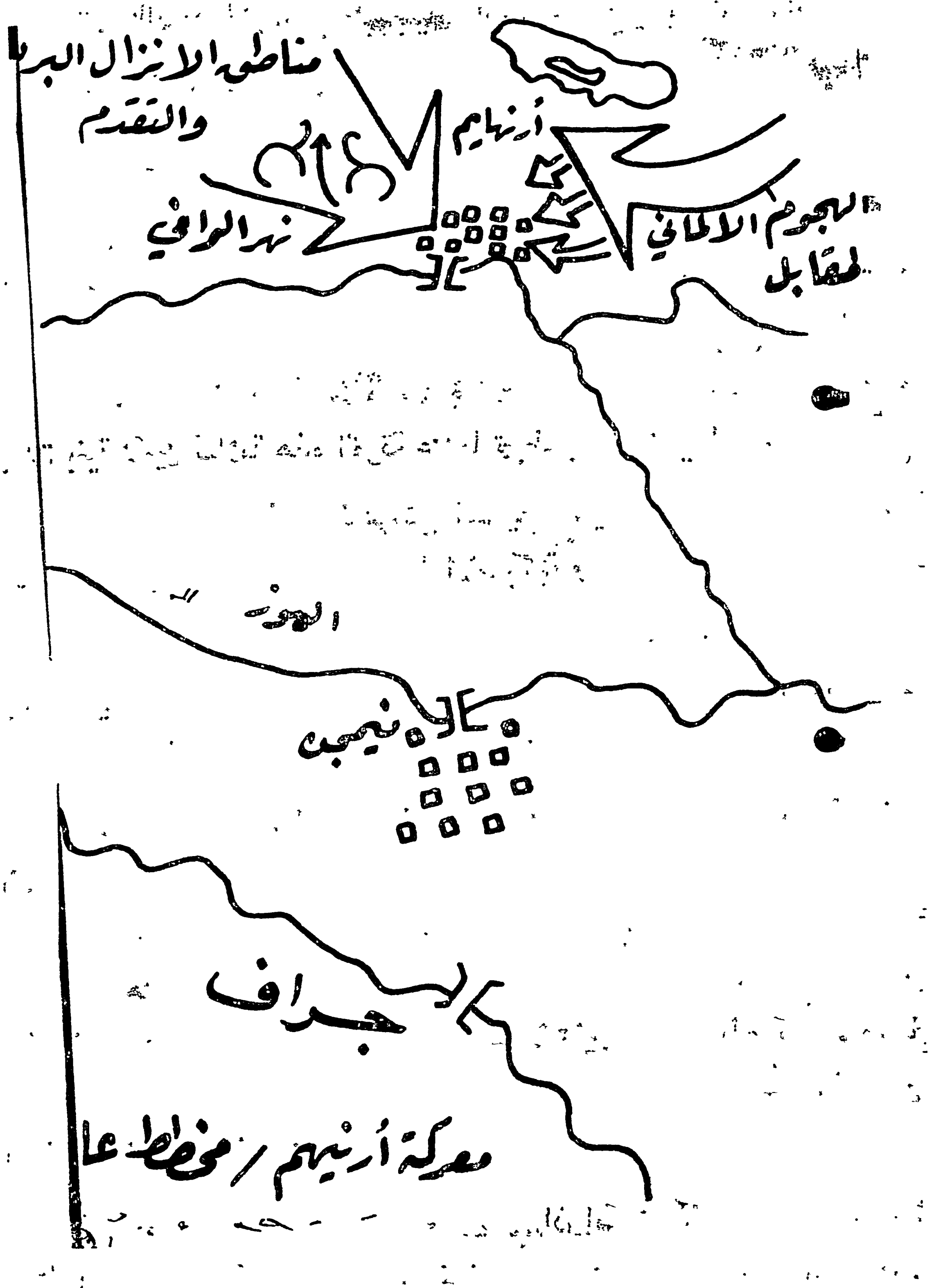
لقد انسحب ألمانيا من شمال أفريقيا اثر فشلها في الوصول الى «مرسي مطروح» في مصر ، كما لا يخفى أنها أعطت الكثـــير في أوربا بعد الانزال في النورماندي من قبـــل الحلفاء ، فضـــلا عن خسائرها مـــع الجيش الاحمر السوفيتي •

يمكن أن نلمس من المعطيات أعلاه عظم الخسائر لدولة كانت تحارب وحدها ، حيث كانت القوات المسلحة الإيطالية ، ومنذ بداية الحرب دون المستوى المطلوب الذي يمكن اعتماده في حرب خاطفة حديثة ، كما وان الايطاليين أنفسهم ، أو بالمعظم تقريبا لم يكونوا جادين في الحرب ، وعليه فكان على ألمانيا أن تدفع الثمن لوحدها تجاه دول أوربا الغربية والاتحاد السوفيتي ومتممتهما الولايات المتحدة الامريكية •

الخطة بصورة عامة كما أسلفنا بخطوطها العريضة بالنسبة للحلفاء كانت تقضي بأن تمسك جميع الجسور الموجودة على الانهار والقنوات المذكورة في مادة جغرافية ميدان المعركة •• ساعة ، وعليه فان التوزيع العادل يجب أن يجري لاستخدام جميع الموارد بنسب تتفق مع الغاية ، علما بأن المسافة بين قناة «أسكوت» وجسر «آرنيم» كانت تربو على (١٥٧) كيلومترا ، أما القوات المخصصة لهذا الواجب من الجانب المتحالف فكان هو :

١ ـ الفرقة (١٠١) الامريكية بقيادة اللواء «ماكسويل تايلور»[١] •

٢ ـ الفرقة (٨٢) الامريكية المحمولة جوا بقيادة اللواء «جيمس جانين» •


مناطق الانزال البر
والتقدم
أرنهايم
نهر الواي
الهجوم الالماني المقابل
نيمجن
جراف
معركة أرنهيم / مخطط عا

٣ ـ الفرقة الاولى البريطانية بقيادة اللواء «روي يوركهارت» •

٤ ـ اللّواء المظلي البولندي •

٥ ـ الفرقة (٥٢) البريطانية •

كان هذا هو التخصيص العام للعملية ، أما اذا عدنا الى مفردات القوات المخصصة الى العملية في منطقة جسر آرنيم فقط فسنجدها مقصورة على الفرقة البريطانية الاولى ، على أن تقوم بتعقيبها الفرقة البريطانية ، (٥٢) فيما اذا ما تمكنت الفرقة الاولى من انجاز مهمتها بنجاح ، ومسك منطقة الانزال بصورة جيدة بغية تأمين سلامة هذه الفرقة عندما تهبط بالمظلات في المنطقة •

القوات الجوية المتاحة لاغراض العملية الحليفة في آرنيم كانت قوات مشتركة بين كل من الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا •

الطائرات الحليفة ، كانت تبلغ وعلى وجه العموم (١٢٥٠) طائرة «داكوتا» وهي اعتياديا تخصص لاغراض النقل الجوي •• وقد بقت هذه الطائرة لمدة طويلة في خدمة القوات المسلحة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية •

الطائرات الحليفة الاخرى كان منها «٣٥٣» طائرة قاصفة محورة لاغراض النقل الجوي •

الطائرات الاخرى كانت تحوي أيضا على (١٤٩) طائرة نقل أمريكية(٢)•

كان هناك أيضا أعداد كبيرة من الطائـــــرات الشراعية التي تتمكن من الطيران من دون أي صوت ، حيث انهـــا لا تطير بواسطة المحركات ، وانما بوساطة رفع الهـــواء ، وهذه بامكانها لعدم وجود الصوت فيهـــا أن تؤمن المباغتة خلال الطيران وعند النزول •

ان عدد الطائرات الموجودة أعلاه تعني ان امكانية النقل ستكون جيدة خلال العملية ، وتتمكن من أن تنقل فرقتين مظليتين في أي حال من الاحوال ،

ولكن كل ذلك كان يتوقف على الموقف الجوي ، وبما ان الموقف الجوي كان لصالح الحلفاء ، وعليه فان النجاح في الوصول الى الهدف ستكون موجودة والحالة هذه ، اذا ما عرفنا أن عدد الطائرات المتاحة للحلفاء من كل الانواع المقاتلة والقاصفة كان يربو على (١٤٠٠٠) طائرة صالحة للاستخدام تقابلها في الجانب الالماني (٧٠٠) طائرة عاملة ، وهـــو رقم يبدو بائس جدا أمام الرقم الأول •

ان ارقام الطائرات للقوات المتحالفـــة يعني أن بامكانها تقديم الاسناد الجوي القريب وتطهير منطقة الانزال من المقاومات ان وجدت ، وقبل وقت الانزال الحقيقي لتسهيل المهمة وتذليل بعض الصعاب •

الحقائق الان تبـــدو ساطعة ، لاريب فيها ، وهي أن القـــوات الجوية للجيوش المتحالفة ، والقوات المحمولة جوا سوف لن تعطي الخسائر الجسيمة في تلك العملية ، وذلك للتفوق الساحق للقوات المتحالفة في الجو ، والتفوق كذلك في القوات البرية ، وان صمود القوات المحمولة جوا يعتمد أساسا على القوات البرية المعقبة التي عليها أن تؤمن الاتصال بها •

القوات المحمولة جوا كما أسلفنا تتمكن من القتال (٧٢) ساعة لحين وصول القوات البرية الاخرى المعقبة ، وهذا الرقم يعد أعلى رقم مع خروج اضطراري عنه في بعض الاحيان ، ومن هذه الاحيان المعركة التي نحن بصددها، والتي استمرت كما نرى أكثر من الرقم المذكور ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على التدريب المتقن ، والثقة بالنفس ، والمعنويات العالية ، هذه العوامل التي تلعب دورا كبيرا في اطالة مدة البقاء ، أو قصرها ، اذ أن الارقام تبدو في بعض الاحيان ضئيلة أمام الاصرار والنخوة والحماس •

اذا عدنا الى الجانب الالماني فسنجد أن جل ما كان يتيسر له هو مجموعة الجيوش (ب) ، وهي بوجه عام غايتها مراقبة الجبهة الغربية ليس إلا ، وليس لها واجب خاص في منطقة ارنيم •

كان مقر هذه الجيوش يقع بالقرب من مناطق الانزال التي ناقشناها ، في المواد السابقة .

كان الجنرال «مودل» يقود مجموعة الجيوش المذكورة ، حيث كان مقره يبعد خمسة كيلومترات عن منطقة الانزال في آرنيم .

اذا أمعنا النظر في الموضوع سنجد جسامة الحدث وخطورته على الالمان لا من ناحية مسك الجسور على نهر الراين بحالة سليمة فحسب ، وانما من ناحية امكانية الاستيلاء المتحالف عبر قواته المحمولة جوا على المقرات الالمانية الحساسة ، ومنهـــا المقرات المسؤولة مسؤولية مباشرة عن ادارة الحـــركات هناك ، والمتمثلة بمقر القائد الالماني « مودل » .

خطـة الحلفـــاء :

كانت خطـــة الحلفاء خطة مزدوجة الغايات ، حيث خططت أن يجـــرى الانزال المظلي في مناطق متعددة يقوم بها جيش الحلفاء الأول المحمول جوا ، للاستيلاء على ستة جسور على قنوات وأنهار جرى التطرق اليها سابقا ، على أن يصاحب حركة هؤلاء المظليين حركة الفيلق (٣٠) من الجيش البريطاني الثاني نحو الشمال ، والوصول الى آرنيم ، على أن تسهم الموجات المظلية في تسريع حركة هذا الفيلق ، وذلك بمسلك تلـــك الجيسور سالمة ، وطرد أية مقاومة عليها .

بهذا العمل المحمول جوا لقوات الحلفاء يتمكن الفيلق (٣٠) البريطاني من الوصول الى جسر آرنيم والتي أقرتها الخطة العامة ، على أن تبقى حركة الفيلق مستمرة لحين وصوله الى خليج يدعى خليج «زيدرزي» . حماية التقدم للفيلق (٣٠) المذكور من جناحيه يقوم بها كل من الفيلق الثامن الذي أنيطت به مهمة حماية المجنبة اليمنى ، والفيلـــق الثاني عشر الذي انيطت به حماية المجنبة اليسرى .

الخطة المذكورة كانت خطة مشتركة ، بين القوة الجوية والقوات البرية، ولذلك علينا ، أن نبين مفردات كل من الخطتين ، وعلى الاخص الخطة الخاصة بالانزال المظلي ، وقد كانت الخطة هذه تشمل مايأتي :

١ ـ الفرقة الامريكية (١٠١) بقيادة اللواء «ماكسويل تايلر» تقوم بالاستيلاء على الجسور الموجودة بين مدينة «أندهوفن» ، و «فيجهل» وهي تقع شمال قناة «البرت» بمسافة تربو على (٣٥) كيلومتر .

٢ ـ الفرقة (٨٢) الامريكية بقيادة «جيمس جافين» ، مهمتها الاستيلاء على الجسور الواقعة بين مدينة «كريف» ، ومدينة «فجيمين» .

٣ ـ الفرقة البريطانية الاولى بقيادة اللواء «ايرهارت» تقوم بالاستيلاء على الجسور الموجودة على نهر الراين وخصوصا الجسر في مدينة آرنيم .

ان ما يهمنا في الموضوع هو الفرقة البريطانية الاولى ، لانها هدفنا في هذا الكتاب الذي يبحث عن المخادعة الناجحة والفاشلة عبر المعارك التي استخدمت فيها بشكل أو باخر من أجل الظفر ، وهذا ما يحتم علينا الالمام بالتفاصيل العملية الخاصة بالخطة التي جرى التخطيط لها .

الخطة بصورتها العامة تتضمن ثلاث موجات جوية تحمل قوات محمولة جوا ، تلقى في منطقة الانزال في آرنيم بتوقيتات متفاوتة ، أي هناك مدة زمنية بين الالقاء الاول ، والثاني والثالث ، وحسب ما تتضمنه الخطة .

الموجة الاولى لقوات الحلفاء في الانزال تتألف من (١٦١) طائرة نقل ، فضلا عن (٣٢٠) طائرة ساحبة و (٣٠٧) طائرة شراعية من طراز «هورسا»، و(١٣) طائرة شراعية نوع «هملقار»(٣) .

الالقاء يجب أن يجري في يوم (١٧) أيلول .

الموجة الثانية كانت تتألف من (١٣٦) طائرة نقل (٢٧٠) طائرة مسحوبة

و(٢٧٠) طائرة شراعية ، و(٣٥) طائرة حمل[٤] ، على أن تعقب الموجة الاولى في يوم (١٨) أيلول •

الموجة الثالثة تتألف من (١١٤) طائـــرة نقل ، و(٤٥) طائرة شراعية ، و(١٦٣) طائرة حمل ، على أن تقوم بالطيران يوم (١٩) أيلول عام ١٩٤٤[٥] •

اذا ما استعرضنا قوة الحلفاء المذكورة فـان علينا أن نضيف لها ، أو بالاحرى الى كل موجة من الموجات الثلاث ، ما يسمى بطائرات ايجاد الاتجاه ، وهي طائرات تسبق الموجات المحمولة جواً لتقوم بالتأشيرات، وأعمال الدلالة الاخرى للطائرات المكلفة بالقاء المظليين ، لان لهذه الطائرات فائدة كبيرة ، حيث وبوساطتها لا يخطيء الطيارون الذين يحملون على طائراتهم قوة الصولة المحمولة جوا ، مناطق الالقاء المناطة بهم ، وبذلـــك يجنبون القوة المذكورة الفوضى التي يمكن أن تحدث اذا لم تعرف القوات الهابطة مكانها الصحيح بالتحديد •

مخادعة الحلفاء

في عمليات المحمولين جوا ، التي تعتمد على المظليين الهابطين بمظلاتهم ، وعمليات المنقولين جوا التي تعتمد على الجنـــود الذين ينزلون على الارض بوساطة الطائرات الشراعية ، وغيرها من الطائرات ، اذ انهم يفتقرون الى القابلية التي تؤهلهم للالقاء ، فان المخادعة وفي الحالتين المذكورتين أعلاه تعتمد على صرف نظر الخصوم نحو مكان اخر غير مكان الالقاء الحقيقي ، حيث عندما تقوم إسراب القوة الجوية بالالقاء فانها لن تصادف المقاومة المحتملة التي يمكن أن تصادفها فيما لو عرف الخصوم تلك المنطقة ، وهذا الامر ، ومن الطبيعي انه يقلل الخسائر المادية والبشرية الى أدنى حد •

ان أعظم أنواع المخادعة في مجال العمليات المحمولة جوا هي المخادعة المشتركة ، أي تلك المخادعة التي يكون طرفاها كل من القوة الجوية التعبوية ،

أو السوقية ، والقوات البرية ، فالقوة الجوية عليها مثلا أن تقوم بضرب قاعدة أو مطار جوي لا علاقة لهما ، لا من قريب ، ولا من بعيد بالمنطقة المراد احتلال أهداف فيها ، بحيث تعطي الانطباع الكامل ان الحركات المحمولة جوا ان جرت ، فانما ستجري في قاطع غير القاطع الحقيقي ، أما القوات البرية فيجب أن تعطي الانطبـــاع بأنها بصدد الحركة لا نحو المنطقة التي ســيجري بها الانزال ، ولكنهـــا بصدد مناطق أخرى قد تكون بعيدة عن منـــاطق الالقاء الفعلي .

اذا أخذ المفردات البسيطة المـــارة أعلاه ، وطبقناها على خطة المخادعة الحليفة ، سنجد ان جزءا منها كان صحيحا ، أما الجزء الثاني فكان مخطوءا، وهنا علينا ان نشخص بصورة علمية أماكن الصواب والخطأ .

قبل عملية الانزال كانت القوات المتحالفة في منطقة قناة «اسكوت» ، وهذا يعني وبالتحديد انها بصدد التحرك شمالا لانها لا يمكن أن تتحرك نحو الشرق ، ففي الحركة نحو الشرق يعني الاصطدام بخط «سيغفريد» الدفاعي الالماني ، ولذلـــك فان مناورتها أصبحت واضحة ومكشوفـــة ، وهي انها ستندفع نحـــو الشمال ، ومن ثم الالتفاف حول الخط الدفـــاعي المذكور وتجاوزه .

هذه الحركة اذا ما أقرناها مع أي حركة مظلية في المستقبل ، فان محور القاء المظليين لابـــد أن يكون على المحور الشمالي أي محـــور «نيميجن ـ غراف ـ ارنيم» .

هذا الوضوح أيقظ الاحساسات العسكرية الالمانية ، وحشدها لتقبل مثل هذا العمل والاجهاز عليه بسهولة .

مما تقدم نجد أن مخادعة الحلفاء في شقها البري كانت تمثل قمة الفشل .

المخادعة الجوية في هذا الانزال كان أفضل حظا من المخادعة البرية ، حيث قامت الطائرات القاصفة البريطانية من نـــوع «لانكستر» وبقوة تقدر بـ (٢٠٠) طائرة ، بقصف بعض المطارات الالمانية ، وذلك قبل بدأ الانزال ، أي ليلا ، كما قامت تسع وخمسون قاصفة أخرى بقصف مواقع بطريات مدفعية مقاومة الطائرات في أنحاء متفرقة من الجبهة ، وهذه كلها أمور لم تعط الانطباع عن المهمـــة الجوية المقبلة ، ومع ذلك فان اليوم الثاني قد افصح جزئيـــا عن المخادعة ، التي جرت ليلا ، وذلك عندما قام طيران الحلفاء بقصف تمهيدي للممرات المقترحة للتقرب الى منطقة آرنيم ، حيث قامت (٨١٦) طائرة قاصفة مع عدد من طائـــرات الهجوم الارضي بمهاجمة مواقع للمدفعيـــة المضادة للطائرات تقدر بمائة موقع ، وهكــــذا كشف تقريبا محور الهجوم المتوقع لطائرات المحمولين جوا عند تقربها من مدينة آرنيم •

الخطة الالمانية المقابلة للمخادعة

الخطة الالمانيـــة للمخادعة كانت تعتمد على معلومات جاء بهـــا أحد الجواسيس الهولنديين العاملين تحت خيمة الاستخبارات الالمانية ، ومفاد هذه المعلومات ، أن الحلفاء سيقومون بالانزال في مناطق متفرقة بين قناة اسكوت وارنيم لتسهيل اندفاع الفيلق الثلاثين ، وذلك بمسك الجسور وهي صالحة للاستخدام •

بهذه المعلومات كشفت خطة الحلفاء منذ الوهلة الاولى ، غير أن الالمان لم تكن لهم القوة الكافية لمجابهة هذا الحدث لو جرت المحاولة بوقت أقرب من هذا الوقت ، علما ان الحلفاء قد تباطأوا في تنفيذ خطتهم ، ولذلك عمد الالمان الى ترتيب أمورهم ، وذلك بتعبئة جيشهم المظلي الاول بقيادة الفريق «ستودنت» في مناطق متفرقة حول نهر الراين الذي يعد مانعا مائيا قويا •

ان غاية هذا الجيش الالماني كانت تتلخص بمنع زحف القوات المتحالفة نحو الشمال والتي بدأت بوادرها في هذه الايام واضحة في الافق .

الخطوة الثانية التي أجراها الالمان هـو افتتاح الفيلق المدرع الثاني في منطقة الرأين لكي تكون قوة سريعة الحركة تمتلك زخما عاليا للهجوم ، قادرة على معالجة المظليين بخفة واندفاع ... كان هذا الفيلق بقيادة الفريق «بيتريش» .

ان جوهر المخادعة الالمانية ، هو ترك بعض مناطق الانزال المحتملة من دون أي قطعات تنزل بها ستجد نفسها مطوقة بعد فترة قصيرة ، وهنا سيكون مصيرها معلوما ، الموت ، أو الاسر .

ان الالمان تركوا هذه الاماكن خالية لسبب اخر ، وهو اعطاء فكرة للحلفاء بأنهم لا يعرفون شيئا كثيرا عن الانزال حيث لو عرفوا الكثير لكانوا احتلوا هذه المناطق سلفا .

مما تقدم نجد أن الرد على مخادعة الحلفاء بمخادعة ألمانية مقابلة كان ناجحا في العملية المحمولة جوا «ماركت غاردن» .

سير المعركة الحقيقي ـ آرنيم

لم تكن هناك توقيتات موضوعة سلفا خاصة بالحركة خلال هذه العملية من جانب الحلفاء ، لان الطيران فوق الاراضي البريطانية في ذلك الحين كان يخضع الى عامل الضباب ، والطقس بصورة عامة .

أقلعت الطائرات المكلفة بالواجب بعد أن انقشع الضباب من فوق مدارج المطارات ، وتشير معظم التقارير الى أن الاقلاع جرى في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والاربعين من يوم (١٧) أيلول عام ١٩٤٤ .

الاقلاع للقوات المحمولة لم يجر من مطار واحد وذلك لمحدودية المطار الواحد من استيعاب هذه الاعداد الكبيرة من الطائرات والقوات •

تم الاقلاع من مطارات متفرقة هي أربعة وعشرون مطارا ، وكان مجموع الطائرات هو :

(١٥٤٤) طائرة نقل •
(٤٧٨) طائرة شراعية •
(١١٧١) طائرة متصدية معترضة لاغراض الحماية[٦] •

شرع الرتل البري لقوات الحلفاء بالزحف نحو أهدافه بالساعة ١٣٣٠ من اليوم نفسه نحو الشمال •

نجحت الفرقتان المظليتان (٨٢) و (١٠١) بالانزال نسبيا ، وذلك باحتلالها لبعض الاهداف المهمة في ساحة العمليات والتي من شأنها أن تسرع في اندفاع القوات البرية للحلفاء ، ويستثنى من ذلك الجسر الموجود قرب مدينة «نيمجين» •

الفرقة البريطانية الاولى هبطت في مواقعها المقررة ، وقد أخبر نوتية الطائرات الذين قاموا برفع القوة وايصالها الى آرنيم أن المقاومات الالمانية المضادة للطائرات لم تكن مؤثرة ، بل كانت واهنة ، وبذلك أتيحت الفرصة الى اللواء المظلي الاول الهبوط الى الارض بسلام •

مجموع الخسائر خلال الرفعة الاولى بلغ : خمسا وثلاثين طائرة نقل ، وثلاث عشرة طائرة شراعية ، وهذا رقم بائس اذا ما قيس بعدد الطائرات التي استخدمت ولتي كانت تربو على ألفي طائرة مختلفة •

اللواء المظلي الاول من الفرقة الاولى آثر أن لا تكون مناطق انزاله قريبة جدا من جسر آرنيم ، وبالفعل هبط على مبعدة عشرة كيلومترات منه ،

وهذا يعني أن على اللواء المذكور أن يتقدم راجلا مسافة عشرة كيلومترات بغية الوصول الى الهدف .

السير لمسافة عشرة كيلومترات مع تجهيزات الجندي السفرية تعد مسافة كبيرة ، حيث كان يتحتم على هذه القوة القتال عشرة كيلومترات للوصول الى الهدف اذا كانت هناك مقاومة ألمانية .

ان هاجس هؤلاء عندما قرروا الانزال على بعد عشرة كيلومترات كان ينبع من الاعتقاد بان منطقة جسر آرنيم مدافع عنها من قبل الالمان بصورة جيدة ، بأسلحة مقاومة الطائرات ولذلك فان الطائرات ومن فيها ستتعرض الى نيران شديدة .

ان مسافة عشرة كيلومترات تعد طويلة ، ولا يوجد لها أي مبرر ، وكان من الممكن أن تكون منطقة الانزال بحدود ٤ــ٥ كيلومترات لتتحاشى القوات المحمولة جوا أسلحة مقاومة الطائرات .

بعد أن تـــم الانزال في المنطقة المذكورة ، شرعت القوة بالتقـــدم نحو أهدافها المقررة سلفا التي نصت عليها الخطة العامة .

التقدم كان يجري بفوجين في الامام وفوج في الخلف .

الارض كانت قابلة على ستر حركات القوة المتقدمة ، ولكنها لم تسمح باستخدام العجلات الهابطة مع القوة لوعـــورة المنطقة وعدم مساعدتها على مسير الاليات المدولبة .

ان الحركة الكثيفة لطيران الحلفـــاء وهبوط القوة المحمولة جوا نبه الالمان الى أن الانزال المرتقب يجري الان ، ولذلك سارعوا الى اتخاذ التدابير الدفاعية وصد القوات المتحالفة وعـــــدم السماح لها من الوصول الى جسر «آرنيم» ، وقد عززت القوة المدافعة الالمانية تباعا ، حيث عززت بالدبابات وناقلات الاشخاص المدرعة التي أفرزت من الفرقة المدرعة التاسعة .

كانت بوادر معركة ارنيم تدل علي انها معركة بين قوتين غير متكافئتين ، حيث كان الالمان على علم تام بالنوايا التي يفكر بها الحلفاء ، بينما كان الحلفاء لا يعرفون حجم القوة الالمانية الموجودة في المنطقة ، والاسوأ من هذا ان أجهزة المواصلات اللاسلكية التي كانت لدى القوات البريطانية الهابطة رديئة الى أبعد الحدود ، مما أدى الى فقدان آمر القوة من السيطرة على قواته ، بحيث أصبحت القطعات والى بعض الحدود لا تتناغم في الاداء مع بعضها .

هناك شيء اخر علينا أن نذكره لصالح الالمان ، وهو وجود الدروع ضمن قواتهم المقاتلة ، وهذا يعطيهم قابلية حركة وزخما كبيرا لابادة القوات البريطانية الهابطة ، والتي لم تتمركز في مواضعها بصورة جيدة .

العامل الاخر الذي كان في صالح الالمان هو ترتيباتهم الادارية والتموينية الجيدة خلافا للقوة البريطانية التي كانت تعتمد في هذا الامر على الامدادات جوا ، وما لهذا الامداد من صعوبات جمة .

في يوم ١٧ أيلول لم يتمكن البريطانيون من القيام بأي عمل حاسم .

في يوم ١٨ أيلول وعلى الرغم من التفوق الالماني تمكن البريطانيون من الوصول الى جسر السكة الحديد على النهـــر بفوج من الافواج ، ثم دخول المدينة ، وتأسيس مقر فيها .

كانت حركة الفوج مرصودة من قبـــل الالمان وقد عولجت هذا القوة وأعطت أفدح الخسائر .

كا نالبريطانيون عنيدين ويتسمون بالبطولة ، وقد تمكنوا على الرغم من الخسائر من الوصول الى الجسر واحتلال طرفه الشمالي ، حيث رصنوا بعد ذلك مواقعهم ، بيد أن التفوق الالماني الساحق ، ورداءة الطقس كانا عاملين آخرين على ترجيح كفة الامور الى جانب الالمان .

في يوم ١٩ قاتل البريطانيون بعزائم واهنة وأجسام متعبة .

في ليلة ٢٥/٢٦ أيلول عام ١٩٤٤ قامت بقيـــة الفرقة البريطانية الاولى بالانسحاب عبر الراين بعد أن منيت بخسائر جسيمة ، وهكذا صاحب الفشل هذه العملية التي خطط لها لتكون عملية «محمولين جوا» تنصف بالمباغتة التي ترتكز الى المخادعة ، ومن الطبيعي فان ذلـــك نابع من عدم ادراك المكونات الاساسية لمعنى المخادعة في الظروف الجوية والتعبوية المتغيرة .

لقد انسحبت الفـــرقة البريطانية ، التي قاتلت أكثـــر من (٧٢) ساعة ، وبالتحديد من يوم ١٧ أيلول حتى ٢٦ منـــــه ، وهذا رقم قتالي قياسي لقوة محمولة جوا ، وهـــو ان دل على شيء فانما يدل على مقدرة فائقـــة واصرار معنوي ، علماً بأن الفيلق المظلي الاول والفيلـــق (٣٠) الحليفين لم يصلا الى أهدافهما حيث قاتلهما الالمان قتالا عنيـــدا ، وبذلك اسدل الستار على هذه المعركة الفاشلة بعد أن منيت بألفي أسير ، ماعدا القتلى ....

المراجع العربية

١ ـ أبو محمد بن أعثم الكوفي ـ كتاب الفتوح ـ المجلد السابع ـ دار الندوة الجديدة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الاولى .

٢ ـ أبي محمد جعفر بن جرير الطبري ـ الجزء السادس ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة الرابعة .

٣ ـ حارث لطفي الوفي ـ مبادىء الحـــرب ـ وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ ط١ ١٩٨٥ .

٤ ـ حارث لطفي الوفي ـ المخادعة العسكرية ـ وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ الطبعة الاولى ١٩٨٦ .

٥ ـ حـــارث لطفي الوفي ـ فن المناورة ـ وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ .

٦ ـ حنا خباز ـ المعارك الفاصلة في التاريخ ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ـ لبنان .
٧ ـ د. سالم الرشيدي ـ محمد الفاتح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ .
٨ ـ د. صالح الاشتر ـ د. عمر الدقاق ـ الاستاذ محمد الانطاكي ـ معركة فتح القسطنطينية .
٩ ـ صدام حسين ـ نظرة في خصائص القيادة الناجحة ـ دار الحرية ـ بغداد ط١ .
١٠ـ صبحي عبدالحميد ـ معارك العرب الحاسمة ـ الدار العربية للموسوعات بيروت ـ لبنان ط٣ ١٩٨١ . ـ دار المشرق العربي ـ بيروت ط١ .
١١ـ د. عبدالسلام عبدالعزيز فهمي ـ فتح القسطنطينية ـ المكتبة الثقافية ـ الهيئة العامة للتأليف والنشر ـ دار الكاتب العربي ١٩٦٩ .
١٢ـ د. طلال عامر المهتار ـ التاريخ العسكري من ٤٧٠ قبل الميلاد وحتى عام ١٩٤٥ ميلادية ـ دار اقرأ ـ بيروت ـ لبنان .
١٣ـ اللواء فاروق الحريري ـ حملات الحرب العالمية الثانية ـ الجزء الثاني ـ تأرجح الكفتين ١٩٤١ـ١٩٤٣ ـ الطبعة الاولى ١٩٨٣ ـ مديرية المطابع العسكرية العراقية .
١٤ـ اللواء الركن فاروق الحريري ـ عملية الانزال في آرنيم ـ وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ ط١ ١٩٨٣ .
١٥ـ محمود عزمي ـ دراسات في الحرب الخاطفة ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الاولى ١٩٧٢ .

١٦- الاميرلاي أركان حرب محمد فتـاح ابراهيم - الحرب بـين الماضي والحاضر - ادارة الثقافة العامة - وزارة التربية - مصر - مكتبة الانجلو المصرية - لم تذكر سنة الطبع ، ولا تاريخ للطبعة .

١٧- د. نزار الحديثي - معركة القادسية الاولى - مركز البحوث والمعلومات - دراسة خاصة .

المراجع المترجمة

١ ـ أدوارد ميد ايرل ـ رواد الاستراتيجية الحديثة ـ ترجمة الاميرلاي أ٠ح٠ محمد عبدالفتاح ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ط٢ ١٩٨٥ ٠

٢ ـ ايريك موريز ـ مدخل الى التاريخ العسكري ـ تعريب أكرم ديري والهيثم الايوبي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ لبنان ط٢ ٠

٣ ـ الافسكي علي حكمت بركي ـ العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني ـ ترجمة محمد احسان ـ مطبعة السعادة بمصر ـ ط٦ ٠

٤ ـ ب٠ آ فيغور ـ الحرب الخاطفة السوفيتية ـ ترجمة ل٠ نعمة فارس ـ وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ط١ ٠

٥ ـ برناردين كلتي ـ فتح القسطنطينية ـ ترجمة شكري محمود نديم ـ مكتبة النهضة ـ بغداد ـ العراق ـ الطبعة الاولى ١٩٦٢ ٠

٦ ـ جان غيتون ـ الفكر والحرب ـ ترجمة الهيثم الايوبي وأكرم ديري ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ط٢ ١٩٨٥ ٠

٧ ـ ريشارد كي بيتس ـ الهجوم المباغت ـ ترجمة عميد ركن كنعان خورشيد ـ وزارة الدفاع العراقية ٠

٨ ـ ستروكوف ـ تاريخ فن الحرب ـ ترجمة العميد الركن صباح الدين الاتاسي ـ ط١ ١٩٦٨ ٠

٩ ـ فرنان شنايدر ـ تاريخ الفنون العسكرية ـ ترجمة فريد أنطونيوس ـ مكتبة الفكر الجامعي ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ ١٩٧٠ ٠

١٠- فون كلاوزه فج - في الحرب - ترجمة اكرم ديري والهيثم الايوبي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - الطبعة الرابعة ١٩٧٤ .

١١- ليدل هارت - الاستراتيجية وتاريخها في العالم - ترجمة الهيثم الايوبي - منشورات دار الطليعة - بيروت ط١ شباط ١٩٦٧ .

١٢- ليدل هارت - مذكرات رومل - جمعته مع مانفريد رومل - زوجة رومل ، وابنته ماريا - تعريب وتعليق فتحي عبدالله النمر - الجزء الرابع - مكتبة الانجلو المصرية - المطبعة الفنية الحديثة ١٩٦٦ .

١٣- مونتغمري - الحرب عبر التاريخ - تعريب وتعليق فتحي عبدالله النمر - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - مصر - ط١ .

١٤- نازارت - التفكير السديد - ترجمة ل. متقاعد محمد خالد - وزارة الدفاع العراقية - دائرة التدريب - مديرية التطوير القتالي ١٩٨٧ .

١٥- نايجل ويست - أساطير التجسس للحرب العالمية الثانية - ترجمة نمير عباس مظفر - وزارة الاعلام العراقية - دار الشؤون الثقافية العامة - الطبعة الاولى ١٩٨٦ .

الكراسات

١ ـ المدخل الى السوق والجغرافية العسكرية ـ مديرية التدريب العسكري ـ وزارة الدفاع العراقية ـ بغداد ـ مطبعة الجيش •

٢ ـ السوق في الاتحاد السوفيتي ـ وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ المطابع العسكرية •

٣ ـ المخادعة السوقية ـ سلسلة الثقافة العسكرية الرقم (٦٦) ـ مديرية التطوير القتالي ـ مطابع الجيش العراقي •

٤ ـ الحصار ومسيرة الاهوال ـ سلسلة الثقافة العسكرية الرقم (١٠٦) وزارة الدفاع العراقية ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ط١ ١٩٨٦ •

الموسوعات

١ ـ الموسوعة العسكرية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ الجزء الاول، الثاني، الثالث، ط١ •

المجلات

١ ـ مختارات سوقية ـ وزارة الدفاع العراقيـــة ـ دائرة التدريب ـ مديرية التدريب القتالي ـ آب ١٩٨٦ •

٢ ـ مختارات سوقية ـ وزارة الدفاع العراقيـــة ـ دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي ـ شباط ١٩٨٦ •

المراجع الاجنبية

THE ENCYCLOPEDIA OF MILITARY HISTORY FROM 3500 BC TO THE PRESENT BY ERNEST DUPUY AND TREVOR N. DUPUY JANES PUBLISHING COMPANY-LONDON, 1977 PAGE "6".

طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

السعر ٥٠٠ر٢

الغلاف : رياض عبد الكريم

بغداد — ١٩٩٠

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة